

عبد الوهاب مطاوع

صوت من السماء

٢٥ قصة إنسانية



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

□ يوليو ٢٠٠١ □
□ عدد ٤٤٣ □



أسعار كتاب اليوم الثقافى فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٣٠	درهم
لبنان	٥٠٠٠	ليرة
الأردن	٢,٥٠٠	دينار
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٧٥٠	دينار
السعودية	١٥	ريالاً
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٣,٥	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٥٠	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٥٠٠	دينار
سلطنة عمان	١,٥٠٠	ريال
غزة	٣	دولار
ج. اليمنية	٣٠٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦	فرنكا
الإمارات	١٥	درهما
قطر	١٥	ريالا
انجلترا	٣	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
ألمانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٦	دولار

● العنوان على الانترنت

WWW. akhbarelyom. org\ketab

● البريد الالكترونى

akhbar el yom@akhbarelyom. org

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٧٢ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

دول اتحاد البريد العربى ٣٢ دولارا

اتحاد البريد الأفريقى ٣٨ دولارا

أوربا وأمريكا ٤٢ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٥٣ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت: ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٢٠٣٢١٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

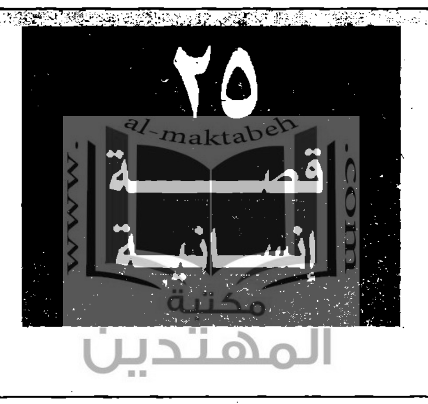
● تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠



عبد الوهاب مطاوع

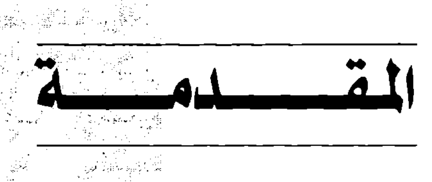
صوت من السماء

٢٥




صوت
من السماء




المقدمة

« صوت من السماء » هو عنوان إحدى قصص هذا الكتاب الواقعية ولقد اخترته عنوانا لهذه المجموعة تأثرا بما روته بطلة القصة من أنها قد تقدم لخطبتها شاب لا تعرفه فشعرت حين رأته لأول مرة بالارتياح إليه .. وسمعت صوتا من السماء يهتف لها بأنه سيكون الزوج الذى تسعد به فتحمست لقبوله بالرغم من ضعف إمكاناته ووقفت إلى جواره خلال صعوبات البداية إلى أن اجتازاها معا واستقرت بهما سفينة السعادة والأمان .

والحق إننا كثيرا ما نتطلع لما يخرجنا من حيرتنا حين تتعدد أمامنا الاختيارات فى بعض مواقف الحياة .. وكثيرا ما نحتاج لمثل هذه « الإشارة » الإلهية التى ترجح لدينا اختيارا على آخر .. أو تبشرنا بالسعادة الموعودة إذا نحن مضينا قدما إلى ما اخترناه .

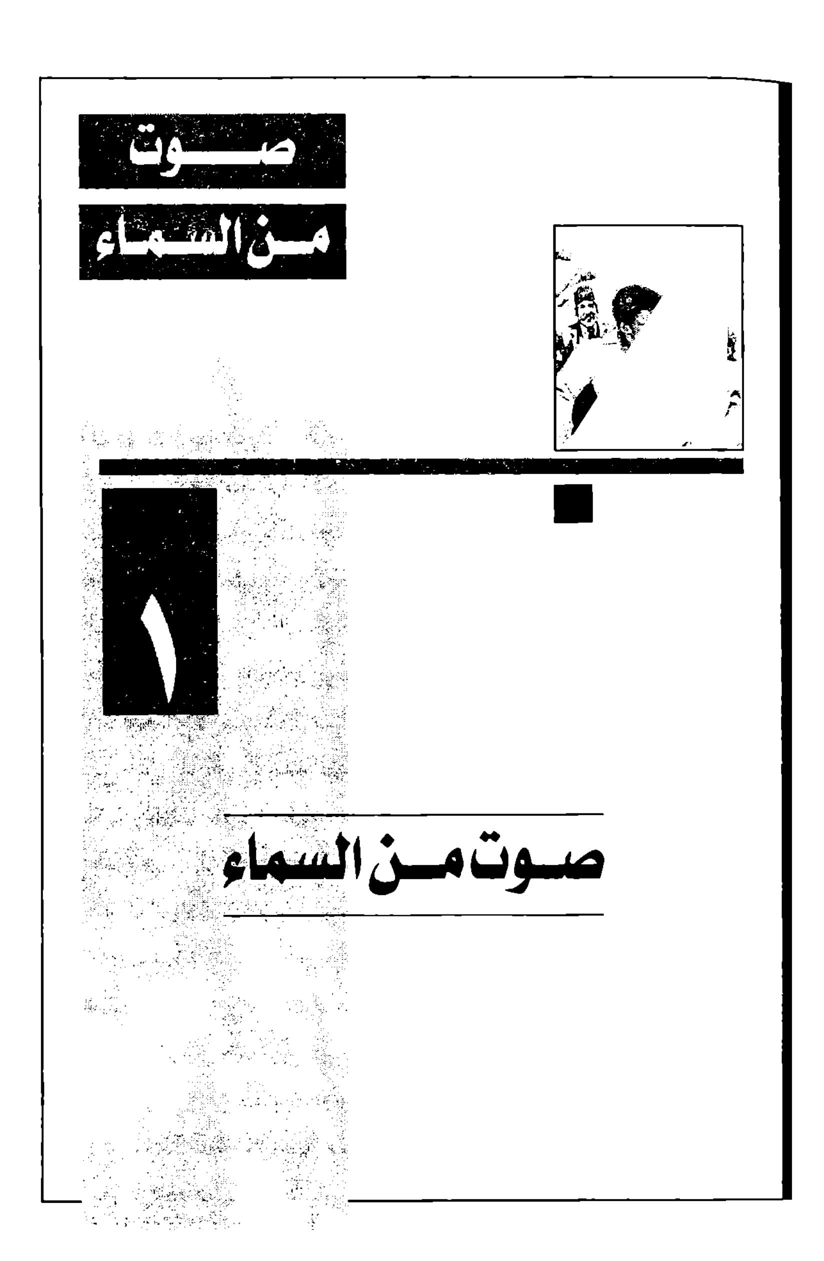
فالإنسان يفكر فى أمره طويلا ويتحسب للعواقب المحتملة .. ويقدر النتائج المأمولة ، ويميل لاختيار طريق محدد يمضى إليه ، لكنه يحتاج بعد ذلك غالبا إلى من يزكى له هذا الاختيار .. ويشعره بأنه سيمضى فيه إلى السعادة والأمان .. ولقد يكون هذا الصوت الباطن

هو « الإشارة التى تحسم تردده .. وتحثه على الإقدام . كما قد يكون الرأى المخلص الذى يسمعه ممن يثق فى اهتمامه . أمره . هو المرشد له للخروج من صحراء التيه والحيرة .

والإنسان دائما فى حاجة إلى العطف والاهتمام بأمره ممن يحيطون به .. فإذا افتقد ذلك فيهم تلمسه لدى من يبدون استعدادهم للتعاطف معه على البعد ولقد أولانى قراء بريد الجمعة شرف الثقة فى احترامى لهمومهم الإنسانية واستعدادى لمشاركتهم إياها ، فتدفقت علىّ رسائلهم على مدى ما يقرب من عشرين عاما حتى الآن .

وفى هذا الكتاب مجموعة جديدة من قصص المهمومين والحائرين ومحاولاتى المتواضعة لإعانتهم على أمرهم .

عبد الوهاب مطاوع



صوت من السماء

أردت أن أكتب لك هذه الرسالة لعلك تجد فيها ما قد يستفيد به بعض الشباب والفتيات خاصة من يشكون منهم قلة الامكانات وتعنت الأسر في المطالب المادية لإتمام الزواج ، فأنا شابة في الثامنة والعشرين من عمرى من أسرة طيبة ، وتخرجت في إحدى كليات القمة ، وحين كنت في السنة الأولى من المرحلة الجامعية تقدم لخطبتى لحد الشبان الأثرياء ، وكان اليوم الذى سأبدى فيه رأيى بالقبول أو الرفض يوم جمعة فصليت صلاة الاستخارة ودعوت الله سبحانه وتعالى أن يهدينى إلى الرأى الصواب ، وبالمصادفة البحتة وعقب انتهائى من الصلاة وقعت عينى على صفحة بريد الجمعة ، وكانت المرة الأولى التى أقرؤها ، فإذا بى أقرأ رسالة بعنوان : « ألوان الورد » تحكى عن سعادة شاب وفتاة تزوجا على أساس من الحب وليس المادة فشعرت بأنها إشارة إلهية لى بالرد المناسب على الأمر الذى يشغلنى فاستخرت الله ورفضت ذلك العريس الذى لم يكن بالنسبة لى سوى شاب في مركز مرموق وميسور الحال ، ولم تعترض أسرتى على قرارى ، لكنه ومن ذلك اليوم أصبحت حريصة على قراءة بريد الجمعة وعلى الاحتفاظ بكل ما ينشر فيه من قصص ، ومضت سنوات الجامعة وتخرجت في كليتى وعملت وبدأت مرحلة جديدة من حياتى..

وبعد عملى بفترة فوجئت بأحد زملائى فى العمل وهو رجل صالح يطلب منى تحديد موعد لأحد أصدقائه لكى يزور أبى فى بيته ويطلب يدى منه ، واستجبت لطلب الزميل الفاضل وحددت لصديقه الذى لا اعرفه ولم التق به من قبل موعدا مع أبى ، وكان فى أحد أيام الجمعة، وقبل أن يجيء الشاب إلى بيتى صليت صلاة الاستخارة مرة أخرى وسألت الله سبحانه وتعالى أن يرزقنى زوجا صالحا يعفنى ويحفظ على دينى ، كما هدانا إلى ذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، وحل الموعد وجاء الشاب واستقبله أبى فى الصالون ودعيت بعد فترة لرؤيته لأول مرة ، فما أن وقع بصرى عليه حتى شعرت براحة قلبية غريبة تجاهه وأحسست أن صوتا من السماء يهمس فى أذنى بأن هذا الشاب سيكون زوجى الذى أسعد به ومعه إن شاء الله . وانتهت المقابلة وانصرف الشاب شاكرا ، وترقبت أن يبلغنى أبى وأمى بترحيبهما المبدئى به ثم يسألانى عن رأيى فيه ، ففوجئت بأسرتى تعلن رفضها القاطع له . وكانت أسبابها لذلك هى أنه لا يملك شقة فى المدينة التى نقيم فيها ، وليس له سوى شقة فى قرية ريفية قريبة من المدينة ، كما أن مستواه المادى ليس مرتفعا كمن سبقوه فى التقدم لخطبتى فضلا عن أنه ليس خريج كلية جامعية مثلى ، وإنما خريج أحد المعاهد العليا ، وتفكرت طويلا فى هذه الأسباب ورأيت أنها كلها ليست أسبابا شرعية للرفض بالرغم من احترامى الكامل لوجهة نظر أبى وأمى ، بل وتقديرى أيضا لحرصهما على سعادتى وطلبهما لى الأفضل ، ذلك أننى قد وجدتهما لا يناقشان خلقه ودينه ومدى قربه أو بعده عن ربه ، أو شخصيته ورجولته مع أن هذه هى العوامل الجوهرية والمطلوبة بشدة لإنجاح الزواج ، وليست الامكانات المادية أو الشقة المناسبة فى المدينة فقط ، كما أننى كنت قد تعلمت من بريدك

أن المال وحده لا يجلب السعادة لأحد إن لم تسانده الفضائل الخلقية والقيم الدينية وحسن المعاشرة ، فاستجمعت شجاعتى بعد شىء من التردد وأعلنت لأسرتى موافقتى على هذا الشاب بل وتمسكى به أيضا واستعنت بالله على محاولة إقناع أبى وأمى بهذا الشاب ، لكن محاولاتى كلها باءت بالفشل ، واعتصمت بالصبر فى محاولة تغيير رأيهما ، والتزمت معهما أدب الحوار ، فلم تصدر عنى كلمة واحدة تغضبهما منى والحمد لله ، وحين وجدت أن توسلاتى إليهما لم تجد شيئا ، مرضت وأصابنى ما يشبه الذبحة الصدرية ، مما دفع أحد أقاربى لأن يسألنى : لماذا أتمسك بهذ الشاب بالذات وهل هناك علاقة غرامية بيننا تدعونى لهذا الإصرار عليه ؟ فأجبته صادقة بأن الله سبحانه وتعالى شاهد على أنى لم أعرفه ولم ألتق به ولم أره إلا يوم جاء إلى بيتنا لخطبتى ، لكنه « القبول » الذى لم أستشعره تجاه أى إنسان آخر سواه ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

وإزاء مرضى واستسلامى للحزن والكآبة لم يملك أبواى سوى الموافقة على خطبتى لهذا الشاب ، وهما غير متحمسين وتمت الخطبة وكان يوما حزينا بالنسبة للأسرة ورأيت الحزن الصامت فى عيون كل أفرادها ، ولم أشعر بالفرحة التى ترقبتها ، وبدأ خطيبى يزورنى فى البيت كثيرا فلم تمض فترة طويلة حتى كان قد استطاع أن يثبت للجميع حسن أخلاقه ورجولته ، فلم يمانع أبى فى عقد القران ، وبدأ زوجى فى إعداد مسكنه بالقرية ، وشيئا فشيئا أصبح هذا الشاب الذى لم يرحب به الجميع فى البداية أقرب إنسان إلى قلوب أبى وأمى وإخوتى وبدأت أنا أغبطه على حب الجميع له .. وخلال ذلك حاولت مساعدته على إتمام الزواج فاشتركت فى جمعية إدخار بمعظم مرتبى سرا ، وقدمت له مبلغ الجمعية ليستعين به على أمره ، ثم بدأت

جمعية أخرى واشتريت بقيمتها بعض الأشياء اللازمة للجهاز وزعمت لأسرتى أنه هو الذى اشتراها بماله لكى أعزز موقفه أمامها ، واقترب موعد الزفاف ولم يكن زوجى قادرا على شراء الفستان الأبيض كما كان مطلوبا منه ، فاشتريته أنا سرا وأخبرت أسرتى أنه قد اشتراه ، وتم الزفاف السعيد وانتقلت مع زوجى إلى شقته بالقرية الريفية وبدأنا حياتنا الجديدة بأداء ركعتى شكر لله سبحانه وتعالى الذى جمع بيننا ، ومن اللحظة الأولى التى بدأنا فيها حياتنا معا وجدت فى زوجى كل ما أتمناه فى شريك الحياة من حب وحنان ومراعاة لمشاعرى ، وشعرت بأننى امرأة وهو الرجل ، فلم أقدم على أى عمل إلا باستشارته وقبوله ، واستشارنى هو فى كل شىء ، وحرص كل منا على ألا يغضب الآخر منه .

وواجهتنا فى البداية صعوبات مادية شديدة ، فلقد كان زوجى مدينا بديون ثقيلة اقترضها من أصدقائه لإتمام الزواج ، وعليه أن يبدأ سدادها على الفور ، فطلبت من زوجى ألا يعطينى من مرتبه سوى ٥٠ جنيها فقط كل شهر ولسوف أدبر أمور معيشتنا كلها بهذا المبلغ الضئيل مع مرتبى الذى لم يكن يزيد وقتها على مائة جنيه ، وفعل زوجى ذلك واشترك ببقية مرتبه فى جمعية لسداد الديون ، ولم تمنعنا الضائقة المالية من أن نستشعر السعادة والحب فى حياتنا . كما لم تمنعنا كذلك من أن يقدم كل منا للآخر هدية بسيطة فى عيد ميلاده أو عيد الزواج مصحوبة بأرق الكلمات ولا من أن نخرج من حين لآخر للنزهة لكى نجدد نشاطنا ، وراح زوجى يعمل ساعات طويلة للغاية لكى يسدد ديونه والتزاماته حتى أشفقت عليه من المجهود الزائد الذى يبذله ، وفى محاولة منى لتخفيف العبء عنه قدمت له دون أن تعلم أسرتى شبكتى ليبيعها ويسدد بثمنها بعض

الديون لأن دور الشبكة قد انتهى فى نظرى بمجرد أن شاهدها الناس فى حفل الزفاف ، وليس من الحب أن أرى زوجى وهو يختنق ويكافح كفاحا مريرا لسداد ديونه ولدى ما أستطيع مساعدته به ولا أقدمه له طواعية ، وأنجبت مولودتى الجميلة ولم يعلم أحد أبدا من أهلى أو من الآخرين أننا فى ضائقة مالية شديدة ، وبتوفيق من الله استطاع زوجى خلال عامين فقط من الزواج سداد جميع ديونه وتنفسنا الصعداء ، وبدأنا نستشعر الراحة فى حياتنا ، وقمنا بشراء بعض الكماليات التى كانت تنقصنا ، وحرص زوجى دائما على أن أصل رحمى وأن يصل هو رحمه وحرص على مجاملة أهلى ، كما أحرص على مجاملة أهله الذين يحبوننى كثيرا ، فسبحان من بفضله تتم الصالحات ، فلقد هبطت علينا جوائز السماء التى تعد بها فى بريدك الصابرين والصامدين لصعاب الحياة ، وحصل زوجى على ترقية فى عمله لا يصل إليها أحد إلا بعد سنين طويلة من العمل وزاد دخله كما زاد مرتبى أنا أيضا فتحسن وضعنا المادى كثيرا وتم لنا شراء كل الكماليات التى كنا فى حاجة إليها ، ونحن الآن نستعد لبناء شقة خاصة بنا فى المنزل الذى يملكه والدى فى مدينة أسرتى وكل ذلك بفضل الله وفضل اجتهاد زوجى وعمله ليل نهار لإسعادنا وبفضل تعاوننا معا على طاعة الله ، ولم نكن نستطيع التغلب على كل هذه المشاكل التى واجهتنا بغير الحب الذى هون علينا كل الصعاب ، ولقد كتبت رسالتى هذه للفتيات اللاتى يتمسكن بالشقة فى المدينة والإمكانات المادية الكبيرة للزوج ، وأقول لهن إنه إذا كانت أسعار الشقق فى المدينة تفوق قدراتنا فلماذا لا نتجه إلى الريف أو المدن الجديدة خاصة أن المواصلات وخطوط التليفونات قد قصرت المسافات ، ولماذا لا نتعاون مع الشباب على تقليل الصعاب ؟ السعادة

لا تتحقق بها وحدها ولا تقتصر على مساكن الأحياء الراقية . وإنما تولد فى كل مكان يجتمع فيه قلبان على الحب الصادق والإخلاص والوفاء ، و « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نعم يا سيدتى « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » فالحق إنه تاسرنى دائما صورة الزوجة الشابة المحبة التي تختار شريك حياتها بهدى من تعاليم دينها التى ترجح الأخلاق والدين على بقية الاعتبارات ، فتتحمل مع زوجها بإرادتها واختيارها صعاب البداية وتستعين بحبها له وحبه لها على مغالبة الظروف القاسية واحتمالها ، حتى إذا اجتازا الصعاب معا وتنسما بعض نسائم الراحة واليسر فى حياتهما ، سلم كل منهما للآخر بانه لولا مساندته له وإيمانه به حتى فى أحلك اللحظات لما نجت السفينة من التحطم فوق الصخور ولما حققا معا ما حققاه من نجاح .

إنها قصة الأمس واليوم والغد ، قصة إعلاء العاطفة الصادقة والأخلاق والدين على ما سواها من الاعتبارات الأخرى التى لا تحقق وحدها السعادة وإن عظم شأنها وقصة الاستعداد للتضحية ببعض متاع الحياة فى سبيل انتصار الحب على الصعاب ، والصبر على الظروف غير المواتية والكفاح المخلص لتغييرها إلى الأفضل ، فلا عجب أن يكون ما يحققه التعاون المخلص بين شخصين ارتضيا طريق الكفاح بشرف لتحقيق أهدافهما فى الحياة أعلى قيمة وأبلغ أثرا فى حياتهما من مثيله لدى الغير .

فلقد كان الإمام ابن حزم يقول : إن أسرع الأشياء نموا أسرعها فناء ، وأبطاها حدوثا أبطؤها نفادا ، وما دخل عسيرا لم يخرج

يسيرا ، والحق أن لكل زوجة محبة « إبداعها الخاص » فى حياة زوجها ، ولكل زوج عاشق كذلك إبداعه الشخصى فى حياة زوجته، غير أن إبداع الزوجة أعمق أثرا على الحياة المشتركة بينهما لأنها عماد الأسرة ، وخازنة بيت مالها وكاتمة أسرارها ، والقادرة إذا أرادت على الصبر على ما قد يضيق به أحيانا صبر زوجها نفسه ، كما إنها أيضا القادرة على صنع المعجزات أحيانا حين يصح عزمها على إبقاء السفينة طافية فوق سطح الماء مهما زمجرت حولها الأعاصير .

ولقد بدأ « إبداعك » الخاص فى حياة زوجك بقبولك له استجابة لهمس السماء لك بأنه قد يكون الزوج المنشود الذى يطمئن به جانبك واستشرافا لحسن المال معه بالرغم من ظروفه غير المواتية ، وإشفاق أسرتك عليك من مكابدة شظف العيش معه ، ثم تجلى هذا الإبداع فى ارتضائك طريق الصبر والكفاح معه والتضحية من أجله بما تملك يداك من أجل إنجاح الحياة الزوجية واستمرارها .

فكان عطاؤك له عطاء المحب المؤمن بشخص يضحى من أجله ، ويؤمل منه خير الجزاء .

فصدقت فراستك فى حسن اختياره بالرغم من إنك لم تريه إلا يوم جاء يطلب يدك ، وأثبتت لك الأيام أن ما صادفه من قبول فورى فى نفسك وقلبك كان له ما يدعمه ويرسخه من كرم الأخلاق وحسن الشمائل ، فكأنما تذكريننا بما نبهنا إليه الهادى البشير صلوات الله وسلامه عليه من أن الأرواح جنود مجندة ما تآلف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف . وهى الحقيقة النفسية التى أكدها فيما بعد علماء النفس المحدثون ، وبالغ فى الإيمان بها الفيلسوف الألمانى شوبنهاور حتى قال إن وجه المرء أدل على حقيقته من لسانه ، لأن اللسان قد يكذب ويخدع ، أما الوجه فى

رأيه فهو مرآة شخصية المرء وأفكاره واتجاهاته ، لأن الوجه كما يقول لا يخطيء لكننا نحن الذين قد نخطيء أحيانا فى قراءته . وهو رأى يحتمل المناقشة لكن بعض مؤيديه يؤمنون بما قاله الكاتب الإنجليزى اللورد تشسترفيلد من انه : إذا أردنا ان نعرف حقيقة الشخص الذى يتحدث إلينا فلننظر فى وجهه لأنه قد يستطيع السيطرة على لسانه فلا ينطق بما لا يريد له البوح به ، اما الوجه فإنه لا يستطيع غالبا أن يسيطر عليه ، وعلى أية حال فإن لكل قاعدة استثناء .. ومن محاسن الصدف أن صدقت معك القاعدة ولم تستخدم استثناءاتها معك .. فاكدت المعاشرة صدق الحس التلقائى بالارتياح النفسى لمن اختاره القلب من النظرة الأولى لرفقة الحياة ، ومن غرائب النفس البشرية أن الإنسان مهما اوتى من علم أو خبرة بالحياة فإنه لا يستطيع أبدا أن يعرف لماذا استراح لإنسان يراه لأول مرة ، او لماذا لم يشعر بالارتياح لآخر رآه كذلك للمرة الأولى ، مما يعيدنا من جديد إلى نظرية الأرواح المجندة التى أثبت العلم فيما بعد صحتها وفسرها .

فاما ما توقفت أمامه أيضا فى رسالتك فهذا هو النوع الإيجابى من العاطفة الغامرة التى تحملينها لزوجك وشريك حياتك ، ذلك أنه حب بان للرجال وحافظ للحرمات والكرامات، وقد تبدى ذلك فى حرصك على إعانة زوجك على أمره وإظهاره فى نفس الوقت بالمظهر الذى لا يتعارض مع كرامته كرجل اضطرته قسوة الظروف لقبول مساعدة شريكته سرا له فى بعض ضروريات الزواج ، كما توقفت أيضا أمام إشارتك الواعية إلى أن الأسباب التى رفض الأهل من أجلها زوجك حين تقدم لك كانت بالرغم من وجاهتها ومنطقيتها أسبابا « غير شرعية » لأنها لا تتعلق بدينه وخلقه ، وإنما بظروفه التى قد يشاركه فيها

الكثيرون ولم يردها أحدهم لنفسه ، فإذا كان زوجك قد نجح بسجاياه الأخلاقية ورجولته فى اكتساب مودة أهلك بعد الرفض المبدئى له .. فلأن الأهل إنما يسعدون يا ابنتى فى النهاية بمن يسعد أبناءهم ، حتى ولو كرهوه فى البداية أو تخوفوا عليهم منه .. والهدف فى البداية والنهاية هو سعادة الأبناء ، فإذا تحققت على يد من استشعروا القلق تجاهه أو تشككوا فى قدراته فى البداية ، زالت كل الاعتراضات وسقطت الحواجز وتحول الرفض إلى قبول ، والفتور إلى محبة واعتزاز . وشكرا لك .



صوت
من السماء
٢
الضوء المبهر

أنا شابة أبلغ من العمر ٢٨ عاما . نشأت في أسرة ميسورة الحال وتولى تربيتي وتنشئتي ثلاث شخصيات ، الأولى والدي بدراسته الدينية المستفيضة ، والثانية والدتي المتعلمة المثقفة بعقلها الراجح وبساطتها ، أما معلمي الثالث فهو « بريد الجمعة » فلقد تفتحت عيناي على بابك الجميل الذي أدمنته ولم تكن قراءتي له قراءة سطحية وإنما قراءة عميقة أتعلم خلالها من أخطاء الآخرين الذين يكتبون لك وأتعلم من ردودك عليهم ، وكنت ومازلت أحتفظ بالكثير من الرسائل الجميلة التي نشرت في بريد الجمعة ، إما لأنها رائعة ولا تنسى وإما لأنها صادفت هوى في نفسي ، منها رسائل « رحلة القطار » و « تحت المائدة » و « أرض الأحلام » و « الملابس المتهدلة » و « الفندق » و « نفثة في الهواء » وغيرها الكثير .

ولقد قوم « بريد الجمعة » من سلوكي كثيرا فتخليت بإرادتي عن العناد ومناطحة أبي وأمي في كل أمر وابتعدت عن التعقيد وكل ما من شأنه إثارة القلق والمتاعب حولي ، وسارت حياتي هادئة وأصبحت الأثيرة عند أبي وأمي بالرغم من أني الابنة الوسطى ، وأسبغ الله من فضله عليّ الكثير فكنت دائما من المتفوقين والتحقت بكلية الصيدلة ومضت بي السنون وفي السنة النهائية فاجأتني حالة من الخوف

المستمر لم أجد لها تفسيرا فوجدتنى لا أقوى على دخول لجان الامتحان وبصعوبة بالغة ذهبت إلى الكلية وأديت الامتحانات ونجحت وأنا لا أصدق أنى قد اجتزتها ، وفى هذه الأثناء التمست العلاج النفسى من الخوف الغامض وبدلا من أن يعالجنى الطبيب النفسى وقع فى غرامى على عكس المتوقع فى هذه الحالات ، فتركته وأيقنت أنه لا مخرج لى من هذه الأزمة إلا بالجوء لله واستعنت بالصبر والصلاة على هذا الخوف الغريب وكنت أعلم أنه ابتلاء من الله لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وبعد تخرجى عملت فى صيدلية قريبة من منزل والدى يملكها صيدلى كان له أكبر الأثر فى حياتى فحدثته عما أعانيه من هذا الخوف الغريب بعد ما لمست من تدينه وقربه من الله وأيد تفسيرى له بأنه ابتلاء من الله ليختبر به إيمان عباده الأحباء وأمرنى أن أتذكر هذه المرحلة من عمرى جيدا ولا أنسى ما مررت به من عذاب بسبب هذا الخوف حتى يكون دافعا لى لأن أضع الله أمامى دائما وقبل أى خطوة أخطوها وقبل أى كلمة أنطق بها .. وقال لى أيضا إن الذهب لابد أن يصهر لكى يصبح سبيكة وكذلك العباد الصالحون الذين يريد لهم الله مرتبة معينة لابد أن يصهروا بنار التجارب المريرة ، وكنت أفتح أذانى لأسمع كلامه واحفظه وقضيت عند هذا الصيدلى عشرة أشهر كاملة كان لى فيها بمثابة الأب وكنت له بمثابة الابنة لأن الله لم يرزقه الأبناء ، وخلال هذه الفترة تقدم لى كثيرون رفضتهم لأنى كنت أتمنى فارسا فى خيالى أشعر بأنه لا وجود له فى عالم الواقع .

وذات يوم جاء إلى الصيدلية التى أعمل بها صيدلى شاب أعرفه جيدا لأن صيدلية والده تقع على ناصية الشارع الذى نسكن فيه وكان يعرفنى معرفة عابرة ، وأكن له الاحترام والتقدير ولا شىء أكثر من ذلك فوجدته فجأة يسألنى ما إذا كنت مرتبطة أم لا .. فأجبته

بالنفى ووجدته يطلبنى للزواج ويخبرنى أنه يريد أن يقابل والدى.. وفى هذه الجلسة عرفت منه أيضا أنه سبق له الزواج وأنه طلق زوجته بسبب عدم الإنجاب فطلبت مهلة للتفكير ، وأخبرت أبى وأمى بالأمر فوجدتهما يرحبان به لسمعة والده الطيبة ولأن موضوع زواجه السابق لا يعيبه لكنى لم اقتنع بهذا الكلام وجلست معه عدة جلسات لم أشعر بعدها بالارتياح فقررت رفضه فى النهاية .

ثم جاء والده إلى منزلنا وجلس معى جلسة طويلة أجاب فيها على كل الأسئلة الحائرة التى تدور بداخلى وعلمت بعد ذلك أن زوجته السابقة كانت تعلم أنها لن تنجب منذ أن كانت فتاة عذراء لكنها أخفت عنه هذا الأمر وبعد الزواج بستة أشهر صارحته بالحقيقة وبأن لها ملفا عند أكبر أساتذة النساء فى مصر فانطوى على المرارة تجاهها ثم صبر عليها أربع سنوات لم تقبل خلالها أن تقوم بعملية واحدة وأرجأت الأمر إلى أن يحدث الحمل تلقائيا بدون علاج ، فاستجمع أمره وقام بأداء العمرة ورجع منها بقرار الطلاق .

وعندما علمت ذلك هدأت هواجسى وقبلت الزواج منه وكان هو مستعدا ماديا بالرغم من أن زوجته السابقة أخذت كل ما فى الشقة من أثاث ولم تترك حتى الأشياء الشخصية التى اشتراها لنفسه ، وكان أبى مستعدا أيضا من الناحية المادية فتزوجنا سريعا بمجرد إعداد الشقة ، وبعد الزواج اكتشفت صفات زوجى الرائعة من الأخلاق الراقية إلى الكرم الزائد إلى الهدوء فكان بحق الفارس الذى طالما حلمت به من قبل وتعجبت لزوجته السابقة كيف لم تضح ولو بنفسها من أجل إنسان كهذا وكانت بداخلى أسئلة كثيرة عن حياته السابقة وظروف طلاقه اتحرق شوقا لكى أعرف إجاباتها منه ولكنى كنت قد اتفقت معه اتفاقا ضمنيا ألا نفتح باب الكلام فى هذا

الموضوع ، فمضى أول عام على زواجنا وأنا أتعامل معه بحدة وعصبية وأتصيد له الأخطاء ! وفى هذه الأثناء كان موضوع الخوف السابق مستمرا وإن كانت حدته قد خفت قليلا وكنت أتعجب لعدم اختفائه من حياتي بالرغم من أن هناك الكثير الذى يشغلنى عن التفكير فيه ، كما كانت لى صديقة قريبة من قلبى تحثنى دائما على أن أكون حسنة الظن بالله وكنت أبكى لسماعى ذلك منها وأسأل نفسى : ألست حسنة الظن بالله ؟ إننى أرى أنى وثيقة الصلة بربى.. إذن لم كل هذا الخوف ؟ أما عن علاقتى بزوجى الحبيب ففى نهاية العام الثانى لزواجنا أتت اللحظة السحرية التى تتحدث عنها دائما فى ردودك وفتح هو باب الكلام عن حياته السابقة ووجدتنى أسأله كل الأسئلة التى حيرتنى وأسئلة أخرى كثيرة كنت لا أستطيع أن أسأله إياها قبل الزواج .

وطال بنا السهر يومها وأجاب على كل ما كان يثير قلقى بشأن حياته السابقة ، وهدأت خواطرى تماما بعد ذلك وصفت لى الحياة معه .. فلم نختلف بعد ذلك أبدا وأصبحت رحلتنا معا شهر عسل متصلا وأنجبت طفلين تقاسما بالعدل جمال القمر ، وسافرنا منذ ٤ شهور فى إجازة قصيرة إلى الغردقة .. وهناك أقدمت على خطوة أغضبت منى زوجى بعض الوقت لكنه تجاوز عن غضبه بعد قليل بسماحته المألوفة فلقد وهبنى الله شعرا نادر الجمال لم أضع فيه مقصا منذ صغرى وتركته على طبيعته فطال واسترسل حتى أصبح فتنة للناظرين ، وقررت أن أخفيه عن العيون فلا يراه إلا من سيكون لى زوجا فى المستقبل فارتديت الحجاب وأنا فى المرحلة الإعدادية ، ولم أخلعه عن شعرى إلا أمام زوجى بعد عقد قراننا .. ورأى زوجى لأول مرة شعرى الطويل المسترسل الذى يصل إلى الساقين ، فانبهر به واتسعت عيناه من الدهشة والانبهار ، وكان دائما شديد الإعجاب

به ، وفى رحلة الغردقة هذه قررت فجأة أن أقصه من باب التغيير ولكيلا يمل زوجي منظرى الذى لا يتغير ، وأقَدمت على ذلك دون استشارة زوجي ، وبالفعل استشاط غضبا ثم رجعنا من الإجازة ومضت بنا الحياة جميلة واعدة لا يزعجنى فيها شىء سوى أن طفلى الرضيع ولسبب لا أعرفه ، كان يرفض الرضاعة من أحد ثدييّ ، ويرضع بصعوبة من الثدى الآخر ، وتشعرنى الرضاعة بالألم فى صدرى وبعد استشارة الطبيب وزيادة الألم قررت فطام صغيرى وهو فى الشهر الثامن من عمره ووعدنى الطبيب باختفاء الألم من صدرى بعد أن يجف لبنه ، لكن اللبن لم يجف والألم لم يختف .. وفى هذه الفترة من حياتنا الزوجية قررت أنا وزوجى الحبيب أن ننتقل من الحى الذى نقيم فيه إلى حى أجمل وبدأنا رحلة البحث عن شقة جديدة ملائمة وأعيانا البحث عنها بالرغم من كثرة المعروض من الشقق ، وذات ليلة رأيت فى نومى نورا مبهرا يضيىء شقتنا ، وتغشى منه العيون ، ونهضت من نومى مستبشرة خيرا بقرب العثور على الشقة المأمولة وبعد يومين فقط من هذا الحلم الجميل وفقنا الله سبحانه وتعالى للعثور على شقة أقرب ما تكون إلى القصر منها إلى الشقة السكنية ، واتفقنا مع صاحبها على كل التفاصيل بلا مشاكل، وخرجنا من عنده وأنا أتيه زهوا بحياتى .. انظر لى نفسى فأرانى قد ازددت جمالا .. وإلى حياتى فأرى لى زوجا تحسدنى عليه الأخريات وطفلين يلفتان النظر بجمالهما وشقة فاخرة وسيارة جميلة وصيدلية ناجحة ، وأهلا كراما يحبوننى وأحبهم وصديقات أتشارب معهم الود الصافى فماذا ينقصنى ، وفى غمرة هذا الإحساس الشامل بالرضا والزهو وجدت نفسى أتساءل صامتة فى إشفاق : ترى ماذا ستأخذ منى يا رب لكى تتزن المعادلة ؟

إن كل شيء في صالحي الآن ويدعونى للفخر والابتهاج .. فهل ستمضى الحياة على هذا النحو الجميل إلى النهاية ؟ وعاودنى شيء من الخوف الغامض الغريب الذى سبق أن هاجمنى طويلا قبل التخرج ، ثم لازمنى بدرجة أخف بعد ذلك ، وبعد يومين فقط من هذا التساؤل شعرت ببعض الألم في صدرى وتوجهنا للطبيب الذى أحالنا إلى أستاذ مشهور وبعد فحوص سريعة فوجئت به يبلغنا بطريقة مباشرة وبلا أى محاولة للتخفيف عنا أن المرض اللعين قد هاجمنى في صدرى ، وأن الحالة متأخرة ستة شهور عن موعد الاكتشاف الملائم ، وأن زوجى إذا كان يريد لى أن أحيا فعليه أن يدخلنى المستشفى غدا على أكثر تقدير لإجراء جراحة الاستئصال العاجلة بلا تأخير ! وانخرط زوجى في بكاء مرير لم يستطع منعه أو التحكم فيه أمام الطبيب المشهور الذى أعلنه بالخبر على هذا النحو القاسى ، وانفجرت دموع أمى كالسيل ، أما أبى فقد كان لحسن حظه مسافرا للخارج لكنه علم بالخبر من أمى في نفس الليلة ولن أصف لك حاله حينذاك رحمة بقراء هذا الباب .

وفى اليوم التالى دخلت المستشفى وتم تحضيرى للجراحة على وجه السرعة ، وعلى خلاف عادتى في قراءة شيء من آى الذكر الحكيم كل صباح ، فأنى لم أقرأ القرآن في ذلك اليوم وإنما تلوت الشهادتين .. ورحت أكررهما حتى غبت عن الوعى ، وسرى فىّ مفعول المخدر وتمت الجراحة بسلام . ومررت بعدها بفترة عصيبة حتى استرددت قواى الخائرة ، ووجدت نفسى غارقة في طوفان من المشاعر الجياشة التى غمرنى بها الجميع ، حتى أن أشخاصا لم تكن معرفتى بهم قد تجاوزت الشهرين قبل المرض قد جاءوا لزيارتى في المستشفى وغمرونى بعطفهم وتشجيعهم ، أما زوجى وأمى وأبى

وأخوتى فلقد أحـاطونى بحـبـهم ورعـايتـهم ومشـاعرهم ، وبدأت أتلقى العلاج الكيمـاوى اللازم بعد هـذه الجراحـة ، واسـتـغـرقت هذه المحنة العصيبة شـهرين حتى الآن وخـرجت منها بعدة خـواطر وتأمـلات أريد أن أشركك أنت وقراءك معى فيها ، فلقد وجدت فيما جرى لى تفسيرا لذلك الحلم الـغـريب عن الضـوء المبـهر الذى رأيتـه يـغـمر شـقـتى حتى تغشى منه الإبصـار ، وظننتـه فى وقـتـهـا بشـارة الـعـثـور على الشـقـة الملائمة وأدركت أن هذا التفسير لم يكن صحيحا وأن هذا النور الذى رأيتـه كان إشـارة مسبقة إلى نور الله الذى غمر قلبى يوم الجـراحـة وجعلنى لا أحتاج إلى أحد .. ولا أتطلع إلى غيره ، وحاشـاى أن أفعل وقد كان الله يملأ جوانحى ويبدد وحشتى وخوفى .

كما لاحظت كذلك أننى حين عرفت الخبر وانخرط زوجى فى البكاء لم أبك وإنما اجتـاحنى شـعور غريب بالأمـان والاطمـئنان ، وزال عنى الخوف الـغـامض الذى حدثتك عنه من قبل ، وأحـسست بأن ما أعانيه لن يكون سـوى أزمـة عـابرة وتذهب إلى حـال سـبـيلهـا وهكذا فلقـد وجدتنى بعد الجراحة مستبشرة ومبتهجة وزارنى الجراح الذى أجرى العـملية فـوجـدنى أضـحك ولا أشـعـر بـالحـزن على فـقـدى لجـزء من أنوثتى. فـسـعد كـثـيرا بحـالتى النفسية وقـال لى إنها جزء مـهم من شفـائى ، وبالفعل فلقد كانت ومازالت معنوياتى عالية ولم يكن يقلقنى سـوى زوجى الحـبيب الذى اعتـصـره الألم من أجلى ولم يسـتطع أن يخفى ألمه بالرغم من رؤيته لى وأنا سعيدة ومبتهجة بعد الجراحة .. ولقد شـددت من أزره وقلت له إننا سـوف نهزم السرطان بالسـعـادة ، وإن ذلك هو العلاج الأقوى له ، فقويت عزيمته بعد أن رأى تماسكى .

كما قد فـهمت أيضـا سـر هذا القرار المفاجىء الذى ا تخذته قبل أربعة شـهور بقص شـعرى الطويل المسترسل وأدركت أنه كان رحمة

من الله بي ولذلك كنت قد احتفظت به حتى داهمني المرض .. هل كنت سأحتمل منظره وهو يتساقط أمامي بسبب العلاج الكيماوي أم كان قلبي سينفطر حزنا عليه ؟ وحمدت الله كذلك أن جعلنا برحمته من القادرين على تحمل نفقات العلاج الباهظة ، وفكرت في حال غيري من المعدمين الذين لا يقدرون على تحملها ، ولم نكن ننتظر هذه المحنة لكي ندرك ذلك فكان جزء ثابت من زكاة مالنا يذهب دائما للمعهد الذي يعالج البسطاء من هذا المرض الخطير ، سواء بالنسبة لزوجي أو لأبي .

ولقد حمدت الله أيضا أن ما حدث لم يصب أحدا سواي وتساءلت: كيف كنت سأحتمل الحياة لو كان ما حدث لي قد أصاب أبي أو أمي أو زوجي ، وعرفت من هذه المحنة أيضا أصدقائي من غيرهم ، فبعض من كنت أحسبهم أصدقاء لم يكلفوا أنفسهم عناء السؤال عني ، وبعض من كنت أحسبهم من المعارف قد أظهروا لي من صادق الود والاهتمام ما يجعلني مدينة لهم بالشكر طوال الحياة ، أما أهم الخواطر والتأملات فهي أنني قد تعجبت لنفسي حين أبلغنا الطبيب الكبير الخبر بطريقة خالية من الرحمة ، فلقد كانت فكرة الموت بعيدة تماما عن خاطري ، فعرفت من المحنة أنني كنت مغرورة بشبابي وصغر سني ، وسألت نفسي لماذا لم تتعظي أيتها المغرورة بوفاة صديقة طفولتك وهي تضع مولودها الأول في عمر الثالثة والعشرين واكتفيت بتوديعها بالدمع السخين ، دون أن تتحسبي لاحتمال اقتراب نفس هذا الزائر منك ! وهل لابد أن يحدث للمرء حادث جلل لكي يعرف أن الموت زائر قريب لا يرتبط بالأعمار ولا المواعيد ويمكن أن يحل فجأة في المكان !

لقد شكرت الله على أن نبهني إلى ذلك لكي استغفره كثيرا

وأستـعد للحـياة طاهـرة من كل ذنب فى أى مـرحلة من العـمـر ، وهذا أفضل كثيرا من أن تنطوى صفحة الحياة فجأة وفى العمر ما فيه من الذنوب التى لم يكفر عنها المرء بعد .. ولم يستعد للقاء الحبيب ، كما قد تذكرت كلمات الصيدلى الذى عملت معه فى البداية بأن أضع الله نصب عينى دائما فى كل لحظة وكل خطوة ..ولقد التزمت بذلك ولم يبق لى من رجاء سوى أن يمنحنى الله الوقت والعمر لكى أزور بيت الله الحرام الذى زرته من قبل فى طفولتى ، وكل ما أرجوه منك ومن قرائك الأعزاء هو أن تدعو لى الله بالشفاء وبأن يطول عمرى حتى أتمكن من زيارة بيت الله الحرام لأرجع منه كما ولدتنى أمى ، وعندها لن يشغل خاطرى أمر الطفلين اللذين لم يكمل أصغرهما عامه الأول لأنهما سيكونان دائما فى رعاية من هو أكبر وأعظم من الجميع جل شأنه، وأخيرا فإنى أتمنى أن التقى بك أنا وزوجى فى مكتبك لأسمع منك .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ذكرتنى رسالتك المعبرة هذه بما كان يقوله حكيم الهند طاغور عن نفسه وقد كابد من آلام الحياة الكثير ، من أنه يداوى آلامه بالتامل و « الفرح الداخلى » الذى يصهر به الألم فى بوتقته الداخلية ويحيله إلى فهم أعمق لحقائق الحياة .

والحق أن فى رسالتك يا سيدتى الكثير والكثير مما يستحق الوقوف أمامه وتامله والتفكير فيه ، غير أن أكبر ما يدعو إلى الإعجاب به منها هو هذه النفس الجميلة المطمئنة الخالية من المرارة والمتفائلة بالحياة والعامرة بنور الإيمان المبهر ، التى تاملت كلماتها الحكيمة وسطورها النبيلة .

لقد قرأت ذات مرة كلمة جميلة للمفكر العربى السورى الدكتور مصطفى السباعى يقول فيها : من عرف ربه رأى كل شىء فى

الحياة جميلا ! وأنت قد عرفت ربك وغمر ضوء الإيمان الباهر جوانحك ، فأحال كل شىء فى الحياة حتى محنها وآلامها القاسية لديك إلى أمان واطمئنان ، وثقة فى رحمة الله ورعايته للمتقين ، فلا عجب فى أن تتخلصى من الخوف المرضى الذى داهمك لعدة سنوات من قبل وكاد يقعد بك عن استكمال الدراسة ، فكأنما قد كان إرهاصا غامضا بما تدخره لك الأيام من اختباراتها فما إن وقعت حتى تخلصت أنت من سطوة الخوف عليك وسكنت نفسك وتحفزت إرادتك لمغالبة شدائد الحياة والصمود لها .

ولقد رويت من قبل قصة من الأدب القديم عن رجل سطا لص على بيته فسرق كيس نقوده ، فما إن اكتشف ذلك حتى استسلم للغم بضع دقائق ثم ما لبث أن تفكر قليلا فيما وقع له ثم نفض عنه غمه وقال لمن معه : أحمد الله انها أول سرقة أتعرض لها ، وأحمد الله على أن المبلغ المسروق وإن كان كل ما أملك فى هذه اللحظة إلا أنه ليس كبيرا ، وأحمد الله على أن اللص الذى سرقنى لم يقتلنى وهو يسرقه ، أما أعظم ما أحمد الله عليه فهو أننى المسروق ولست السارق مما يعنى أن لدى ما يستحق السرقة ، ويعنى أيضا وهو الأهم أننى رجل شريف !

وهكذا فقد أحال الرجل ما أصابه إلى حدث يذكره بنعمة الله عليه وليس إلى أمر يستثير نقمته على أقداره .

ولقد نحتاج أحيانا لأن تذكرنا الحياة من حين لآخر بنعم الله علينا لكى نشكره عليها حق شكره ونرضى عنها ، فالإنسان أكثر ما يكون غفلة عن هذه النعم حين يكون مغمورا بها ، ويركد تيار الحياة من حوله فلا يذكره بواجب الشكر عليها .

ولقد سأل رجل الإمام الشافعى - رضى الله عنه - : أيهما أفضل للرجل أن يمكن « أى أن يبلغ أمله » أو أن يبتلى ؟ فأجابه : إنه لا يُمكّن حتى يبتلى ! ثم أضاف : إن الله ابتلى نوحا وإبراهيم

وموسى وعيسى ومحمدا ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكّنهم !

ولقد صبرت يا سيدتي وأحلت الامك « بالتامل والفرح الداخلى » إلى ابتهاج بالحياة وتفاؤل بالغد ، ولسوف « يمكّن » لك الله سبحانه وتعالى برحمته ويبلغك كل آمالك فى الحياة ويحفظك لأسرتك وزوجك وطفليك .. كما سوف تنتصرين « بالسعادة » كما قلت لزوجك الحبيب على المرض اللعين ، وتصمدين له .. وتطول بك أيامك فترقبين طفليك الصغيرين وهما يدرجان فى مدارج العمر ، ويشتد عودهما ، ويخرجان إلى الحياة شابين صالحين رضعا الإيمان بالله من أبويهما .. وتشربا حب البشر والخير والحياة منهما .. أما بيت الله الحرام الذى ترجين أن يطول بك العمر لكى تزوريه ، فلسوف تطوفين به ، وترجعين إليه مرات ومرات خلال رحلة العمر السعيدة المديدة بإذن الله ، وأهلا بك ومرحبا مع زوجك الكريم مساء الاثنين المقبل إن شاء الله .

صـــوت
مــن الســمــاء



٣

النفــس المـــرورة!

أنا سيدة فى الثلاثين من عمرى . أقرأ بريد الجمعة منذ كنت فى سن الخامسة عشرة ، ودفعتنى رسالة «الضوء المبهر» للزوجة الشابة ـ التى امتحنت بالمرض اللعين فى ثديها وبرئت منه بعد إجراء الاستئصال والعلاج الكيماوى ، وكتبت إليك تعدد نعم الله عليها ـ لأن أروى لك قصتى ، فلقد نشأت فى أسرة صغيرة متفاهمة ، وكنت الابنة الصغرى وأتمتع بالجمال والجاذبية والطموح وحب الدعابة وتربطنى بشقيقتى التى تكبرنى علاقة حميمة .. وبأمى التى لا أستطيع مهما فعلت أن أوفيها حقها وبأبى علاقة مماثلة .. وكنت أنا وشقيقتى من المتفوقين دراسيا وتعلمنا فى المدارس الحكومية ، وكافحنا حتى حصلنا على الثانوية العامة بمجموع كبير والتحقت شقيقتى بكلية عملية مرموقة وتخرجت فيها وعملت معيدة بها ، والتحقت أنا بكلية قمة أخرى للغات وتخرجت فيها وعملت فى المجال الذى أحبه وهو الإرشاد السياحى واستقللت ماديا عن أبى الذى يكفيه ما تحمله من عناء وما بذله من عطاء لنا من أجل تعليمنا ، وبدأت أحاول تعويضه هو وأمى عن حرمانهما السابق من أجلنا وبدأت أشترى كل ما أتمناه لأبى وأمى ونفسى ، وأسعد بدعائهما لى واعتبره « سترى » فى الدنيا الذى احتمى به ضد غدر الأيام ، ثم تعرفت ذات يوم على شاب

جامعى يعمل معى فى نفس الشركة ، اجتذبنى إليه بدماثة خلقه وحلو كلامه وحيائه الظاهر فانشغل به فكرى ووجدتنى أفكر فيه ليل نهار بالرغم من عقلانيتى المعتادة وعدم ثقتى الكبيرة فى العاطفة ، واندفعت مشاعرى نحوه إلى أن صارحنى برغبته فى التقدم لخطبتى فسعدت بذلك كثيرا ورتبت له موعدا مع أبى .. فلم يسعد به أبى نفس سعادتى وكذلك أمى بسبب ضعف امكاناته وعدم استعداده المادى للزواج ، لكنى قاتلت بضراوة لإقناعهما إلى أن رضيا به على مضض وبدأنا نستعد للزواج وكان شرط أبى الأساسى للموافقة هو الشقة ولم يكن مع خطيبى سوى مبلغ محدود ، فساندته سرا بمبلغ ادخرته من أجرى الكبير كمرشدة وتمكن من شراء شقة مناسبة . وتولت أسرتى تأثيثها بالكامل ، وحرصت خلال فترة الخطبة على زيارة والدة خطيبى وشقيقاته ، ولاحظت خلال ذلك سطوة والدته عليه وهى التى تولت تربيته بعد وفاة أبيه ، وتوقفت قليلا أمام انصياعه الكامل لكل ما تقرره هى بشأن حياتنا وترتيبات زواجنا ، لكنى تجاوزت ذلك سريعا واعتبرته برا من الابن بالأم وأملت خيرا فيمن يعرف لأمه فضلها ويحفظه لها . ومضت فترة الخطبة بلحظات السعادة والعناء فيها .. وكانت لحظات العناء كلها بسبب تدخل الأم فى كل صغيرة وكبيرة من شئون زواجنا وتسليم الابن المطلق لها بكل ما تريد .

وتزوجنا فى النهاية وسعدنا بحياتنا ووجدت فى زوجى شابا طيبا حنونا متدينا ويحبنى بشدة ، ولم آخذ عليه سوى قلقه الزائد عن الحد بأمه وعدم إخفائه عنها أى شأن من شئون حياتنا الخاصة مهما كان شخصيا ومحرجا مما أدى إلى إحساسى بالحرج تجاهها فى بعض المواقف ، خاصة حين كانت تعنفنى على انشغالى بعملى المرهق عن زوجى فى بعض الأحيان .. أو تنبهنى إلى حقوق زوجى الشرعية

علىّ ، وبعد عام من زواجنا رزقنا بطفلنا الوحيد فأصبح قرة عينى وشاغلى الأعظم فى الحياة ، وأملت أن يقرب الطفل الوليد بينى وبين زوجى أكثر ، لكنه رجع للشكوى منى إلى والدته مرة أخرى بدعوى انشغالى عنه ، ورحت أنا أبذل جهدا مضاعفا للتوفيق بين عملى وطفلى وزوجى .

وبعد فترة قصيرة من بلوغ طفلى عامه الأول بدأت أشعر بآلام شديدة فى صدرى .. فتجاهلتها فى البداية بسبب كرهى للمستشفيات من أثر تجربة عائلية سابقة فى حياتى ، وأملت أن يزول الألم تلقائيا لكنه تزايد حتى لم أعد أستطيع تحمله وأصر أبى وأمى على فحصى طبيا ، وفى عيادة الطبيب كان القرار بإدخالى المستشفى على الفور لإجراء جراحة عاجلة لاستئصال الثدى ، ورجعت إلى زوجى وأبلغته بالقرار فبكى بحرقة ، وأفقت من المخدر بعد الجراحة فوجدت أحبائى حولى وهم أبى وأمى وزوجى وكل الأهل .. وبعد الجراحة بدأت مرحلة العلاج الكيماوى العصيبة التى أصابتنى بأضرار كبيرة كان أكثرها إيلاما لى أننى وجدت زوجى بعد فترة يبتعد عنى تدريجيا ويفتعل معى الخلافات والمشكلات فشعرت بأن وراء هذا التغيير من جانبه شيئا ما لا أعرفه وتوجست منه .. وأدى ذلك إلى تدهور حالتى النفسية حتى أصابنى اكتئاب شديد وأشفقت علىّ أمى مما أعانيه فأصرت على أن أرجع معها إلى بيت الأسرة لقضاء بعض الوقت من باب التغيير ورجعت معها ومعى طفلى .. ولاحظت بأسى أن اتصالات زوجى بى وأنا فى بيت أسرتى تتباعد وزياراته النادرة لى فيه قصيرة .. ودائما ما يكون وراءه ما يدفعه للاعتذار عن عدم البقاء معى لأن لديه واجبا آخر سوف يؤديه .. وتجددت الهواجس والشكوك فى نفسى من جديد لكنى تمسكت

بالأمل فى الخير والحب والروابط الإنسانية للنهاية ، إلى أن جاء يوم وزارنى زوجى فى بيت الأسرة وطلب أن ينفرد بى وحدى ثم صارحنى بأن أمه تريده أن يتزوج من إحدى قريباته بعد أن أصبحت أنا كما قالت له عاجزة عن خدمته وتلبية احتياجاته أو الإقامة معه كزوجة، ولهذا فهو إشفاقا علىّ من كل ذلك سوف يتزوج من أخرى لأنه لا يستطيع كما يقول إلا إطاعة والدته ، ومقابل ذلك فسوف يعطينى كل حقوقى ويترك لى طفلى إلى أن يبلغ سن الحضانة ! وسمعت ذلك فانفجرت ينابيع الدمع كالمطر من عينى ، وانصرف وأنا أبكى بلا توقف ولا انقطاع وازدادت حالتى النفسية سوءا حين سمعت فى الأيام التالية ما تدافع به والدته عن هذا القرار وكيف أننى لا أستطيع أن أقوم بواجباتى الزوجية وأنه ليس من العدل أن « يدفن » ابنها نفسه مع فتاة مريضة مثلى ، وهناك قريبته الجميلة الغنية التى تنتظره وترحب به من البداية .. الخ . وسلمت أمرى إلى الله ، وشكوت إليه ضعفى ومرضى وهوانى على زوجى ووالدته .. وازدادت حالتى النفسية سوءا حين سمعت أنه قد خطب بالفعل قريبته ، وبكيت طويلا وطلبت من أبى أن يقابله ويطلب منه أن يطلقنى ويدعنى لمصيرى مادامت عشرتى قد هانت عليه إلى هذا الحد ، ووافق زوجى على الطلاق بسهولة زادت من أحزانى وأعاد إلىّ أثاثى ومتعلقاتى وترك لى طفلى ، وتجهمت الحياة فى نظرى .. فلقد أصبحت شابة مريضة مطلقة وأما لطفل قدر عليه ألا ينشأ بين أبويه ، وعاجزة عن ممارسة العمل الذى أحببته بسبب العلاج القاسى الذى أخضع له واستسلمت للحزن والاكتئاب طويلا حتى حذر الطبيب أهلى من الأثر السلبى لحالتى النفسية على العلاج ونصح بإخراجى من هذا الجو الكئيب بأى طريقة ولو تطلب الأمر إبعادى عن المدينة كلها .

وسعت شقيقتى الحبيبة إلى إرسالى إلى دولة أوروبية تقيم فيها شقيقة زوجها التى يمكن أن تساعدنى على تلقى العلاج فى مركز متخصص هناك . وتم تدبير كل شىء وسافرت مع أمى وطفلى إلى هذا البلد .. وتلقتنا شقيقة زوج شقيقتى بالترحيب وتسهيل أمورنا ، وتعاطف معنا كل من قابلناه من المصريين هناك وتطوعوا لخدمتنا ، وبدأت أتردد على مستشفى كبير لتلقى العلاج الكيماوى وواظبت على الصلاة والاستسلام للراحة والدعاء إلى ربى أن يحمى طفلى من قسوة الأيام ، وبدأت صحتى تتحسن شيئا فشيئا .. وبدأ العلاج الذى لم يحقق نتائجه المرجوة فى مصر بسبب سوء الحالة النفسية ، يؤتى أثره وأنا فى هذا البلد البعيد ، خاصة بعد أن غالبت نفسى طويلاً حتى توقفت عن التفكير فى زوجى السابق وموقفه منى وموقف والدته . وبعد عام ونصف العام من العلاج أكد لنا الأطباء أن المرض قد تم القضاء عليه نهائيا والحمد لله وأن بامكانى العودة للحياة والعمل وممارسة حياتى كأى شابة فى مثل سنى . وشكرت الله سبحانه وتعالى كثيرا وقبلت طفلى الذى كان قد بلغ عمره ثلاث سنوات ونصف السنة ، ورجعنا إلى مصر مستبشرين ، ورجعت إلى عملى الذى انقطعت عنه رغما عن إرادتى أكثر من عامين ، واستقبلنى زملائى وزميلاتى بالفرحة الكبيرة وعبارات التهانى والترحيب وتوزيع الشربات والضحكات العالية حتى دمعت عيناى من التأثر والعرفان .. ورجعت للخروج مع الأفواج السياحية من جديد وخلال فترة قصيرة كنت قد جمعت بعض المدخرات من عائد عملى ، وخشيت إذا واصلت العمل فى شركتى أن تجمع المصادفات بينى وبين زوجى السابق ذات يوم فتتجدد الجراح ، واستأذنت رؤسائى فى الانتقال إلى شركة أخرى وتفهموا أسبابى وأكدوا لى أن باب العمل معهم مفتوح لى فى

أىّ وقت ، وانتقلت إلى شركة جديدة .. ودفعت مقدم شقة خاصة بى بالرغم من الحاح أبى وأمى علىّ فى البقاء معهما إلى ما لا نهاية .

وذات مساء كنت عائدة من عملى إلى البيت فوجدت شخصا ينتظرنى أمامه لم أتعرف عليه جيدا فى البداية بسبب الظلام .. ثم تبينت فيه زوجى السابق فحاولت تجاهله والمضى فى طريقى لكنه رجانى بإلحاح أن استمع إليه لعدة دقائق فقط ، وقال لى إنه تعيس إلى أقصى حد مع قريبته التى تزوجها بعدى لسوء معاملتها له ولوالدته وتعاليها على أسرته بسبب ارتفاع مستوى أهلها المادى ، وامتناعها عن زيارة والدته .. الخ ، وفى نهاية حديثه طلب منى العودة إليه لكى ينشأ ابننا بيننا وترك لى مهلة لأفكر فى الأمر طويلا وأرد عليه ، وانصرف وتابعته بنظرى وأنا أتعجب لهيئته التى تغيرت كثيرا، ورجعت لأهلى ورويت لهم ما حدث ففوجئت بترحيبهم بعودتى إليه من أجل الطفل ، لكنى رفضت ذلك رفضا قاطعا ونهائيا وقلت لأبى وأمى أننى سأربى ابنى وحدى معتمدة فى ذلك على ربى قبل كل شىء وبعده على جهدى وعملى وكفاحى فى الحياة .. وفى كل الأحوال فإننى لن أسمح لهذا « الرجل » بأن يعيش معى مرة أخرى أو يلمسنى أو يقترب منى ، ولم يضغط أبى وأمى علىّ فى ذلك كثيرا لكنهما طلبا منى فقط أن أفكر فى الأمر بهدوء وروية .

ولقد فكرت وفكرت ولم أجد فى نفسى دافعا يدفعنى لنسيان ما فعله بى زوجى ووالدته أو التجاوز عنه ، فهل تؤيدنى فى ذلك أم تعارضنى فيه ؟

وفى الختام فإننى أقول لكاتبة رسالة « الضوء المبهر » المؤمنة بربها والتى تقبلت أقدارها برضا إننى قد فعلت مثلما فعلت وتقبلت أقدارى راضية ومستسلمة لإرادة ربى ، لكن موقف زوجها النبيل الذى تمسك

بها وازداد حبا لها ووقف إلى جوارها حتى اجتازت محنتها كان هو الموقف الأصيل الذى ينبغى لشريك الحياة رجلا كان أو امرأة أن يتخذه من شريكه حين تمتحنه أقداره امتحانا مؤلما .. ولم يكن كذلك موقف زوجى السابق .. فماذا تقول لى يا سيدى وبماذا تنصحنى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من أجمل ما قرأت فى السنوات الأخيرة هذه الكلمات المعبرة التى سطرها الناقد الأدبى الكبير الدكتور شكرى عياد - رحمه الله - فى سيرته الذاتية . فلقد قال : ما وقع علىّ ظلم من أحد ذات يوم وتأملت حال من ظلمنى إلا ووجدته أحق بالشفقة منى ، فيدفعنى ذلك لأن أجاهد وأنا أسعى لدفع الظلم عنى لكيلا أبلغ فى مسعاى حد الانتقام منه كما تعلمت من ذلك الا أسكت على ظلم ينالنى وأن أشفق فى نفس الوقت على من يظلمنى «والحق أنه لا أحد يا سيدتى يستطيع أن يلومك أو يعتب عليك تحول نفسك عن زوجك السابق ورفضك العودة إليه أو الصفح لأول وهلة عما فعل بك خلال محنتك المؤلمة مع المرض . فمرارة الخذلان ممن يتوقع المرء منهم العطف والتأييد والمساندة عميقة ، والنفس البشرية لا تستطيع التجاوز عنها سريعا وبغير أن يكفر عنه مرتكبه طويلا « ويجاهد » لكى يمحو أثره من نفس ضحيته ، ولا عجب فى ذلك « وطعنة الأهل تدمى » كما يقول الشاعر ، كما أن توقيت هذه الطعنة كذلك مما يؤخذ فى الاعتبار عند الصفح عنها وتجاوزها.. فالإنسان فى ضعفه ومرضه يكون أشد احتياجا إلى وقوف من يحبهم إلى جواره منه وهو فى أوقات صفاء سماء حُماته من السحب والغيوم . وحين تمتحنه أقداره باختباراتها القاسية فإن حاجته النفسية والعضوية تزداد وتتضاعف لأن يشعره من يحب بأن محنته لم تنل من قدره لديه وحبه له وحقه عليه وإنما قد زادته تمسكا به وحنوا عليه واعتزازا بوجوده فى حياته .

وجوهر المرء الأصيل إنما يعرف فى أوقات الشدائد والمحن وليس فى أوقات الرخاء والصفاء ، والشاعر العربى يقول :

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوى من صديقى

ومن أسف أنه ليس بين الكائنات الحية كلها كائن « يبرع » أحيانا فى خذلان من يتوقعون منه المساندة والتاييد فى الأوقات العصيبة من حياتهم أكثر من الإنسان نفسه وعلى خلاف كثير من فصائل الحيوان والطيور التى لا تعرف مثل هذه القدرة على خذلان الشريك والتخلى عنه فى حين يحتاج للحماية والدفاع عنه ، فلا عجب إذن فى أن تستشعرى كل هذه المرارة تجاه زوجك الذى تخلى عنك ولم يصبر عليك وعلى نفسه إلى أن يكتب الله سبحانه وتعالى لك الشفاء .

لكن فهم كل شىء قد يؤدى إلى الصفح أحيانا عن كل شىء ، من ناحية أخرى كما قالت لنا ذات يوم الأديبة الفرنسية مدام دى ستايل

ولقد شعرت من خلال رسالتك أن محنتك المرضية القاسية لم تكن كل أسباب تخاذل زوجك السابق معك وتخليه عنك فى أصعب أوقات الحياة بالنسبة إليك ، وإنما ربما تكون قد أسهمت بالقدر الأكبر فى تشكيل موقفه المؤلم هذا منك . مع تاكيدى فى البداية أن هذه الحقيقة لا تخفف من بشاعة موقفه ولا تلتمس له اى عذر . فلقد كانت حياتكما المشتركة قبل المرض تعانى بعض المشكلات الجوهرية كشكوى زوجك السابق من انشغالك عنه بعملك المرهق الذى يقتضى منك السفر مع الأفواج السياحية للمناطق الأثرية فى رحلات دورية قد تستغرق أسبوعا وربما أكثر، وكشكواه لأمه مما اعتبره تقصيرا من جانبك فى الوفاء له باحتياجاته الشخصية ، وكمعاناتك فى التوفيق بين عملك وطفلك وزوجك ، فضلا عن تدخل والدته فى أدق شئون حياتكما الخاصة

وعدم حماسها لك كزوجة لابنها من الأصل كما توحى بذلك إشارتها إلى قريبتها الغنية التى ترحب بابنها منذ البداية أى من قبل زواجك منه ، وتشجيعها لابنها على التخلي عنك والارتباط بقريبته بمبرر عجزك بعد المرض عن خدمة زوجك وتلبية احتياجاته .

وكل هذه العوامل لم تكن فى صالح حياتكما الزوجية ودوافع صمودها فى وجه العقبات والمحن .

ولهذا فلست أعول كثيرا على النقطة التى ركزت عليها كثيرا فى حديثك عن شخصية زوجك واعتبرتها السبب الأساسى فى موقفه منك ، أقصد بذلك خضوعه المطلق لإرادة والدته واستجابته التامة لكل ما تقرره بشان حياته الخاصة وزعمه لك أنه لا يملك إلا طاعتها ولو تطلب ذلك منه طلاق زوجته وأم طفله الوليد وزواجه من أخرى !

فالحق أنه لو كان حبه لك قويا وصادقا وحقيقيا من البداية لما نجح أحد فى التاثير عليه لكى يطلقك ويتزوج من أخرى ، وأنه لو كان شديد التمسك بك فى محنتك - ولو من باب الوفاء الإنسانى لشريكة الحياة التى اعتصرتها محنة المرض أو حتى من باب التجمل والترفع عن القبول لنفسه بموقف من يخذل شريكته وهى فى أشد الحاجة إلى مساندته العاطفية لها - لما استجاب لرغبة والدته فى الانفصال عنك والارتباط بغيرك مهما كان تاثيرها عليه، بدليل سعيه الآن بعد أن شقى بحياته الجديدة مع قريبته إلى استعادتك ، ولو كان مغلوبا على أمره مع والدته كما يزعم لك لما فكر فى استعادتك والتخلى عمن اختارتها له أمه . فلقد طلقك بإرادته هو وليس بإرادة غيره حتى ولو كانت والدته قد زينت له ذلك وأغرته به ، ويرغب الآن فى استعادتك بإرادته هو أيضا وليس بإرادة والدته حتى ولو كانت امه قد لمست الفارق بين

معاملتك المتادبة لها ووقوفك صامتة بين يديها وانت تستمعين إلى تقريعها لك صاغرة وبين عجرفة الأخرى وتكبرها عليها وعلى ابنها وقطيعتها لها .

لكن الأمر على أية حال لا يجوز التعامل معه بهذه البساطة ، فلكل إنسان كرامته الإنسانية فى النهاية ، وللنفس حالات قد تعجز معها ولو لبعض الوقت عن أن تتخلص من مراراتها تجاه من أشعروها بالغدر والخيانة والهوان وكل ما أرجو منك هو أن تفكرى طويلا فى حياتك وفيما تختارين لها وفقا لكل الاعتبارات الجوهرية المهمة بالنسبة لك ولكرامتك الإنسانية وطفلك الصغير بغير أن تتجاوزى حق الدفاع عن النفس والكرامة ، وحق الاختيار الحر لحياتك إلى حد الانتقام والتشفى والرغبة فى إيلام الغير بنفس القدر الذى آلمونا به أو باكثر ، فاحق الناس فى النهاية بان يترفع عن الانتقام والتشفى فى شقاء الآخرين هو من عرف الألم وتجرع مرارته كما أنه أكثر الناس إدراكا لأنه لا شىء فى الحياة يعدل صفاء النفس وخلوها من المرارات ، واستكانة القلب إلى جوار من يبادله الحب ويشاركه رؤيته للحياة والبشر والأشياء .

وفى كل الأحوال فإنه بقدر الخطا يكون التكفير عنه .. ويكون « الوقت » الذى تحتاج إليه النفس المرورة لكى تتخلص من شوائبها وتستعد لاستقبال المؤثرات الجديدة بلا ضغائن ولا أحقاد .. وشكرا لك .


صوت
من السماء
٤
عودة الثقة!

■ انا زوجة وأم لشاب وفتاة ، تعرضت ابنتى وهى فى سن السادسة عشرة لحادث شروع فى الاغتصاب وشروع فى القتل بعد فشل الاغتصاب ، وشاءت إرادة الله أن تنجو من هذا الحادث الأليم وأن تتعافى وتواصل رحلتها فى الحياة حتى أتمت تعليمها الجامعى وتخرجت فى كليتها ، وخلال السنوات التى تلت هذا الحادث تعاملنا معها أنا ووالدها بكثير من العطف والحنان والتدليل لكى تسترد إحساسها بالأمان والثقة فى النفس الذى فقدته من أثر الحادث ، كما أعطينا لها مساحة أكبر من الحرية كتعويض لها عما عانته فى محنتها ، وكنا نلبى لها معظم رغباتها .. لكن الآثار السلبية لهذه المعاملة ظهرت تدريجيا فى تعاملها مع الغير بصلف وعنف وأنانية حتى مع أخيها الذى شاركنا تدليلها وإجابة طلباتها بحب حنان .

وفى العام الماضى تقدم لخطبتها بالأسلوب التقليدى شاب من أسرة طيبة كان يستعد للسفر إلى دولة عربية لإنهاء تعاقده هناك خلال عدة شهور والعودة للزواج . وبدا لنا أن ابنتنا سعيدة بهذه الخطبة من خلال الخطابات والاتصالات الهاتفية المتبادلة بينها وبين هذا الشاب لكن العلاقة بينهما بدأت فى التأزم بسبب تأخره فى العودة لظروف تتعلق بالعمل ، وبدأت ابنتى تتململ .. وتتعامل معه

بجفاء خلال الاتصالات التليفونية .. وواكب ذلك حصولها على وظيفة مناسبة وعودة الثقة الكاملة إليها واعتدادها بنفسها بعد طول كسل وتراخ ، فامتنعت عن الرد على مكالمات خطيبها نهائيا ورجع الشاب بعد شهرين فلم تعطه فرصة لالتقاط أنفاسه وتم فسخ الخطبة بالرغم من محاولاتنا معها لأن تمنحه وقتا كافيا لاصلاح الأحوال بينهما .

وانطوت صفحة هذه الخطبة من حياتها وحياتنا وبعد أسابيع من ذلك لاحظت انعزالها عنا كأسرة وارتباطها الشديد بمجموعة من زملاء وزميلات العمل ، وانشغالها بهم عن صديقاتها ، وبحاستى كأم تأكدت أن ابنتى لها علاقة عاطفية بأحد هؤلاء الزملاء ، وحاولت معها بكل الحيل أن أعرف شخصيته ولكن بلا جدوى ، إلى أن جاء يوم وحدثت مشادة حادة بينها وبين أخيها تطاولت خلالها عليه بالكلام فتطاول عليها بالضرب ، واتضحت الحقيقة الخافية فكانت مفاجأة غير سارة لنا وهى أن ابنتى على علاقة بزميل لها متزوج وله أبناء ويكبرها بعشر سنوات ، وواجهنا نحن الأمر الواقع واضطررنا لاستدعائه وعقد قرانه عليها ، وكانت مبرراته لذلك أنه تعيس فى حياته الزوجية لكنه يرغب فى استمرارها حفاظا على الأبناء من معاناة اليتم وهو على قيد الحياة ، وطلب منا إمهاله بعض الوقت قبل أن يعلن لزوجته الأولى ومجتمعه المحيط به زواجه الثانى من ابنتنا ، وقبلت ابنتى بذلك مرحبة وقبلنا به نحن مضطرين ، ولقد ساعدنا على تقبل هذا الوضع تأييد والدته وإخوته لزواجه الثانى بسبب ما يلمسونه من سوء عشرة زوجته له ، وحين أبديت لهم مخاوفى مما سوف يحدث من زوابع وعواصف من الزوجة الأولى حين تعلم الأمر خففوا من شدة هذه العواقب وأكدوا أنها سوف تتقبل الوضع فى النهاية بهدوء ، تم الزواج واضطررنا نحن لعدم إعلان شخصية

العريس وظروفه أمام الأهل والأقارب والأصدقاء .. أملا أن تكون فى هذه الزيجة سعادتها .. لكن الأيام أثبتت سريعا صدق توقعاتى ، وعجز زوج ابنتى عن إعداد مسكن للزوجية لابنتى ولو بأقل الامكانيات بسبب مسئولياته تجاه أسرته الأولى ، كما أنه أبدى خوفا شديدا من إعلان زواجه الثانى حتى فى محيط عائلته الأوسع من أعمام وأخوال وأصدقاء مقربين .. ثم انفجرت الأعاصير الشديدة حين علمت زوجته الأولى بزواجه .. وقامت بزيارتنا فى بيتنا ووقعت المواجهة المحرجة ، واضطررت لاستدعاء زوجها ووالدته لحل المشكلة.. فكانت معركة حامية بينها وبينهما بالألفاظ والأيدى ، وطالبته زوجته بالطلاق فرفض ، فخيرته بين طلاقه لابنتى وبين طلاقها ولم تقبل بأى بديل آخر .

واستمرت الأحداث والمواجهات اليومية بينه وبين زوجته الأولى شهورا كانت خلالها تحارب بشراسة لاسترداد زوجها الذى جمعتها معه عشرة ١٤ عاما ، وكانت ابنتى تحاول جاهدة الاحتفاظ بزوجها وكان زوجها يحاول يائسا الاحتفاظ بالزوجتين والعدل بينهما وهو فى حكم المستحيل ، أو اتخاذ القرار الصعب بالاختيار بينهما . وأرجو أن تصدقنى حين أقول إننى ووالد ابنتى كنا نتعاطف بشدة مع زوجته الأولى التى تجاهد لاسترجاع زوجها بالترغيب والترهيب وكل الوسائل ، وإننى كنت أضع ابنتى أمام ضميرها وأسألها : ماذا جنت من هذه الزيجة التى حرمتها من حناننا وتأييدنا لها وأصبح والدها بسببها لا يتكلم معها ولا ينظر إليها ففقدت حنانه ومداعباته وأحضانه التى كان يغمرها بها قبل هذا الوضع الذى لم نكن نرجوه لها ، واستمر الموقف المشتعل بلا حسم ، حتى اضطررنا نحن إلى حسمه ، فاتصل زوجى بزوج ابنتى وطالبه باتخاذ القرار النهائى

بشأن حياته . فاختار العودة لأسرته الأولى ومفارقته ابنتنا باعتبار ذلك أفضل الحلول وأقلها خسائر .. وهو الأمر الصحيح بالفعل لأننى أشفقت على ابنتى ـ لو كان قد فضلها على أم أولاده ـ من استمرار المواجهات والمشكلات والمسئوليات مما كان سيؤثر فى النهاية على علاقتها به مهما كان الحب مشتعلا ، لكنه حين واجه الزوج ابنتنا فى حضورنا بقراره بالعودة لزوجته وأم أولاده نظرا لفشله فى الجمع بينهما كما كان يأمل ، قابلت ابنتى هذا القرار بالهجوم علينا جميعا واتهمتنا بالتآمر والاتفاق عليها !

ومازالت منذ تلك اللحظة تنطوى على هذه المشاعر تجاهنا ، فترى هل أخطأنا بقبولنا زواجها هذا من البداية علما بأنه تحصيل حاصل لعلاقة كانت قائمة بالفعل ؟ وهل كان تدخلنا لحسم العلاقة الزوجية بين ابنتى وزوجها خطأ مع العلم بأن البديل لذلك ان ترك الأمور على ما هى عليه لكى نعيش ما تبقى لنا من عمر فى مشكلات يومية خاصة أن الزوج لم يتخذ أى خطوة فعلية لإقامة بيت الزوجية لابنتى ولم يكن فى تقديرى ـ يستطيع ذلك مع ما يتحمله من مسئولية بيته وأبنائه ووالدته وإخوته ، وأخيرا .. بماذا تنصحنا من أسلوب للتعامل معها مستقبلا بعد انتهاء هذه الزوبعة ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الحسم المتاخر كالعدل الذى يجىء بعد فوات الأوان لا يصلح غالبا ما أفسده التراخى والضعف والتردد . ولقد مارستم هذا الحسم مع ابنتكم متاخرا عن موعده بضع سنوات وليس بضعة أسابيع كما تتصورين يا سيدتى .. فلقد بدأ التفريط من جانبكم معها حين أسرفتم فى تدليلها والاستجابة لكل طلباتها وفى توسيع « هامش » الحرية التى أعطيتموها لها ، بدافع تعويضها عما لقيته فى محنة محاولة الاغتصاب ، كمحاولة لمساعدتها على

استعادة الثقة فى النفس والإحساس بالأمان ، فكانت النتيجة أن طغت الآثار السلبية لهذا « العلاج » على نتائجه الإيجابية المرجوة منه واكتسبت شخصيتها سمات جديدة من الأنانية والعنف والصلف ، وكان أكثر هذه السمات خطرا على شخصيتها هو اعتيادها الاستجابة لكل ما تريد واستسهالها للاستسلام لأهواء النفس ورغباتها بغض النظر عن مشروعية هذه الرغبات او تعارضها مع حقوق الآخرين .. وهكذا فلم يكن المرفوض بالنسبة إليها أن ترتبط بعلاقة عاطفية مع زميل لها متزوج وله ابناء ولا أن تتطلع للزواج منه ، بغض النظر عما سوف يترتب على ذلك من معاناة زوجة اخرى وأطفال ابرياء ، كما كان منطقيا بالنسبة لها الا تتوقع اى ردود افعال عنيفة من جانبكم بشان هذه العلاقة بعد أن اعتادت التدليل منكم والاستجابة لكل رغباتها، وصدقت توقعاتها فى هذا الشان ولم يزد رد فعلكم حين انفجرت الأزمة عن أن « اضطررتم » لاستدعاء زميلها فى العمل وعقد قرانه ، عليها .. بدلا من بذل الجهد والعرق معها لإعادتها إلى رشدها ومحاولة إقناعها بما فيه خيرها وصلاح أمرها وحثها على مغالبة هوى نفسها وقطع هذه العلاقة فى بدايتها قبل أن تتمكن منها وتتحول إلى هوى جامح تصعب السيطرة عليه أو الرجوع عنه فكان أن قبلتم بهذا الزواج الذى لا يحقق آمال اى اب او أم لابنتهما ، قبول المضطر المغلوب على أمره ، واشفقتم على الزوجة الثانية حين راحت تقاتل بشراسة لاستعادة زوجها وترفض اى بديل سوى الاختيار بينها وبين «هوى القلب» الذى تورط معه زوجها فى علاقة تطورت إلى زواج.. واستمرت المصادمات والمواجهات على مدى شهور عجز الزوج خلالها عن تسيير السفينة التى حلم بان يقودها وسط الأعاصير

حـتى تهدأ العـواصف ويستسلم المتضررون للأمر الواقع في النهاية .

فاين كان حسمكم يا سيدتي في كل هذه الأحداث ولماذا تاخر حتى ثبت لكم بالدليل أنه عاجز عن توفير بيت الزوجية المناسب لابنتكم ، وعن تدبير أموره والاستمرار في حياته المزدوجة مع الزوجتين ؟

إن تدخلكم لحسم هذه العلاقة لم يكن هو « الخطأ » الذى تتلمسون إقناع ابنتكم «باضطراركم» إليه بعد أن بدا لكم أن الزوج عاجز عن الاختيار وعن توفير مسكن الزوجية وإنما كان الخطأ الأساسي هو تدليلكم لابنتكم حتى أفسد الضعف معها شخصيتها وكان الخطأ الثاني هو «حسمكم» للعلاقة بينها وبين زميلها في العمل باستدعائه لعقد قرانه عليها وانتم تعرفون انه زوج لأخرى وأب لأبناء ، وفي قبولكم بما يشبه الزواج السري لابنتكم الذى تضطرون لتكتم شخصية العريس فيه عن الأهل والأصدقاء ، ويتكتمه هو عن عائلته وأصدقائه وكل هذا العناء لأنها ترغب في زميلها وترفض مغالبة نفسها وردها عن أهوائها.. أما تدخلكم لحسم العلاقة الزوجية في النهاية فهو التصرف الوحيد السليم من جانبكم في هذه القصة كلها .. لأن ترك الأمور تجرى في أعنتها لم يكن يعنى سوى إطالة معاناة كل أطرافها لبعض الوقت .. وربما ازداد الموقف تعقيدا بحمل ابنتكم لثمرة هذه العلاقة المضطربة ومجيء طفل يجعل صفحة القصة مفتوحة لنهاية العمر .

فـإذا كـانت ابنتكم قـد هاجـمـتكم حـين أعلنهـا فـتى القلب باختياره لزوجته الأولى وأطفاله الصغار وحياته العائلية على حسابها واتهمتكم « بالتامر » عليها .. فقد أحسنت التقدير لأول مرة في حياتها ، لأنكم قد تامرتم بالفعل على إنقاذها من شر

نفسـها وقصر نظرها واستـسلامـها لأهواء القلب التى تعـمى بصرها مما سوف يترتب عليها من « شجن » يستمر إلى نهاية العمر .

وإذا كانت تشعر بخيبة الأمل لاختيار فتاها لزوجته واطفاله على حسابها .. فإنه لا ينبغى لها أن تحملكم أنتم نتائج رعونتها وسوء تصرفها فى حياتها واستسلامها لضعفها العاطفى مع رجل متزوج وأب لأطفال بلا محاذير ولا تحسب لتبعات ذلك .

فلا تابهى يا سيدتى بما تقوله أو تفعله إذا انطوى صدرها لكم على بعض الغضب المؤقت فالطفل يغضب من امه حين تكرهه على تجرع الدواء المر لتداويه به ، ويحمد لها رعايتها له حين يشب عن الطوق ويدرك حقائق الحياة ، وهذا ما سوف تفعله ابنتك بعد حين عندما تفيق من ذهول الحب الذى أعماها عن السدود والحدود فطمحت لنفسها فيما لاحق لها فيه .. وعندها سوف يتجه غضبها إلى نفسها واندفاعها وراء عواطفها بلا روية وليس إليكم أنتم .. فإذا كنت تسالينني بعد ذلك كيف تتعاملون معها بعد هذه القصة ، فإن نصيحتى لكم هى أن تتعاملوا معها كما تتعاملون مع ابنكم الشاب بالحنو العاقل الذى لا يهبط إلى هاوية الضعف .. والعدل الذى لا يتصلب إلى حد الشدة .. والسلام .


صــوت
مــن الســمـاء
٥
بدايــة القـصـة!

قبل أن أبدأ خطابى إليك أريد أن أنوه بما كان وما زال لبريد الجمعة من أثر فى حياتى الشخصية خلال سنين طويلة ، حيث انتظرت ثلاث سنوات بأكملها لكى أعرف نهاية قصتى ثم أكتب لك عنها .

وفى البداية فإننى فتاة فى السادسة والعشرين من عمرى ، ولقد شاءت لى الأقدار أن أقرأ فى بابك منذ ست سنوات قصة بعنوان «الخط الأحمر » لفتاة روت لك أنها قد تخلت عن حبيب عمرها الذى ارتبطت به سنوات عديدة لضعف امكاناته المادية .. واستجابت لإغراء المادة والعريس الجاهز الذى تَعِدُها الحياة معه بالرفاهية والراحة بلا معاناة ولا صبر على سنوات البداية ، وكيف انكسر قلب فتاها الذى أحبها بصدق وحلم بالارتباط بها ولم يسىء إليها فى شىء ، ولم يرتكب جرما سوى أنه شاب فى بداية حياته كغيره من الشباب ويحتاج إلى عدة سنوات من الكفاح لكى يبنى حياته ويتزوجها ، فكان أن هجرته لتتزوج بمن لا تعرفه ولم تجتذبها إليه سوى مظاهر ثرائه ، بعد أن استمعت إلى « صوت العقل » وسخرت من حكاية الكفاح لبناء عش الحب الذى كان يطالبها به فتاها وهو يتوسل إليها باكيا ومتذللا لكيلا تتركه ، فتفرقت بهما الطرق فإذا به خلال سنوات قليلة يحقق نجاحه العملى فى الحياة وتنفتح له أبواب الرزق الحلال ، ويصبح «جاهزا» لأن يتزوج أى فتاة كفتاته الغادرة مهما تكن الأعباء .. أما

هى فقد فشلت فى حياتها الزوجية ولقيت من الشقاء وسوء المعاملة من زوجها مادفعها دفعا لطلب الانفصال يائسة من أى أمل فى الإصلاح ، وطلقت منه بعد سنوات قليلة ، ورجعت إلى بيت أبيها وفى يديها طفل حائر ، واشتبكت مع زوجها السابق فى منازعات قضائية لا نهاية لها ، وبغير أن تحصل على شىء من حقوقها المادية .. أو تنعم بالحياة الناعمة التى هجرت فتاها من أجلها ، ثم كتبت إليك تناشدك أن تكتب إلى حبيب العمر ، الذى لم يكن قد تزوج بعد عند نشر الرسالة ، متسائلا هل يمكن أن يغفر لها خيانة الحب من أجل المال ويعيد اجتماع شملهما مرة أخرى ، بعد أن تلقت أقسى الدروس وشعرت بأكبر الندم على تخليها عنه ؟ .. ولأمر ما لم يكن واضحا فى ذهنى وقتها ، وجدت نفسى أقتطع الصفحة التى تضم منه القصة واحتفظ بها فى دفترى ، ثم أعيد من حين لآخر قراءة ردك على هذه السيدة وكلماتك لها عن الأشياء التى لا تعوض والأشياء التى يمكن تعويضها أو الصبر على نقصها فى حياة الإنسان ، ولا أبالغ إذا قلت لك إننى قرأت هذه الكلمات عشرات المرات ، وكأنى كنت أشعر فى داخلى بأنها سيكون لها أثر ما ذات يوم فى حياتى ، ومنذ ثلاث سنوات التحقت بالدراسات العليا بالكلية النظرية التى تخرجت فيها ، وكنت أحيا حياة سهلة مريحة ولا أعانى أى مشكلات مادية أو إنسانية ، فأبى يعمل بالخارج منذ اثنى عشر عاما ، وأنا أذهب إلى الكلية بالسيارة الخاصة ، ولى صحبة من الصديقات من نفس مستواى المادى والاجتماعى ، نمضى معا أسعد الأوقات ، ومع بداية العام الدراسى لاحظت أن معنا شابا خفيف الظل ومحترما ووقورا ومتفوقا فى دراسته وأساتذتنا يعرفونه ويحبونه لتفوقه ولشخصيته المحترمة بين الزملاء ، وعرفت أنه معيد بأحد أقسام الكلية ويدرس معنا للحصول على الماجستير ، ويوما بعد يوم اكتشفنا أن هناك صفات كثيرة مشتركة تجمع بيننا ، وبدأ كل منا يقترب من الآخر

وينجذب إليه ، لكن تحفظا ما - لا أدرى كنهه - جعله يحجم عن مصارحتى بمشاعره التى لاتخطئها عينى كلما التقينا فى الجامعة ، وذات يوم وجدتنى أسأله بصراحة هل هو مرتبط بفتاة أخرى ؟ فأجابنى بالنفى فوجدت نفسى أوجه إليه سؤالا أذهله سماعه منى وعقد لسانه فلم يستطع الرد على الفور ، إذ سألته فجأة : لماذا لم تصارحنى بحبك حتى الآن ؟ فنظر إلىّ الشاب مذهولا للحظات ثم تمالك نفسه وأجابنى بأنه لم يسمح لنفسه بأن يعشمنى بشىء لا يستطيع الوفاء به ، فهو كما قال لى - فى شىء من الانكسار - لا يملك من حطام الدنيا سوى مرتبه الحكومى من الجامعة ، إلى جانب عائد بسيط من عمل مسائى يقوم به ، وليست لديه شقة للزواج ولا يملك أى كماليات ولا يقدر على أعباء الزواج ، ووالده رجل بسيط لا يملك ما يساعده به وأخوته وإخواته كلهم كذلك وإن كانوا جميعا جامعيين ولهم مراكزهم الاجتماعية المرموقة .. فكيف يسمح لنفسه أن يصارحنى بمشاعره وهو غير كفء لى من الناحية المادية .. ولا يستطيع أن يتوج مشاعره هذه بالزواج !

وتفكرت فى كلامه كثيرا ووجدته محقا فيه .. وانقطعت عن الذهاب إلى الجامعة لعدة أيام استغرقت خلالها فى التفكير ، وتساءلت مرارا كيف سيقبل أهلى حقا بشاب لا يملك أربعة جدران يمكن أن أعيش فيها .. واتخذت قرارى بعد تفكير عميق بأن نظل زميلين يتبادلان الاحترام كما كنا ، وألا تتجاوز صلتى به هذه الحدود .. ورجعت للجامعة بهذه النية ، غير أن قرارى سرعان ماذاب فى حرارة لقائه بى ولهفته لرؤيتى وتساؤلاته عن سبب انقطاعى عن دراستى .. ووجدته قد أعد لى كل ما فاتنى من محاضرات ، فلم أتمالك مشاعرى .. وجدتنى أصارحه بحبى له وهو يصارحنى بحبه العميق لى .. وجلسنا معا بعض الوقت خارج قاعة المحاضرات ، وأنا أشعر أننا نعيش لحظة حاسمة من أجمل لحظات العمر ، ورجعت إلى البيت

وأخرجت الصفحة القديمة من بريد الجمعة .. وأعود لقراءتها وأتوقف أمام كلمات الندم التى سطرتها كاتبة الرسالة على فقدها لحب العمر، وأعيد قراءة كلماتك عن الأشياء التى تستحق أن نصبر ونبذل العرق والدموع من أجلها ، إلى أن يحين قطافها ، لأنها إذا ضاعت منا فلا شيء يعوضنا عنها .. وحسمت أمرى على الصبر والانتظار وتحمل ضريبة السعادة التى أرجوها لنفسى ، وكانت العقبة الرئيسية أمامنا هى ضرورة الانتظار لمدة ثلاث سنوات لحين الانتهاء من الدراسات العليا ، ثم نبدأ خطواتنا معا على طريق المستقبل .

ولن أحكى لك عن حجم المعاناة التى عانيناها طوال هذه السنوات الثلاث مع أهلى وأهله ومع دراستنا ، فلقد عارض الأهل على الجانبين فى الانتظار لمدة ثلاث سنوات ، ثم وافق الجميع فى النهاية حين لمسوا تمسك كل منا بالآخر ، واتفقت مع أهلى على أننى سوف أبني بيتى مع من أحب جدارا جدارا وأننى سعيدة بذلك ، فسلم لنا الأهل بما أردنا .. ومنحونا بعد المعارضة التأييد ، ومضت السنوات الثلاث ونحن نتشارك فى أعباء الدراسة ونتبادل التشجيع وتهوين الطريق علينا ، إلى أن انتهينا بعد عناء شديد من دراستنا ، وحصل كل منا على درجته العلمية وبدأنا سعينا للعمل ، وطلبت بعض الدول العربية تخصصاتنا وذهبنا إلى السفارات لنجرى المقابلات الشخصية وقلوبنا واجفة تتضرع إلى الله أن يحقق آمالنا فلم يردنا الله خائبين .. وجاءنا سبحانه وتعالى بالبشرى .. فأسرعنا نعقد قراننا ونحتفل باجتماع شملنا فى أضيق الحدود ، وأنهينا استعداداتنا سريعا للسفر .. وسافرنا ، وها أنا أكتب لك الآن بعد أن أصبح لى عش صغير فى هذا البلد الجميل الذى سافرت إليه مع زوجى ، لكى أقول لقرائك : إن الله مع الصابرين إذا صبروا .. وأقول لكل شاب : إن الله سبحانه وتعالى قد أوجد له الرزق ، لكنه لابد أن يسعى إليه بالكفاح والصبر وتحمل مشاق الطريق بلا كلل ولا يأس ..

ولكل فتاة : إن عليها أن تحسن اختيار شريك حياتها وألا تختاره على أساس امكاناته المادية فقط ، لأن الله هو الرزاق .. ولسوف يرزقها سبحانه وتعالى بقدر صبرها وكفاحها وتمسكها بدينها ومبادئها ، ولكنى أقول أيضا لكل أم وأب أن يحثوا بناتهم على الكفاح مع أزواجهن ليشعرن بقيمة الحياة لأن ما يأتى بالعرق والكفاح لا تذروه الرياح ، وأخيرا يا سيدى فإننى أعيش الآن أجمل أيام حياتى فى ظل إنسان عطوف وحنون وصادق الحب ، وكل ذلك بفضل توجيهات «بريد الجمعة » ونظراته فى الحياة ، وبفضل تلك الصفحة القديمة منه، التى مازلت أحتفظ بها حتى الآن واعتبرها دليلى للسعادة والأمان فى الحياة بإذن الله .. ولقد اعتزمت أن أكتب منذ بداية قصتى معه وأستنصحك ، ثم رأيت أن أنتظر كما قلت لكى أعرف نهاية قصتى مع شريكى .. ثم أرويها لك .. فشكرا على صبرك على قراءتها مع تمنياتى الصادقة لكل قرائك بالسعادة والوئام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إنها ليست « نهاية القصة » كما تتصورين يا سيدتى ، وإنما هى بدايتها الحقيقية لأنها بداية سنين مديدة وعديدة بإذن الله من السعادة والحب الصافى والعطف المتبادل والسعى النبيل المشترك إلى تحقيق أهداف الحياة ، أما ما سبق هذه « البداية » فقد كان إرهاصاتها التى رشحتكما لهذه البداية السعيدة ، بكل ما تحملتما خلالها من عناء وصبر وثبات على اختيار كل منكما للآخر ، والحب كالذهب يختبر ، بنار الصبر والإصرار والكفاح ، فيصفو من شوائبه ، ويتوهج .

ولقد أسعدنى فى رسالتك الجميلة هذه انك قد استلهمت الحكمة الحقيقية فى التمييز بين ما يستحق أن يسعى إليه الإنسان ويتحمل العناء من أجله ، وما لا يستحق أن يبذل قطرات الدم والدموع سعيا وراء سرابه أو اعتقادا بانه الطريق الوحيد

إلى السعادة والزواج ، كما يقول لنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى يرحمه الله - ليس عشقا لمفاتن الأنثى أو وسامة الرجل وإنما هو إقامة بيت على السكينة والآداب العائلية والاجتماعية فى إطار من الإيمان بالله والعيش وفقا لتعاليمه .

فإذا كان الأمر كذلك ، ونحن نعرف ما لنداء الغريزة من أثر وقوة ، فهو بكل تأكيد ليس أيضا شركة تجارية يكون معيار التفاضل الوحيد بينها وبين غيرها من «الشركات» هو مركزها المالى وقيمة أصولها وحجم أرصدتها .

وأنت حين اخترت الحب والصبر والكفاح ، واعتمدت فى اختيارك على المعايير الأخلاقية والإنسانية والعاطفية بغض النظر عن « الموقف المالى » لشريك الحياة المنتظر ، إنما كنت تتبعين تعاليم دينك ، وتستهدين بهديه فى الاختيار والترجيح ، ويكفيك شرفا وحكمة أنك قد اخترت شريكك فى الحياة بنفس المعيار الذى اختارت به السيدة خديجة رضى الله عنها سيد البشر أجمعين صلوات الله وسلامه عليه ، وهو شرف الأخلاق والسجايا والعاطفة النبيلة ، وليس شرف المال الذى لا ينكر أحد قيمته ، لكنه لا يصح أن يكون معيار التفاضل الوحيد بين البشر ، ولا أن يعلو على كل القيم الدينية والأخلاقية والعاطفية عند الاختيار . ولقد خطب أبو طالب عم النبى السيدة خديجة من ورقة بن نوفل أو من عمها عمرو فى رواية أخرى ، فلم يعدد أملاكه أو ضياعه وإنما قال : إن محمدا لا يوزن به فتى من قريش إلا رجحه شرفا ونبلا وفضلا ، إن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ! .. والإمام ابن حزم يروى لنا فى كتابه الجميل « طوق الحمامة » أن أحد الولاة قد جلس إلى أصحابه يتسامرون ذات ليلة فسألهم : من أسعد الناس ؟ فبادره أحدهم قائلا : أنت أيها الوالى ! .. فأجابه : وأين ما أكابده من قيادة

الجيوش وتنفيذ أوامر الخليفة ؟ فقال آخر : إذن هو الخليفة ! فأجابه : وأين ما يقاسيه من الثوار الذين يخرجون على طاعته ؟ فسأله أصحابه : فمن إذن ؟ .. فقال : أسعد الناس زوجان فى كوخ رزقهما قليل ، لكنه لا ينقطع يحب أحدهما الآخر ، قد رضيت به زوجته .. ورضى هو بها ولا يعرف الوالى ولا يعرفه الوالى !

ولا عجب فى ذلك يا سيدتى ، لأن السعادة الحقيقية هى الهدف الجوهرى الذى يسعى إليه الإنسان ويشتريه لو استطاع بأفدح الأثمان ، ولأن المال والإمكانات المادية لم يسعدا وحدهما أحدا من قبل إذا افتقد فى حياته السلام العائلى والحب الصادق والفهم والعطف والحرص المتبادل بين الطرفين على تيسير الحياة على كل منهما وإشعاره بالأمان والثقة بالنفس والغد . ولقد قرأت ذات يوم كلمة حكيمة للأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار تقول فيها : سعيد من يستطيع أن ينظر إلى « حقيقة » حياته فيرضى عنها ، وينظر فى وجه شريكه فى الحياة فيرى فيه هذه « الحقيقة » ويسعد بما رآه .. فكم إنسانا فى الحياة يستطيع أن ينظر إلى « حقيقة » حياته ويرضى عنها وينظر إلى وجه شريكه فى الرحلة فيرى فيه هذه « الحقيقة » ويسعد بها ؟ .. وكم من سهام طاشت ولم تصب أهدافها لا لسوء التسديد وإنما لسوء اختيار الأهداف الجوهرية التى ينبغى أن يتوجه إليها المرء بسعيه وجهده وكفاحه من البداية .. لقد أحسنت اختيار الهدف يا سيدتى .. ودفعت ثمن حسن الاختيار من سنين الصبر والكفاح.. فكان عدلا من السماء أن تؤيد حسن اختيارك بالنجاح والتوفيق والسعادة .. فهنيئا لك كل ما تستحقين من سعادة وأمان .. وبشرى لمن ينتظر بإذن رب العالمين .

صوت

من السماء



٦

شاطئ الحكمة!



أنا سيدة تزوجت قبل ثلاثين عاما وكان زوجي رجلا طيب القلب ثم رحل عني فجأة منذ عشر سنوات ، فأحسست عند رحيله بمسئوليتي الكاملة عن ابننا الوحيد خاصة أن أباه قد توفي في وقت كان فيه ابني شابا يحتاج إلى أب يكون صديقا له ، ولقد كان زوجي صديقا لابنه ، أما أنا فقد كنت كالعهد بي دائما إنسانة صلبة لا تحركني المشاعر والعواطف كثيرا ، وقد ازدادت صلابتي بعد وفاة زوجي ، وأصبحت بالنسبة لابني الأب الحازم .. وانحصر دوري معه كأم في الأعمال المنزلية في حين ركزت كل اهتمامي على تحقيق الأهداف المادية ، ورفضت الارتباط بأحد بعد زوجي لكي أحقق له مستقبلا أفضل وتعاملت معه بطريقة عملية بحتة .. فلم يجد لدى الأم التي تجلس إلى ابنها لتسمع منه عما يدور في داخله ولم يكن حديثنا في معظم الأحيان يتجاوز الردود المختصرة على الأسئلة المتبادلة بيننا ، فإذا حاول مراجعتي في أي قرار اتخذته لم يجد مني سوى الرفض القاطع والعناد والشجار .

ثم جاءني ابني ذات يوم وأبلغني برغبته في الارتباط بزميلة له في العمل ، وسعدت بالخبر .. وتمت الخطبة وأنا في سعادة غامرة ، لكن بعد فترة قصيرة منها لمست انجذاب ابني الشديد لخطيبته ، وقضاءه معظم أوقاته معها فبدأت أشعر بأنه يضيع مني ، وأحسست بالغيرة

الشديدة من فتاته ، فبدأت اتباعد عنها وعن أهلها ، وتعاملت معها بفتور شديد ، وتجاهلت كل الواجبات الاجتماعية تجاه أسرتها ، وكان أهلها ممن يهتمون كثيرا بالعلاقات الأسرية ، فاستاءوا لموقفى منهم ومن ابنتهم وتخوفوا على مستقبلها معى ، فشجعوها على فسخ الخطبة . وتم ذلك بالفعل وكانت سعادتى كبيرة بفشل هذا الارتباط ، وشعرت بأننى أستعيد ابنى مرة ثانية ،وحاولت مساعدته على نسيان هذه الفتاة ببعض العطاء المادى الإضافى له ، ومضت شهور ثم جاءنى طالبا موافقتى على عودته إلى خطيبته السابقة لأنه يحبها بشدة ولا يستطيع أن يحيا بدونها كما أنها تبادله الحب وترغب فى استئناف علاقتهما من جديد ، وجن جنونى حين سمعت ذلك .. وزأرت فى وجهه طالبة منه ألا يفاتحنى فى هذ الموضوع مرة أخرى ، وصددت كل محاولة من جانبه للمناقشة فيه .. ولم أعطه أية فرصة لأن يتحدث عنه ولأنى كنت أعرف عن يقين أنه لن يجرؤ على الارتباط بفتاته بغير موافقتى ، فلقد كان ردى الوحيد عليه كلما حاول استعطافى هو أن أجيبه بحسم ، بأن له أن يفعل ما يريد بحياته لكنى لن أكون راضية عنه إن هو ارتبط بهذه الفتاة ، فيصمت حائرا وعاجزا ولم أكتف بذلك وإنما سددت عليه أيضا كل الأبواب الخلفية لمحاولة التأثير على قرارى ، فأقنعت جده وجدته اللذين يحبانه حبا جما ، بأن هذا الارتباط ليس فى صالحه ، فلم يجد لديهما المساندة التى كان ينتظرها منهما ، وضاقت السبل أمامه فحاول أن يوسط بينى وبينه بعض رجال الدين فكان ردى عليه هو رفضى القاطع لمقابلتهم .. وكررت عليه فى كل مرة حاول مفاتحتى فى هذا الأمر أن الإنسان الذى يحاول العودة إلى فتاة تركته من قبل إنسان بلا كرامة.. وإنه إذا فعل ذلك فإنه لا يمتهن كرامته وحده وإنما كرامة أمه أيضا وكان ابنى يعلم عنى جيدا أننى عنيدة ، ولا أتراجع عن قرار اتخذته تحت أى ضغط من الضغوط .. فبدأ يستسلم لإرادتى بعد عدة

محاولات فاشلة معى ، وترك فتاته ، ورأيت أنا أن أطرق الحديد وهو ساخن خشية أن يضعف ويحاول العودة إليها من جديد فشجعته على خطبة فتاة أخرى رأيتها مناسبة له ، وألححت عليه فى ذلك كثيرا وأغريته بأنى سوف أساعده ماديا إلى أقصى حد على إتمام هذا الزواج ، واستجاب فى النهاية لإلحاحى وتمت الخطبة ، ولاحظت فى رضا إنه ليس مندفعا ناحيتها كما كان الحال مع فتاته السابقة كما أرضانى أيضا أنه يستشيرنى فى كل خطوة يخطوها معها .. ويبدو لى وكأنه غير متعجل للزواج .. فى حين أشجعه أنا على إتمامه وخلال ذلك حرصت على أن تكون علاقتى بخطيبته وبأهلها طيبة ، وقمت بكل الواجبات الاجتماعية تجاههم وتم الزواج ، وانتقل ابنى إلى مسكن الزوجية ، وشعرت ببعض الفراغ بعد انفصاله عنى ، لكنى تقبلت الأمر بصورة طبيعية ، فلم تمض بضعة أشهر حتى بدأت الخلافات تنشب بينه وبين زوجته ، وفى كل مرة يختلفان فيها تهجر بيت الزوجية وترجع إلى بيت أهلها وأتدخل بينهما فترجع لفترة ثم يختلفان من جديد وتعود إلى أهلها وهكذا حتى أصبحت حياة ابنى الزوجية ومشاكله هى شغلى الشاغل ، وأصبحت شكواه منها ومن تعاسته معها محور حديثى الدائم معه .. وأنجب ابنى طفلتين ولم تستقر الحياة به مع زوجته بعد ، ثم لاحظت أن زوجته التى كانت حريصة على مجاملتى وزيارتى فى فترة الخطبة قد بدأت تتباعد عنى .. وتتجنب زيارتى ، والاتصال بى تليفونيا فإذا عاتبتها فى ذلك أجابتنى بفتور بأن الطفلتين تستغرقان كل وقتها .. وكلما جاء ابنى ليزورنى وحيدا رأيت الهم والغم يكسوان وجهه .. ويجلس صامتا كأنه يقول لى بغير كلام : هل رضيت الآن ؟

إننى أشعر بالحزن على مصير ابنى .. وأعرف أنه غير سعيد فى حياته مع زوجته ولا يفكر فى هجرها أو الانفصال عنها من أجل طفلتيه وأنا لا أريده كذلك أن ينفصل عنها بعد أن أنجب منها طفلتين

بريئتين مع أنها تعاملنى أسوأ معاملة ولا تتيح لى رؤية حفيدتىّ إلا فى الأعياد والمناسبات فى حين تتجه بكل اهتمامها ومجاملاتها لأهلها وتزورهم كثيرا مصطحبة معها طفلتيها ، وأريد منك أن توجه كلمة إلى ابنى تحثه فيها على الرضا بنصيبه فى الحياة ، والصبر على ما يشكو منه ، كما أريد أن أنصح كل أم مثلى بألا تقف فى وجه سعادة ابنها ، كما فعلت للأسف مع ابنى ، وألا تربط بين كرامتها ورفض من يختارها قلب الابن مادامت فتاة من وسط عائلى واجتماعى مناسب له ولا عيوب بارزة فيها . كما أريد أن أطالب كل أم أيضا بأن تتنازل عن كبريائها من أجل سعادة أبنائها .. لأننى نادمة على عنادى وتمسكى الأجوف بكبريائى وأتمنى لو كنت قد تنازلت عن هذه الكبرياء اللعينة وتركت لابنى حرية اختيار شريكة حياته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

فى أعماق الجحيم نتعلم الحكمة بعد فوات الأوان ، وانت يا سيدتى قد تعلمت درس التجربة فى الوقت الضائع وبعد أن فات أوان تصحيح الأخطاء بغير أن يدفع ثمن هذا التصحيح طفلتان بريئتان لا ذنب لهما فى « صلابة » جدتهما ولا فى قهرها لإرادة أبيهما . والسؤال الذى يحيرنى دائما فى مثل هذه الأحوال هو : ولماذا لا نتحلى غالبا بمثل هذه الحكمة الغالية حين يكون فى مقدورنا أن نيسر على الأعزاء حياتهم ، ونسعد بسعادتهم ، ونتقبل حقائق الحياة بفهم سليم لها ؟

إن النصيحة التى توجهينها إلى كل أم فى ختام رسالتك نصيحة سديدة بالفعل ، لكنها على الناحية الأخرى من بديهيات الحياة التى تدركها الفطرة السليمة بغير حاجة إلى دفع مثل هذا الثمن الباهظ من تعاسة الأبناء لبلوغ شاطىء الحكمة و«اكتشافها» .. ونصح الآخرين بها .

ولقد تحدثت طويلا يا سيدتى عن صلابتك وعنادك وكبريائك

وحسمك ، وعدم تراجعك عن اى قرار تتخذينه ولو تزلزلت الأرض من اركانها الأربعة ، وكانما تتحدثين عن فضائل تعتزين بها ، وهى كلها فى الحقيقة من آفات الشخصية المتسلطة صعبة المراس ، بما فى ذلك ما قد يبدو للآخرين من المزايا كالصلابة ، ذلك أن الصلابة التى تعد حقا من الفضائل هى قوة الاحتمال والقدرة على مواجهة صعاب الحياة بلا وهن ولا ياس من إمكان اجتيازها ، أما ما تتحدثين عنه فهو غالبا صلابة الرأى .. والجهامة .. وجمود المشاعر والعواطف ، واعتبار مسئوليتك عن ابنك بعد رحيل أبيه هى الواجبات المنزلية وتحقيق الأهداف المادية ، دون الالتفات لحاجة هذا الابن المعنوية إليك كام رءوم حنون تسمع له ، وتتجاوب مع أحلامه وآماله المشروعة ، وتتفهم دخائله وتشجعه على البوح لها بمكنون الصدر . والحق أنه لا تعارض البتة بين اضطرارك للقيام بدور الأب فى حياته بعد رحيل أبيه ، وهو شاب يحتاج إلى صداقة الأب فى مثل هذه المرحلة من العمر ، وقيامك أيضا بدور الأم له مع كل ما يعنيه هذا الدور من عطف ورحمة وحنو ، كما أنه لا تعارض بالمرة بين قوة الشخصية والحزم وإتاحة الفرصة للابن لكى يعبر عن نفسه ويختار حياته ، ويخوض تجربته ، مستعينا بحكمة الأهل وخبرتهم بالحياة ، فضلا عن أنه لا تعارض أيضا بين حزم الأمور، والتراجع عن أى قرار يتخذه المرء ويلح عليه الآخرون خاصة إذا كانوا من أعزائه بالعدول عنه ، لأنه يدمر حياتهم ويلغى حقهم فى الاختيار ويرشحهم للتعاسة والشقاء .. بل إن الحكمة الحقيقية تقتضى أن يعدل الإنسان عن قرار اتخذه وتشبث به فى وجه معارضيه الآخرين ، إذا استبان له خطل هذا القرار وسوء عاقبته . ذلك أن فى التراجع عن مثل هذا القرار شجاعة نفسية وادبية ، وليس ضعفا ولاوهنا ، ولأن من يخطىء

ويتقاعس عن تصحيح خطئه فى الوقت المناسب إنما يرتكب خطأ ثانيا ، كما يقول لنا حكيم الصين كونفوشيوس ، وأنت يا سيدتى قد واتتك الفرصة الملائمة لإصلاح خطئك الأول وهو إساءة معاملة خطيبة ابنك الأولى ومجافاتها وتجاهل أهلها وإشعارهم بالنفور منهم والتباعد عنهم ، حتى خشوا على مستقبل ابنتهم معك وحثوها على فسخ الارتباط بابنك نايا بها عن المتاعب .. فلقد رجعت المياه إلى مجاريها بعد بضعة أشهر بينه وبين خطيبته السابقة التى يحبها وتحبه ولا تنكرين عليها شيئا سوى حب ابنك لها وغيرتك الحمقاء من استحواذها على مشاعره ، وخشيتك من انشغاله بها عنك بعد الزواج وهى مخاوف ووساوس لم يكن الدليل قد قام بعد على جديتها ، وجاءك ابنك يستعطفك ويطلب منك الإذن له بإعادة خطبتها من جديد ، مؤكدا لك أنه لا حياة له بدونها .. فلماذا لم تترفقى به وتتنازلى عن إصرارك على امتلاكه دونها ؟ ومن سنة الحياة أن يتوجه شاب مثله بمشاعره إلى فتاة مثلها دون أن يتعارض ذلك مع وفائه لأمه وحدبه عليها ، ولماذا سددت عليه كل أبواب الرجاء ، واشهرت فى وجهه سيف التهديد بحجب الرضا عنه إن هو استجاب لنداء قلبه وارتبط بهذه الفتاة على غير إرادتك ؟

وكيف يكون من أسباب سعادتك ورضائك عن خطبته الثانية ما لاحظته عليه فى فترة الخطبة من فتور مشاعره تجاه خطيبته وعدم حماسه للزواج منها ، وكأنما قد أرغم على ما لا يريده ولم تكن له حيلة فى دفعه عن نفسه ؟

لقد كان ذلك وحده كافيا عند ذوى القلوب الحكيمة لإدراك تعاسة الابن الشاب بهذا الارتباط ، والعدول عن إغرائه به أو الضغط عليه لإتمام الزواج ، ولو كانت عاقبة ذلك اختياره لمن يشعرون بالغيرة الحمقاء تجاهه ؟ وفارق كبير بين حب الأم

الرشيد للابن الذى يتسع للعطاء العاطفى له فى كل الأحوال ويقبل بمشاركة الغير لها فيه ، وبين ذلك الحب الأنانى الذى يرهن العطاء له بمصادرة مشاعره والرغبة فى الانفراد بها دون الجميع .

لقد ظلمت ابنك يا سيدتى ظلما بينا .. وظلمت فتاته السابقة ، وزوجته الحالية وحفيدتيك أيضا اللتين لا تريانهما إلا فى الأعياد باختيارك لهما أما لا يحبها زوجها فكأنما قد رشحت الجميع للتعاسة والشقاء بإصرارك على امتلاك إرادة ابنك الشاب الرشيد دونه .. وحرمانه مما رأى فيه سعادته ، وإغرائه بما كان جليا لعين القريب منه فتوره تجاهه .. وعدم احتفائه به .

فإن كانت ثمة فضيلة تذكر لك فى هذه القصة كلها فهى فى تحملك مسئولية ابنك عقب رحيل أبيه عنه وهو فى أشد الحاجة لحكمته وصداقته ورفقه به ، وفى سعيك الجاد لتوفير الحياة الأفضل له .. وتفرغك لهذا الهدف بعد ترملك ، وإن كان ذلك كله كان من الممكن تحقيقه مع الرفق بالابن الوحيد وتفهم رغباته المشروعة ، وترسيخ ثقته فى نفسه ، وحل كل المشاكل المتوقعة معه بالحوار الإنسانى والإقناع وليس بالقهر والإرغام ، ومصادرة الإرادة ، وممارسة حق الاختيار له دونه وعلى غير رغبته .


صوت
من السماء
٧
سنوات الحرمان!

قرأت رسالة « شاطئ الحكمة » للأم التى تروى كيف استطاعت بصلابتها وقوةشخصيتها أن تفرق بين ابنها وبين الفتاة الوحيدة التى أحبها وخطبها ، لغير شئ سوى أنها استشعرت حب ابنها لها واهتمامه الشديد بها ، وخشيت من أن تستحوذ عليه دونها ، وهى الأرملة التى كرست حياتها لابنها وكيف دفعت خطيبة ابنها دفعا بإساءة معاملتها وتجاهلها لأهلها إلى طلب فسخ الخطبة ، ثم حالت بعد ذلك بين ابنها وبين الرجوع إلى فتاته حين رغب الاثنان فى ذلك ، وهددته بسيف الغضب عليه إذا هو تزوج منها على غير إرادتها ، وأغرته بالارتباط بأخرى لا يحبها ولا تخشى عليه من أن تنفرد به دونها ، فتزوجها ولم يسعد بحياته معها .. ولم تهنأ الأم بابنها وحفيدتيها لأن زوجته التى اختارتها له بنفسها قد أساءت معاملتها وقاطعتها وحرمت على زوجها أن يصطحب طفلتيها معه لزيارة جدتهما . ولم تجن الأم من كل ذلك سوى ندمها على تعاسة ابنها الوحيد بزوجته واتهامه الصامت لها بحرمانه من سعادته ، وهذه القصة يا سيدى تماثل فى مضمونها قصتى التى أكتب لك الآن عنها ، فأنا مرتبطة بشاب له أم لديها مثل صاحبة الرسالة قلب شيمته القسوة وسعيدة جدا بصلابتها وتحكمها فى أبنائها وفى مشاعرهم ، وإذا كانت كاتبة

الرسالة تندم الآن على أن فرقت بين ابنها وبين من أحبها وتمناها ، فإن أم فتاى لا تشعر بأى ندم .

فلقد أحببت شابا من نفس مستواى الاجتماعى والمادى والثقافى والعائلى ، ولا يوجد بيننا ما يمنع أن نكون زوجين متحابين سوى رفض أمه الحاد والمستمر لمدة ثمانى سنوات حتى الآن لى بدون أى سبب سوى أن ابنها يحبنى ويصر علىّ وأنه هو الذى اختارنى وليست هى صاحبة الاختيار ، فرفضت حتى أن تقابلنى أو أن تسمعنى بإصرار وكأننى سوف أغتال ابنها .

وهكذا فإننا فى حرب طوال هذه السنوات ، هى تحاول أن تقنعه بغيرى ، وأنا وهو نحاول أن نلتمس رضاها إلا أن قلبها لا يرق ولا يتأثر .. لماذا ؟ لا أدرى وإلى متى؟ لا أعلم أيضا .

إننى أرجوك أن تكتب إليها وإلى كل أم مثلها وأن تسألها : لماذا كل هذا العناد ؟ ولماذا تعذب ابنها بدافع الحب ؟ ولماذا الظلم وتحطيم القلوب ؟

إننى أرجوك أن تطلب منها أن تفصح عن سبب واحد مقنع للرفض وأن تؤكد لها أن ابنها لن يتزوج غيرى فلماذا الرفض إذن ؟ وهل سيرضيها أن أقبل الزواج منه دون رضاها ؟ هل ستسعد عندما لا تحضر زفاف ابنها ، وهل ستكون سعيدة حين لا ترى أحفادها من ابنها ؟ لقد سألت أحد الشيوخ وكان معى ابنها فقال لنا تزوجا دون رضاها فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والزواج طاعة لله فى هذه الظروف ورفضها يدعوكما للمعصية ! إننى أرجوك أن تكتب لها على لسانى أننى أقسم لها بأننى لن آخذ ابنها منها بحبه لى كما تظن وإننى ألتمس منها الرضا لكى تسعد ابنها وتسعدنى ، وقل لها

أن تضع ابنتها فى مكانى وتسألها : هل ستقبل بعذابها وحرمانها ممن أحبت ؟

إن الحب ليس جريمة طالما كان فى نطاق الاحترام وطالما كانت النية هى تكوين أسرة سعيدة قائمة على التفاهم والحب ، فيا سيدتى أرجوك تكلمى سئمت صمتك وتحكمك فىّ طوال ثمانى سنوات .

وشكرا لكم على تناولكم مثل هذه المشكلات التى تمثل فئة من المجتمع الذى نعيش فيه ، وأرجو عدم تجاهل نشر قصتى لعلها تكون سببا يدفع قلب والدة فتاى لأن يرق لى ولمشاعر ابنها .. والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ثمانى سنوات من الصبر والانتظار فترة أكثر من كافية لأن يرق قلب أى أم فى الوجود لابنها وتاذن له بالزواج ممن اختارها قلبه حتى ولو لم تكن فى أعماقها راضية على هذا الاختيار ، أو كان لديها ألف سبب وسبب للاعتراض عليه . ذلك أن طول الصبر والانتظار لهذه الفترة الزمنية يقطع بان اختيار ابنها لفتاته هو اختيار نهائى غير قابل للمراجعة أو التعديل ، كما يقطع أيضا ببر هذا الابن بامه وإشفاقه عليها من ان يتزوج ممن اختارها قلبه على غير إرادتها وقبولها .. فما معنى التحجر عى موقف الرفض من جانب الأم إلى ما لا نهاية سوى إهدار العمر الثمين فى الصبر والانتظار ، وسوى اختزان الابن وفتاته للمرارة فى أعماق كل منهما تجاه من تحول بعنادها الرهيب دون تحقيق حلم السعادة فى حياتهما !

إن هذا الابن ـ كما فهمت من سطور الرسالة ـ قادر على أن يتزوج من فتاته التى يرتبط بها برباط وثيق منذ ٨ سنوات ، ولكنه يشفق على امه من ان يحقق سعادته على غير رضاها

ومباركتها ، فكيف لا تترفق به بعد كل هذا الصبر وتمنحه الإذن بالزواج .. وهو الذى كان فى مقدوره أن يفعل ذلك على غير إرادتها طوال السنوات الماضية ؟!

وكيف لا يكون الرفق بمثل هذا الابن هو العطاء المقابل لصبره على نفسه وحرصه على عدم إغضاب والدته طوال كل هذه السنين !

يا سيدتى إن رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - يقول لنا ما معناه : رحم الله امرأ أعان ولده على برّه .

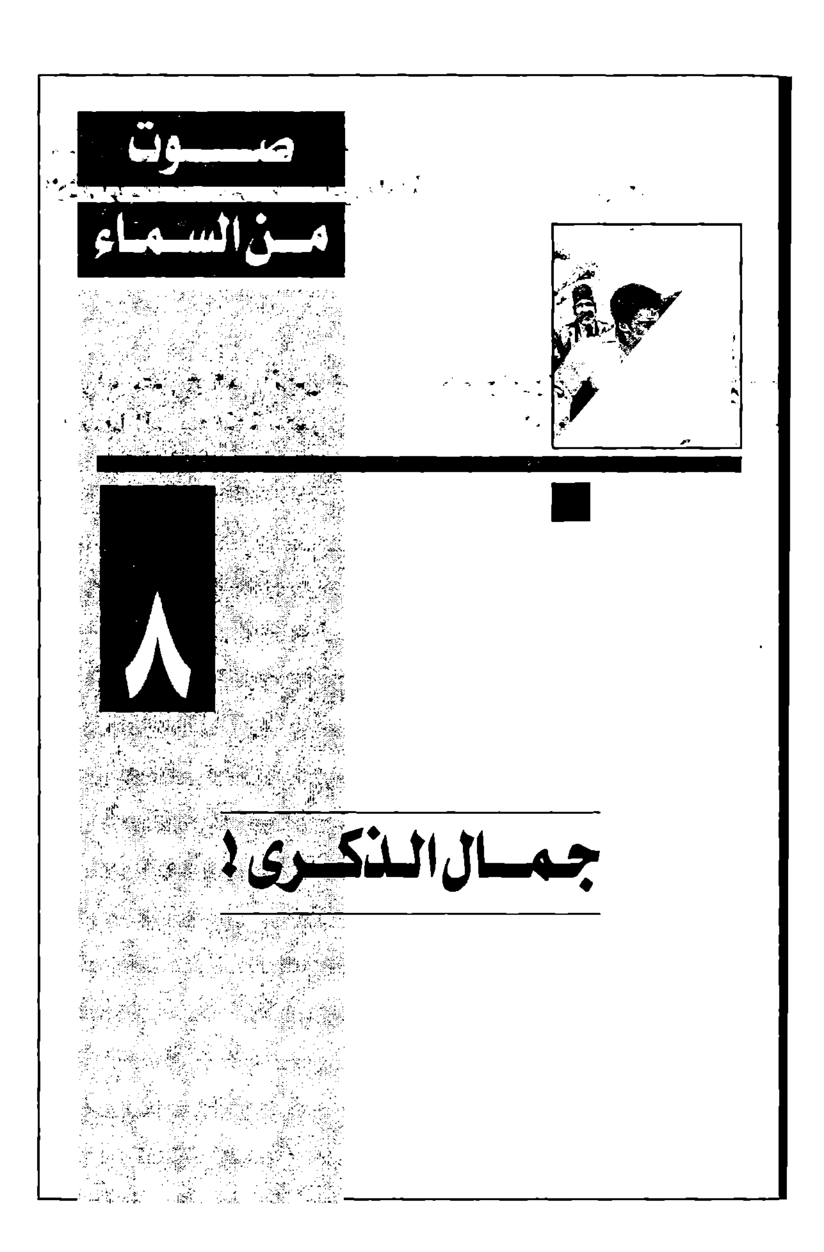
أى أعانه بالعدل معه والرفق به على أن يكون ابنا بارا له يرعى الله فيه ويطيع ربه فى تعامله معه .

وأنت يا سيدتى لا تعينين هذا الابن على أن يكون بارا بك بهذا الموقف المتصلب من اختياره لشريكة حياته أيا كانت دوافعك إليه ، وإنما تدفعينه دفعا إلى شق عصا الطاعة عليك ، كما أنك - ويا للعجب - ترضين له بالحرمان مما يراه سعادته المشروعة لاعتبارات تتعلق بك أنت ولا تتصل به أو بسعادته ، كان يكون بعضها متعلقا للأسف بالعناد الصخرى .. وموقف العداء من الفتاة التى اختارها الابن .. والرغبة المتسلطة فى عدم الانهزام أمامها فى معركة الظفر بالابن الحائر ، كما لو كانت حياته ومستقبله ساحة للنزال تقول فيها كل من الأم وفتاة الابن للأخرى : اللعنة على من يقول قبل الآخر كفى قتالا ! كما قالها ماكبث فى رائعة شكسبير لخصمه ماكدوف فى مبارزتهما الأخيرة ، وما هكذا يكون التعامل مع حياة الابن ورغباته المشروعة ، وما هكذا يكون البر بالأبناء والرفق بهم ، بل إنى لأعجب كيف ترضين لابنك الشاب بالصبر ثمانى سنوات طوال على رغبته فى هذه الفتاة ، وتحولين دون سعيه المشروع لإعفاف

نفسه بها وهو الذى لو أصاب إثما معها كان عليك بعض هذا الإثم لوقوفك حجر عثرة فى طريق زواجهما المشروع ؟

لقد قال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص وإنما العاصى هو الإمام الظالم !

ولو خرج هذا الابن على طاعتك وتزوج من فتاته لما كان عاصيا لك .. وإنما يكون العاصى هو « الإمام الظالم » الذى دفعه دفعا إلى هذا العصيان ، وشكرا .


صوت
من السماء
٨
جمال الذكرى!

أنا فتاة فى الثانية والعشرين من عمرى .. قرأت رسالة « الثمن الفادح » للأستاذة الجامعية التى تشكو تحملها وحدها مسئولية رعاية والدها المسن المريض مما أثر فى حياتها الزوجية ، ومن عدم مشاركة إخوتها لها فى تحمل هذه المسئولية والتخفيف عنها ، ولقد أثارت هذه الرسالة شجونى لأننى نشأت فى أسرة متوسطة الحال ومتدينة إلى حد كبير ، ومنذ صغرى تعودت على أن أسمع من أبى توجيهاته عن الحرام والحلال ، وما يجوز لنا أن نفعله فى حياتنا وما لا يجوز .. ولأننى أصغر إخوتى فلقد كان أبى موقنا فى أعماقه أنه لن يكمل معى الطريق وأنه سوف يتركنى استكمله وحدى من بعده ، فنشأت بينى وبينه علاقة حب عميق ، وفهم صادق ، فكان يشعر دائما بما أشعر به من ضيق أو حزن ولا يدعنى حتى يسرى عنى ويعيد البسمة إلى وجهى ، وإذا خرجنا معا راح يتحدث معى كصديق ويصارحنى بما يشغله أو يضايقه فمضت بنا الأيام وحبه ينمو فى قلبى ويمتزج بالإعجاب والفخر بهذا الأب الذى ظل يكدح أربعين سنة ويعطى ويرعى ويحب من حوله ناسيا نفسه ، إلى أن بدأ المرض يدب فى جسمه ، وبدأت أيدى الأطباء تتداوله وكل منهم يفتى برأى مخالف عن رأى الآخر ، وحالة أبى تسوء يوما بعد يوم ، إلى أن عرض نفسه على

طبيب كبير بالقاهرة فاكتشف إصابته بالمرض اللعين ووصف له العلاج الصحيح وتحسنت حالته بعض الشيء ، وتماسكنا نحن لكى نخفف عن أبى وقع الصدمة .. والتففنا حوله نحيطه بالحب والرعاية والدعاء ، وفى كل صباح أدخل عليه غرفة نومه وأنا متوجسة لأرى إذا كان يتنفس أم لا ، وأسأله هل يريد شيئا .. وأتأمله بعض الوقت وأسمع إجابته الحبيبة إنه لا يريد إلا سلامتى ، وأخرج للجامعة وأرجع ملهوفة لأطمئن عليه ، وأتبادل مع أختى تعليق الجولوكوز له .. وأتجنب النظر إلى عينيه لأننى لا أحتمل دموعه التى تنساب بغزارة ، وأدخل عليه وهو نائم عشرات المرات أنظر إليه وأتفحصه وكأنى أراه للمرة الأولى .. أو كأننى أريد أن أشبع عينى من وجهه بعد أن أشبع هو قلبى بحبه ، وكم كانت تبلغ بى السعادة حين أؤدى له شيئا يطلبه أو أنجح فى إدخال السرور إلى قلبه الحزين أو أرسم الابتسامة على شفتيه ، إلى أن جاء اليوم الأخير وجلست إلى فراشه أطعمه بيدى لأول مرة فى حياتى ، وفى ليل هذا النهار رحل أبى - يرحمه الله - عن الحياة ودخلت عليه غرفته فرأيته يبتسم ابتسامة صافية جميلة وهو بين يدى خالقه فقبلت جبهته ودعوت له ربى بأن يتقبله بقبول حسن ويعوضه فى رحابه عن كفاحه وعطائه لأسرته وأبنائه .. وواجهت الحياة من بعده وحيدة .. أسير فى الطريق « فأراه » يمشى إلى جانبى يحدثنى ونضحك معا .. وأرى فراشه خاليا فأشعر بقلبى الذبيح يعتصره الألم .. وأرى ملابسه فى الدولاب فأقبلها وأبكى ، وأراه فى كل مكان من البيت كأنما لم يغادره .. وفى أوقات كثيرة يخيل إلىّ أنه غائب عنا فى العمل وسوف يعود إلى البيت فى موعده ويفتح الباب ويلقى علينا تحيته المعتادة ، ولقد مضت ستة أشهر على رحيله عنى ومازلت أفتقده كثيرا وأتوق إليه أكثر وأحتاج إليه بشدة

وأشعر كأننى شجرة سقطت منها كل أوراقها ولم يعد هناك ما يحميها من عواصف الحياة .. وأتمنى لو أرتمى على صدره وأبكى بكل دموعى ، ولقد ظهرت نتيجة السنة النهائية فى الجامعة ونجحت بتفوق فلم أفرح بنجاحى ولا بتفوقى وطوال طريقى للعودة إلى مدينتى من مقر الجامعة لم تتوقف دموعى ، لأننى لن أستطيع أن أبلغ أبى بنجاحى وأسعد بفرحته به .. وبدعائه لى كما كان يفعل كل سنة .. إننى أريد أن أقول لهذه الأستاذة الجامعية التى تتشكى من رعايتها لأبيها دون إخوتها إننى أغبطها على ما تشكو منه من عناء خدمة أبيها ، وإننى كنت أتمنى لو طال المرض بأبى إلى ما لا نهاية ليبقى بيننا ومعى أطول فترة ممكنة ولوخدمته برموش عينى وأمضيت عمرى جالسة تحت قدميه كما كنت أتمنى لو طال به العمر قليلا ليرانا حوله ويحصد ما زرعه فينا ويرى ثمار زرعه الطيب .. إننى راضية تماما بقضاء الله وقدره لكنى حزينة على أبى .. وحزينة من أجله وهناك فارق كبير بين الحزن وعدم الرضا ، ولأن قلبى كتوم لما فيه دائما فقد فاض بأحزانه ولم يعد يستطيع إخفاء ما أشعر به من افتقاد لأبى ووحشة من بعده .. والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الله سبحانه وتعالى وحده هو من يعلم بعمق عاطفة الحب التى ينطوى عليها قلب الأب لأبنائه خاصة الضعفاء منهم ، فهم حبه الأبدى والسرمدى الذى لا تنال منه السنون ، وهو عند الصالحين منهم مع حب الأم حبهم الأول والأعمق والذى يصوغ وجدانهم ويعلمهم حب الآخرين . ومن أصدق ما قرأت فى هذا الشأن ما كتبه الكاتب المسرحى الإنجليزى صمويل بيكيت عن أبيه حين قال مخاطبا إياه : « إذا لم تحبنى فلن يحبنى أحد فى الدنيا بأسرها وإذا لم أحبك فلن أحب أحدا أبدا ! » .. وهى كلمة

عميقة المغزى ، وتنبهنا إلى حقيقة نفسية كامنة فى النفس والوجدان هى أن من لا يحبه أبوه أو لا يستطيع أن يجتذب حب من فطره الله على حب أبنائه ، فلن ينجح غالبا فى الفوز بحب أحد غيره حبا صادقا أبدا ، وأن من لا يحب أباه لن يتسع قلبه الذى فطره خالقه على حب الأبوين لحب حقيقى صادق لأى إنسان من قبلهما أو بعدهما مهما تراءى له غير ذلك .. ولأن أحب أبناء الأب إليه - كما قال العربى الحكيم - هو صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يشفى ، وغائبهم حتى يعود ، فلقد كنت أنت يا ابنتى بهذا المعيار الرحيم أحب أبناء أبيك إليه ، لأنك «صغيرهم» الذى يختلط حبه له بالإشفاق عليه .. والتوجس مما قد يواجهه فى الحياة من بعده إن لم يتسع العمر لحدبه عليه حتى تصل سفينته إلى شاطىء الأمان . والأب العطوف الصديق هو دائما أقرب الآباء إلى قلوب أبنائهم ، وإذا كانت طبيعة الابن تنزع به عند سن معينة للاستقلال بشخصيته وأفكاره وهواجسه عن أبيه ، وتقيم لديه « تعارضا » موهوما ، بين تعبيره لأبيه بالكلمات عن مشاعره العاطفية تجاهه .. وبين ما يحسبه هو من مقتضيات الرجولة واستقلال الشخصية ، فإن الابنة بطبيعتها الأنثوية تعفى نفسها من هذا التناقض الموهوم ، ولا ترى بأسا فى التعبير عن مشاعرها العاطفية لأبيها وأمها مهما بلغت من العمر .. ولقد تستقل مكانيا عنهما ويصبح لها بيت آخر وزوج وأبناء ، لكنها لا تنفصل عنهما عاطفيا أبدا ، وإنما تظل مشدودة إليهما بخيط رفيع من الحنان والعطف والحب الصادق والاعتمادية النفسية التى تعمق روابط الأبوين معها ، وكذلك يفعلان هما أيضا معها مهما تباعدت بينهما وبينها المسافات والأزمان ، ولأن حبها لهما وحبهما لها هما نبع الحب الأول فى قلبها ، فكل حب يطرأ على حياتها هو امتداد لهذا الحب وليس

متناقضا معه . ولقد كان الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يحب ابنته فاطمة أشد الحب وأعمقه ، ورفض أن يأذن لعلى ابن أبى طالب بأن يتزوج عليها قائلا مامعناه : والله لا آذن.. والله لا آذن .. فإن فاطمة بضعة منى يؤذينى ما يؤذيها ويريبنى ما يريبها . فلا عجب إذن فى أن ينطوى لك قلب أبيك على كل هذا الحب ، ولا فى أن تبادليه أنت ككل ابنة بارة عطوف حبا بحب ، وتفتقدى غياب شمسه عن حياتك .. ومن أحزان الحياة حقا أن تتحقق لنا الأهداف التى سعينا بجد لبلوغها والانتصارات التى كدحنا جادين لتحقيقها .. وقد غاب عنا من كانوا سيسعدون بها أكثر من سعادتنا نحن بها ، أو تجيئنا هذه الأهداف بعد أن رحل عنا من كان النصيب الأكبر من فرحتنا بها سيكون نابعا عن إحساسنا بالرضا عن أنفسنا لأننا قد أسعدناهم بها وأدخلنا الفرحة من أجلنا إلى قلوبهم الحزينة .. فالإنسان لا يسعد بسعادته وحده بالأشياء التى تطلع إليها ، وإنما بسعادة أعزائه الأقربين إليه بها من أجله ، بل لعل فوزنا بما سعينا إليه من أهداف ، قد يثير الأسى فى نفوسنا حين تتحقق لنا بدلا من الابتهاج به حين لا نجد حولنا من نتقاسم معه الفرحة بها ، غير أن هذا الإحساس المرير قد يشعر به الإنسان فى نهايات العمر أكثر وليس فى بداياته كما هو الحال معك ، ولقد يثير المرارة فى نفس الإنسان الوحيد تماما فى الحياة، وليس فى مثل ظروفك التى تحظين بها بنعمة وجود الأم والإخوة والأحباء .. فاستعينى بما غرسه والدك فى قلبك من حب له وللآخرين على مواجهة الحياة ، ولتكن ذكرى أبيك وأيامك السعيدة معه وفى حياتك العائلية زادا عاطفيا لك يشد من أزرك ويعوضك عن غيابه عنك .. فإن جمال الذكرى يمكن أن يعوض الإنسان بعض ما يستشعره من وحشة ووحدة بعد غياب الأعزاء.. وشكرا على إعلائك للقيم العائلية الصحيحة وتذكيرك للآخرين بواجباتهم تجاه أعزائهم والسلام .


صوت
من السماء
٩
الصرخات العالية!

لا أعرف من أين أبدأ رسالتى هذه إليك .. فأنا شاب موظف أقيم بالقاهرة وأنتمى لأسرة متراحمة من إحدى محافظات الجنوب ، وقد نشأنا بين أبوين طيبين وتعلمنا فى المدارس والجامعات ، وفرقت بيننا شئون الحياة ، فتزوجت شقيقتان لى فى محافظة أخرى ، وانتهت بى الوظيفة بالاستقرار والزواج فى القاهرة ، وبقيت إحدى شقيقاتى مع والدتى فى عاصمة المحافظة التى نشأنا فيها وعملت هناك بعد تخرجها فى كليتها الجامعية ، وارتبطت عاطفيا بشاب طيب من معارف الأسرة اختار العمل الحر فافتتح لنفسه مكتبا مهنيا فى نفس المدينة ، وبدأت الأسرة تستعد للاحتفال بتتويج قصة حبهما العميق بالزواج ، وتم الزفاف فلفتت شقيقتى الأنظار بجمالها الباهر الذى سخا به الله سبحانه وتعالى عليها ، وسعد العروسان بحياتهما .. وتشاربا الحب الصافى ، والمودة المتبادلة طوال ١٤ عاما لم يزعجهما خلالها شىء سوى أن شقيقتى الجميلة هذه لم تشأ لها العناية الإلهية أن تنجب بالرغم مما أجرت من عمليات جراحية وحصلت عليه من علاج ، وبالرغم من أن الأطباء بعد آخر جراحة أجريت لها قد أكدوا لنا أنه لم يعد هناك ما يمنعها الآن من الحمل والإنجاب ، وفيما عدا ذلك فلقد مضت حياة شقيقتى وزوجها فى سلام ، وتميزت علاقتهما دائما

بالحب والوئام ، ولاحظت أنا شخصيا عليها أنها كلما مضى بها العمر دون إنجاب ازدادت التصاقا وارتباطا بزوجها وكأنما قد أصبح محور حياتها واهتمامها وكل شيء لها في الحياة ، فلا حديث لها معي أو مع والدتها أو إخوتها إلا عنه . ولا خطوة أو عمل تقدم عليه إلا إذا رضي عنه هو أولا وباركه .

ولقد أدركت والدتي بقلب الأم عمق ارتباطها بزوجها وخشيت عليها مما يمكن أن تتعرض له إذا طرأ على علاقتها به أي طارئ .. واستشعرت أن زوجها لابد أنه يتعرض لبعض الضغوط من جانب أهله للزواج مرة أخرى من أجل الإنجاب ، وأنه قد يساوره الحنين للأطفال فيقدم على خطوة لا يدرك فداحة عواقبها على زوجته ، ففاتحته في هذا الأمر على انفراد وطالبته بأن يصارحها بما إذا كان ينوي الزواج مرة أخرى أم لا ، لكيلا يفاجئ زوجته بخطوة تسلمها للانهيار ، وصارحته بأنها تتفهم دوافعه لمثل هذا التفكير لكنها تطلب منه فقط الصراحة لكي تحمي ابنتها من المفاجأة ، فأكد لها أنه لا يفكر في الزواج وأنه لا يحب الأطفال ولا يسعى إليهم .

واطمأن قلب الأم بعض الشيء ، وبعد أسابيع من هذا الحوار لقيت وجه ربها واجتمع الأبناء المشتتون في أنحاء البلاد في بيت الأسرة ، ولاحظت أنا أن شقيقتي المقيمة في بلدتنا بالرغم من حزنها الشديد على أمها ، وقد كانت رفيقة وحدتها في السنوات الأخيرة ، لا تسمح لحزنها عليها بأن يشغلها لحظة عن زوجها المحبوب ، وانتهت أيام العزاء ورجع كل منا إلى بيته وأسرته .. ومضت ثلاثة شهور ثم كنت في بيتي ذات مساء فإذا بالتليفون يرن رنته الطويلة التي تشير إلى مصدر المكالمة البعيد ، وإذا بي أرفع سماعة التليفون فلا أسمع منها سوى صرخات عالية ونواح صاخب وكلمات متقطعة لا أميز منها سوى صوت شقيقتي هذه وهي تقول لي: فلان سيتزوج !

وعرفت بعد جهد جهيد لتهدئتها أن زوجها الذى تتفانى فى حبه قد صارحها قبل لحظات بأنه سيتزوج من موظفة شابة بمكتبه وسألها عن رأيها فيها فانهارت انهيارا كاملا حتى أشفق عليها زوجها وطلب منها إن لم تكن موافقة على هذه الفتاة بالذات أن ترشح له هى زوجة أخرى لأنه كما قال لها سوف يتزوج لكى ينجب فى كل الأحوال .

ولم أدر بما دار بينهما حينذاك .. لكن ما حدث هو أنه قد تزوج بالفعل من تلك الفتاة بعد عدة أيام ، وأن شقيقتى لم تتقبل الأمر الواقع وانهمرت دموعها ليل نهار ، وعجزت عن النوم لعدة ليال إلى أن كانت جالسة تجتر أحزانها وحيدة فى مسكنها ذات أصيل فإذا بها تشعر كما روت لى فيما بعد ، وكأن سيخا من النار يشق ظهرها ، فصرخت من الألم صرخات عالية تجمع على صداها الجيران وهرول إليها زوجها واصطحبها للطبيب فشخص الحالة على أنها نوبة برد شديدة الوطأة .. وأعطاها حقنة مسكنة للألم ومنومة .. فلم تنم ولم يتوقف الألم ولم تكف عن الصراخ وإنما بدأت تفقد الإحساس بنصفها الأسفل وتعجز عن المشى .. وتم ادخالها المستشفى فى مدينتها واجتمع الأهل حولها يخففون عنها .. وتحسنت حالتها بعض الشىء واستردت بعض قدرتها على المشى ببطء شديد ، ورجعت إلى منزلها .. فإذا بحالتها تسوء من جديد وتفقد الإحساس نهائيا بالنصف الأسفل من جسمها ، وتشكو من فوران غريب للدم يبدأ من رجلها ثم يصعد إلى أعلى جسمها فيعتصره اعتصارا بالتقلصات التى لا يطيقها بشر ، فتصرخ من الألم بلا انقطاع ، ثم بدأت رجلها تتورم وعجزت عن الحركة ، والاستلقاء نهائيا على ظهرها لأن سيخ النار الذى يشقه يتضاعف ألمه إذا لامس ظهرها الفراش .

وجاءت شقيقتى إلى القاهرة منذ أسابيع طلبا للعلاج وبعد جولة عصيبة على الأطباء قال الطبيب النفسى إن الحالة قد أصبحت عضوية ولم يعد يملك علاجها ، واختلف الأطباء المتخصصون فى تشخيص حالتها فمنهم من قال إن لديها مرضا نادرا واسمه دى.إس، ومنهم من قال إنها مصابة بتصلب متناثر بالجهاز العصبى، ومنهم من قال إن علاجها ممكن بالحقن لكنه يتكلف ٩٠٠ جنيه أسبوعيا لمدة عام كامل . وهى حقن غير متوافرة حاليا فى مصر .

لقد أدخلناها مستشفى عين شمس التخصصى أسبوعا تكلف أكثر من ألفى جنيه دون جدوى .

وهى الآن مقيمة فى بيتى بالقاهرة نصف مشلولة لا تقدر على المشى ولا تستطيع أن تفرد ظهرها على فراش ولا تتحكم فى الإخراج بسبب فقد الإحساس بالنصف الأسفل من الجسم .. وتمضى النهار والليل جالسة متكئة على أحد جانبيها والتقلصات الرهيبة تعتصر جسمها فتطلق صرخاتها العالية باستمرار وتحتاج إلى مرافق بصفة دائمة .. وكلما احضرت لها مرافقة لم تحتمل صرخاتها المستمرة وخدمتها وتركتنا . والجيران الذين يؤرقهم صرخاتها فى الليل يدعون لها الله سبحانه وتعالى أن يسكن آلامها ويتعجبون حين يعرفون أن مصدر هذه الصرخات هو شابة باهرة الجمال فى سن السابعة والثلاثين من عمرها .. ولقد عرض زوجها أن يطلقها إذا كان فى ذلك شفاؤها .. لكنها ترفض الطلاق وتتمسك بالأمل فى الشفاء .. وأنا حائر معها ومتألم من أجلها ولا أعرف ماذا أفعل ، لقد قيل لى إن لمثل حالتها هذه علاجا فى الخارج وأنا موظف وهى موظفة ولا نتحمل تكاليفه .. فهل من أمل فى قرار إنسانى بعلاجها فى الخارج وماذا أفعل معها لكى أخفف عنها بعض هذه الآلام القاسية ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا إلهى كل هذا البلاء لأن زوجها قد تزوج من اخرى بغرض الإنجاب ؟ وماذا أفادها الاستسلام للحزن الشديد على عدم وفاء زوجها لها سوى مضاعفة الخسائر .. وفقد الصحة والقدرة على الحركة بعد فقد إخلاص الزوج لها للنهاية ! إن عجز الإنسان عن تقبل الأمر الواقع الذى لا يرضيه يضعه من حيث لا يدرى فى بؤرة الصراع النفسى الذى يتأجج فى أعماقه ويفور كما تفور الحمم فى جوف البركان ، فإن لم يحسم هذا الصراع فى الوقت الملائم بالتواؤم مع الأمر الواقع الذى لا حيلة له فيه .. أو برفضه وتغييره ، والخروج من دائرة الانفعال السلبى به .. فإن هذا الصراع قد يتحول إلى مرض نفسى هستيرى تصاحبه مظاهر مرضية كالاضطرابات الحركية التى يفقد المرء معها القدرة على الحركة كما فى الشلل الهستيرى ، وكاضطرابات النطق التى يعانى معها فجاة من عدم القدرة على الكلام واحتباس الصوت أو تغير نبراته أو الهذيان بصوت غريب بكلمات غير مفهومة تدفع البعض للاعتقادبان أرواحا شريرة قد تملكته ، وكاضطرابات النظر مثل العمى الهستيرى المؤقت الذى يفقد المرء معه الرؤية لفترة تطول أو تقصر نتيجة لتأثره الشديد بانفعال حاد صارخ ، وكل هذه الحالات قد تظهر لدى السيدات فى مجتمعنا أكثر من الرجال كتعبير لا إرادى عن الصراعات الداخلية فى حياتهن الزوجية أو العاطفية أو بهدف الهروب النفسى من مواجهة مواقف عصيبة يعجزن عن مواجهتها واحتمالها ، أو بهدف اجتلاب الحنان والاهتمام اللذين يفتقدانهما فى العلاقة مع شركاء الحياة والقلب ، وفى الأغلب الأعم فإن هذه الأعراض قد تظهر لدى السيدات الأقل نضجا من الناحية العاطفية والنفسية أكثر من غيرهم . كما تظهر أكثر

ايضـا لدى السـيـدات اللاتى ينظرن إلى الحـيـاة نظرة أكـثـر رومانسية من غيرهن .. وفى كل الأحوال فإن العلاج لابد أن يتجه إلى الكشف عن العوامل اللاشعورية المسببة لهذه الأمراض ، وإلى حسم الصراع النفسى الشديد الذى أدى لظهور هذه الأعراض عن طريق العلاج النفسى .

وفى حالة شقيقتك فإن العوامل اللاشعورية التى سببت لها هذه الآلام القاسية وأفقدتها الإحساس بالنصف الأسفل من جسمها وأعجزتها عن الحركة والقدرة على الرقاد كغيرها من البشر ، هذه العوامل معروفة ومكشوفة ولا تحتاج إلى جهد من الطبيب النفسى للغوص فى أعماقها لاستكشافها ، ولقد عجبت أشد العجب من أن يعرض زوجها أن يسرحها بإحسان إذا كان فى ذلك شفاؤها .. وهو يعرف جيدا أنها ما مرضت ولا تعرضت لهذه المحنة القاسية إلا لعدم وفائه لها ولعدم الاكتفاء بها دون غيرها من النساء .. كما يعرف جيدا أنها تحبه أشد الحب وأعمقه.. وتدور كل مشاعرها حول محوره ، وتتمسك بالأمل فيه بالرغم مما دفعته من ثمن باهظ لعدم وفائه من صحتها وجسمها ونفسها ، فكيف يكون الاقتراح السعيد الذى يتقدم به للتخفيف عن آلامها هو أن يطلقها ؟ وكيف لم يفكر إذا كان صادق الرغبة حقا فى إزاحة هذ الغمة عنها فى أن يكون اقتراحه هو الانفصال عن الزوجة الأخرى التى لم يمض على زواجه منها سوى أسابيع ولم تحمل ولم تنجب بعد ، ولكى يحدب على زوجته الأولى إلى أن تستعيد صحتها الضائعة ؟ أنه اقتراح فى الاتجاه الخاطىء الذى ييسر عليه حياته الجديدة مع من ارتبط بها .. وليس نوعا من التضحية أو الإيثار كما يوحى فى ظاهرها .. ولقد كان من واجبه أن يترفق بزوجته الأولى .. ويخيرها بين الاستمرار معه بعد الزواج من أخرى ، أو الانفصال عنه فى سلام ، وأن يمهد

للخطوة التى أقدم عليـهـا بصـبـر وحـرص طويلين يتكافـان مع ما تحـمله له زوجتـه الأولـى من مشاعـر .. ومـا يتـوقعـه لمثل هذا الزواج الثانى من أثر رهيب عليها .

فإذا كانت دوافعه لمثل هذا الزواج مفهومة فإن الرحمة دائما فوق العدل .. ومـا أكثر مـا يطالبنا حسن الإدراك ورعاية حقوق الآخـرين علينا بان نتلمس مـواضع خطانا ونحن نسـعى إلى ما نعتبره حقا لنا .. ومـا أكثر مـا يطالبنا ذلك أيضا بان نحـاول بقدر الجـهد تقليل أضرار هذا السعى الذى نراه مشروعـا على من يضيـرهم ذلك شئنا أم أبينا ، ولو سالتنى النصيحة لنصحتك باستئناف العـلاج النفسى لشقيقتك عسـى أن يمهد ذلك لعلاج أمراضها الجسمية ، ولنصحتك أيضا بإقناعها بطى صفحة هذا الزواج نهائيا من حياتها .. وتركيز كل عنايتها الآن على صحتها وعلى الآلام الرهيبة التى تعتـصر جسمـها وتطلق صرخاتـها العالية ليل نهار من أثر تأثر جهازها العصبى بصدمتها الشديدة فى حبها لزوجها ، وبان تتمسك بإرادة الشفاء .. والأمل فيه أكثر مما تتـمـسك بـالأمل فى الزوج الذى مـضى إلى طريق آخـر .. ولسوف تعينها إرادة الشفـاء بإذن الله .. مع حـسمـهـا للصراع النفسى الحاد فى أعماقها على مواجهة الأمر الواقع بشجاعة ورفضه وبدء حياة جديدة خالية من الأحزان والآلام القاسية بإذن الله ، أمـا طلب العـلاج فى الخـارج فـإنى أضعـه تحت أنظار المسئولين ، وآمل أن أجد لديهم ما يستحقه من استجابة عادلة .



صوت من السماء

١٠

القرار السليم!

■ أنا رجل أعمال شاب تعرفنى شخصيا لأننى قد تعاونت معك من قبل فى موضوع قديم من موضوعات «بريد الجمعة » لكن ظروفى الآن تحول بينى وبين ذكر اسمى ، وقد دفعنى للكتابة إليك ما قرأته فى بريد الجمعة من رسالة الزوجة الشابة التى انفصلت عن زوجها الذى تحبه ويحبها بسبب عدم قدرته على الإنجاب ، وإحساسها بالندم على ذلك، ورغبتها فى العودة إليه ، وقد كان يحبها بإخلاص ويحسن معاملتها ، ولقد رددت عليها ونصحتها مادامت ترغب فى العودة إليه ، بالاعتذار له عما آلمته به تمهيدا لاستئناف حياتهما معا ، ولقد أثارت هذه الرسالة شجونى . فلقد أفاء الله سبحانه وتعالى علىّ بكل النعم ، من مال ونجاح كبير فى الحياة العملية ،إلا أن حكمته جل شأنه قد رأت أن تحرمنى من نعمة البنين ، واكتشفت ذلك أخيرا حين تأخرت زوجتى فى الحمل واضطررنا لعمل التحاليل اللازمة فجاءت نتيجتها بهذه الحقيقة المؤلمة ، وأنا رجل مؤمن بالله وراض بقضائه إلا أنه تواجهنى عدة مشكلات لا أدرى لها حلا ، أولاها أننى أشعر بأننى أظلم زوجتى باستمرارها معى بالرغم من أنها مصرة على الحياة معى وترى أننى لم أقصر فى حقها وأرعى الله فيها وفى كل من هم حولى ، وترى كذلك أن هناك أملا فى الشفاء ، وهو من عند الله

سبحانه وتعالى دائما ، لكنى بمنطق رجل الأعمال أرى أن النهاية آتية لا ريب فيها وأنها لن تستطيع تحمل الحرمان من الولد إلى النهاية خاصة مع إنجاب صديقاتها وزميلاتها ، ونظرات الأقارب المتسائلة عن سر عدم الإنجاب ، ومن هذه المشكلات أيضا أننى لم أستطع حتى الآن ولا أستطيع مواجهة أبى وأمى بهذا الابتلاء خاصة أنهما فى حالة صحية لا تسمح لهما باحتمال هذه الصدمة ، ومنها ما سبق أن أشار إليه بعض المبتلين بمثل هذا الحرمان فى رسائلهم إليك وهى نظرات الناس من حولى وتساؤلاتهم لماذا لم تنجب حتى الآن وقد أفاء الله علينا بأكثر مما نستحق من نعم ، وهى تساؤلات لا جواب لها عندى ، أما المشكلة الأخيرة فتتعلق بى شخصيا ، فلقد أصبت بحالة إحباط شديدة عند علمى بهذه الحقيقة المؤلمة ، وأشعر الآن إننى قد فقدت الحافز للحياة وبأنه لا معنى للسعى والعمل ولا لهذه المشاريع والأعمال التى أديرها ، فهى لن تذهب لأحد من بعدى ، وأبى وأمى لديهما ما يكفيهما فلمن أعمل إذن وأكدح وأسعى إلى التوسع والنمو؟ إننى لا أجد داعيا للعمل وبالتالى إلى الحياة ولا حتى للخروج من باب البيت ، ولقد وجدت سلواى فى الصلاة وقراءة كتاب الله ، آملا أن يلهمنى الله سبحانه وتعالى الصبر والقرار السليم بشأن حياتى الخاصة ، ذلك أننى أرى أننا يجب أن ننفصل أنا وزوجتى الحبيبة حتى لا نصل إلى المرحلة التى وصلت إليها الزوجة الشابة فى الرسالة المشار إليها حين طلبت الطلاق من زوجها وأصرت عليه بالرغم من دموع زوجها وتوسلاته إليها ألا تتركه ، ولكى أقطع دابر الأسئلة الحائرة من حولى ، لكنى لا أجد فى نفسى الشجاعة لأن أخبر زوجتى برأيى هذا ، كما أرى أننى يجب أن أصارح عائلتى ومن حولى بهذه الحقيقة المؤلمة لكنى أيضا لا أجد الشجاعة الكافية لذلك ،

وأنا أؤمن دائما بصواب رأيك ، لكنى لا أتفق معك فى نصحك لهذه الزوجة بالاعتذار لزوجها والعودة إليه ، لأنها لو اعتذرت ورجعت المياه إلى مجاريها بينهما فسوف يغلبها الحنين إلى الأطفال ، ويتكرر ما حدث بينهما مرة أخرى ، وأرى لها أن تترك زوجها لأقداره لأن اليأس إحدى الراحتين ، ولا داعى لنكء الجراح مرة أخرى ، إننى انتظر رأيك فيما يواجهنى من مشكلات ، وأرجو تجنب الإشارة إلى أى شىء تفلح معه الاستنتاجات فى التعرف على شخصيتى راجيا من المولى عز وجل أن يلهمكم الصواب دائما ، وأن نتعاون مستقبلا فى أية مشكلات تخص إخواننا من قراء البريد .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

حين يصطدم الإنسان بإحدى حقائق الحياة المؤلمة ، ويتطلب منه الأمر اتخاذ قرار مصيرى بشأنها ، فإن أفضل ما يفعله هو أن يؤجل اتخاذ هذا القرار بعض الوقت ، إلى أن يستعيد توازنه الذى زلزلته هذه الحقيقة نفسها ، ويتاح له الوقت الكافى لكى يبرأ من أثر الصدمة القاسية ومما أصابه من إحباط وقنوط ويأس انفعالا بها . ذلك أن أسوأ ما نفعله بحياتنا هو أن نتخذ القرارات المصيرية بشأنها ونحن فى قمة تأثرنا وتشوش أفكارنا وانفعالنا بما لا يرضينا من حقائق الحياة المؤلمة .

وأنت يا صديقى فى بؤرة تأثرك بما اكتشفت من عدم قدرتك على الإنجاب فى الوقت الحالى ، وتستوى لديك الآن كل الأشياء ، وتشعر بعدم جدوى الحياة والحب والعمل والكفاح والعلاقات الإنسانية ، وفقدت حتى الرغبة فى مجرد مغادرة البيت ومواصلة الاشتراك فى مباراة الحياة ، وتقبل هزائمها والانتشاء بانتصاراتها .. فكيف تكون صالحا وأنت فى هذه الحال من الضعف النفسى واليأس والقنوط لاتخاذ قرار قد تتأثر به حياتك

سلبا أو إيجابا إلى نهاية العمر ، إنكم فى دنيا الأعمال والإدارة تقولون أن القرار الخاطىء الذى تكون له دائما أوخم العواقب هو القرار الذى يتخذه صاحبه انفعالا بموقف طارىء ، أو تحت ضغوط نفسية قاسية لا تتيح لصاحبه صفاء التفكير والتجرد من المؤثرات الشخصية ، أو بناء على معلومات ناقصة أو خاطئة .

وقرارك الآن سوف تجتمع له كل أسباب الخطل إذا اتخذته على الفور ، لأنك أولا فى قمة انفعالك الحزين بما عرفت عن نفسك ، وتقع تحت ضغوط نفسية قاسية ، ولا تتوافر لك كل الحقائق اللازمة لاتخاذ القرار الصحيح ، وأبسط دليل على افتقادك لها هو أنك لا تضع اختيار الطرف الآخر المعنى بهذه المشكلة لحياته فى الاعتبار المعنى وهى زوجتك ، وترجم بالغيب فتقرر أنها لن تحتمل الحياة بدون إنجاب إلى ما لا نهاية ، وسوف تعمل معك إلى النقطة التى تشفق على نفسك منها وتطلب ذات يوم الانفصال عنك ، وكل ذلك ليس هناك ما يؤكده أو يجعل منه أمرا غير قابل للمناقشة ، فشريكة حياتك - كما تقول أنت نفسك - ترغب فى استمرار الحياة معك وترى أنك ترعى الله فيها ولا تقصر فى حقوقها ، والزوجة التى كتبت لى الرسالة وتتخوف من أن تصل شريكة حياتك ذات يوم إلى مثل موقفها حين طلبت الطلاق ، هى نفسها الزوجة التى ندمت على هجرها لزوجها وكتبت إلىّ ترجونى مناشدته أن يعيدها لعصمته بعد أن عرفت عن نفسها أنها لا تحتمل الحياة بعيدة عنه . فإذا كنت تستشهد بموقفها فى طلب الانفصال كدليل مؤكد على عدم قدرة شريكتك على احتمال الحياة معك بدون إنجاب إلى ما لا نهاية ، فكيف غاب عنك موقف هذه الزوجة نفسها حين ندمت على تسرعها وافتقدت شريك حياتها المحب ورغبت فى العودة إليه والحياة معه بغير إنجاب؟

لقد أثرت تأملاتى بحديثك عن عدم جدوى العمل والمال وليس هناك من سوف يرثه عنك ، لكنى أقول لك يا صديقى « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وأنت والحمد لله رجل مؤمن بالله سبحانه وتعالى ورسله وكتبه وبقضائه وقدره خيره وشره ، فكيف تقنط من رحمته إلى هذا الحد ؟ إن فى الحياة رجالا ونساء شاءت لهم أقدارهم أن يحرموا من الإنجاب فازدادوا عطفا وتمسكا بشركائهم وتعزوا عما افتقدوه بجوانب حياتهم الأخرى ، وبالحب الصافى الذى يتشاربونه مع شركاء العمر وبالعطف المتبادل بينهم ، وعرفوا أنه لا يربط بينهم سوى الحب الصادق فحرصوا عليه ورووا أشجاره .. فاثمرت ثمارها الطيبة فى حياتهم ، وفى الحياة أيضا من اكتشفوا مثل هذه الحقيقة المؤلمة عن أنفسهم فى بداية زواجهم فلم ييأسوا من رحمة ربهم ، وصبروا على أقدارهم ، وواصلوا السعى وطلب العلاج بلا كلل سنوات بعد سنوات ، فمنهم من أنجب لأول مرة بعد زواجه بـ ١٢ أو ١٥ عاما ، ومنهم من شعر بالرضا عن أقداره لأنه لم يقصر فى طلب العلاج ، واتسع قلبه لرعاية طفل محروم أو تعوّض عن حرمانه بأن اعتبر أبناء الأشقاء والشقيقات أبناءه وفاض عليهم قلبه بحبه وحنانه .

إننى أخشى أن أقول لك إنك بما تراه من ضرورة الانفصال عن زوجتك بعد أسابيع قليلة من اكتشاف عدم قدرتك على الإنجاب وبغير كفاح طويل ومرير لطلب الشفاء ، أخشى أن أقول إنك إنما تخشى على نفسك أنت من اللحظة التى يشتد فيها حنين زوجتك للأطفال فتطلب منك الانفصال ، أكثر مما تشفق عليها هى من حياتها معك بغير إنجاب وفى ذلك فإنك ستكون ظالما لها بإقصائها عن حياتك على غير رغبتها بدعوى أنك تطلب لها الأفضل على المدى البعيد حتى ولو تألمت لبعض الوقت لانفصالك

عنها ، ولن تكون ظالما لها ، على العكس من ذلك حين تواصل حياتك معها بناء على رغبتها واختيارها الحر ، حتى ولو عانت داخليا مما لا مفر من معاناته فى مثل هذه الحالة .

إننا فى بعض الأحيان قد نتخذ من القرارات ما هو أكثرها أنانية .. ونحن نتوهم أننا إنما نقدم بها التضحية لمن يستحقون التضحية من أجلهم ، ونصيحتى لك فى النهاية هى أن تؤجل اتخاذ أى قرار بشأن حياتك الشخصية إلى أن تستعيد صفاء الذهن وحماسك للحياة والأشياء من جديد ، وألا تنفرد باتخاذ هذا القرار دون شريكتك فى الحياة بدعوى التضحية بسعادتك فى سبيل سعادتها . فالسعادة أثمن من أن يضحى بها المرء بمثل هذه السهولة . ومنطق رجال الأعمال الذى ترى به أن النهاية آتية لا ريب فيها ، لا يصلح للتعامل مع هذه المشكلة ، لأنه منطق لا قلب له ويعتمد على الحقائق المجردة والأرقام الصماء وحدها ، وحياتك وحياة زوجتك وسعادتكما إنما تحتاج إلى منطق الحب والعطف والتضحية الحقيقية وليست الموصومة .. للتعامل معها .

فأما إشفاقك على أبويك من إبلاغهما بما تعانيه فى مشكلة الإنجاب ، وتساؤلات الآخرين من حولك ، فالحق هو أنك لست مطالبا بتفسير أى شىء فى حياتك الشخصية لآخرين فيما عدا والديك اللذين يهتمان بأمرك وصهريك اللذين يهتمان بأمر زوجتك ، وما أسهل أن تتلطف فى إبلاغ أبويك بأنك تواجه بعض المشكلات الصحية فى الإنجاب لكنك تطلب العلاج بجدية وتأمل فى الشفاء ذات يوم قريب بإذن الله ، وأن تفعل زوجتك نفس الشىء مع أبويها. ثم تغلقان باب التساؤل بعد ذلك أمام الجميع وتواصلان حياتكما فى أمل لا ينقطع فى رحمة الله .

وتخرج أنت من قوقعتك وتستعيد حماسك للحياة ، تؤمن بما

امرنا به الهادى البشير صلوات الله عليه وسلامه ، من أنه إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها فى الأرض طلبا للخير للآخرين ولو كانت الآزفة على الأبواب ، فإذا كنت تتساءل عن جدوى العمل والتوسع والمال وليس هناك من يرثه ، فإنى أقول لك إن الشجرة الوارفة يستفيد الآخرون بظلها ولا تستفيد هى منه شيئا .. ولهذا يفضلها الجميع بحبهم واعتزازهم ، وكذلك الإنسان حين يمتد ظله على الآخرين ويحميهم من لهيب الشمس ويهيىء لهم أسباب السعادة ، ويسعد نفسه وشركاء حياته وكل من حوله .


صوت
من السماء
١١
مواقف الحياة

اكتب إليك هذه الرسالة قرب الفجر وقد مضى عليّ يومان لم أذق خلالهما تقريبا أى طعام ولا أستطيع أن أجزم بأننى قد نمت خلالهما لحظة واحدة ، فأنا استلقى فى الفراش مغمض العينين لكنى أشعر بكل لحظة تمر على ولا يكف عقلى عن التفكير وأنهض من الفراش فى الصباح خائر القوى وأشد إرهاقا مما كنت عليه حين دخلته ، وابدأ من البداية فأقول لك إننى رجل فى أوائل الأربعينيات من العمر نشأت بين أبوين متحابين متعاطفين ، وأنهيت تعليمى الجامعى وعملت مهندسا بإحدى الهيئات ، وحاولت بقدر جهدى تعويض أبى عن كفاحه المرير لإعالتى وتعليم إخوتى فطلبت منه بمجرد أن عملت أن يعفى نفسه من مشقة العمل المسائى ، الذى يضطره لعدم العودة إلى البيت كل يوم إلا فى العاشرة مساء بعد يوم عمل طويل يبدأ فى الثامنة صباحا ، وأقنعته بعد جهد كبير بأن من حقه أن يلتقط الآن أنفاسه ويستريح بعض الشىء وتصبح له « حياة » وأوقات فراغ يستمتع بها كغيره من الآباء الطيبين واستجاب أبى لرجائى دامعا وداعيا لى بالسعادة فى الدنيا والآخرة واعتزل العمل المسائى الشاق بالفعل .

وفى أول كل شهر كنت أسلمه مرتبى كاملا وأترك له حرية التصرف فيه ، فيعيد إلى أكثر من نصفه لنفقات حياتى ويرفض

بإصرار أن يأخذ أكثر من ذلك وعشت بعد تخرجي وعملي استمتع باعتزازه بي وحديثه الطيب عني للجيران والمعارف ، أما أمي فقد كانت - وما زالت والحمد لله - نبعا للحب والحنان لي ولكل أبنائها وقد راقبت نجاحي في عملي بحب وثقة في أنني سوف أستطيع أن أحقق كل أحلامي في الحياة .

وبالفعل ، فلقد تفتحت أمامي أبواب الرزق على مصاريعها بفضل دعاء أبي وأمي وإخوتي الصغار لي ، وسافرت للعمل في مشروع تابع للشركة التي أعمل بها لعدة شهور في إحدى الدول المجاورة ، ورجعت منها بحصيلة طيبة من المدخرات وترقيت في عملي وازداد مرتبي وحوافزي منه ، كما ازداد دخلي الإضافي من عملي المسائي بأحد المكاتب الهندسية فغمرت أبي وأمي واخوتي بخيرات ربي التي أفاء بها علي وجددت أثاث بيتنا ودفعت مقدم شقة تمليك في أحد مشروعات الهيئة التي أعمل بها ، وأصبحت متعتي الكبرى أن اسأل اخوتي الصغار عما يحتاجون إليه واشتريه لهم مما لا يقدر أبي بمرتبه الحكومي على توفيره لهم كالأحذية الرياضية والساعات والكاميرات وأجهزة الكاسيت الصغيرة .. الخ .

ثم كنت ذات يوم مسافرا بالقطار إلى الإسكندرية فجاءت جلستي إلى جوار فتاة جميلة وجذابة الملامح وارستقراطية المظهر فتجاذبنا أطراف الحديث وانتهت الرحلة بتعارفنا وتبادلنا عناوين العمل وأرقام التليفون ، وكنت حينذاك في السادسة والعشرين من عمري ولم يسبق لي الارتباط بأي فتاة ، فانجذبت إلى هذه الفتاة بشدة ، وتكرر لقاؤنا ووجدتني بعد قليل غارقا في حبها ، وراغبا في الزواج منها لكن عقلي تساوره بعض المخاوف والشكوك تجاهها ، فالفتاة من وسط عائلي مختلف عن وسطي الأسري ومظهرها متحرر إلى حد كبير فذراعاها عاريتان وملابسها قصيرة .. وشخصيتها قوية وجريئة وعالمها مختلف عن عالمي ، لكن الحب كان أقوى من كل الهواجس ،

فظل قلبي يقربني منها وعقلي يبعدني عنها .. وبين حين وآخر تهملني هي وتتشاغل عني لفترة وأشعر بأن هناك ما تخفيه عني وأتعذب بالشك فيها والغيرة عليها ثم أواجهها بشكوكي فتعترف لي بأنها ارتبطت خلال فترة الانشغال بشاب آخر رشحته لها الأسرة وجاهز للزواج .. لكن التجربة اثبتت عدم قدرتها على التجاوب معه .. فرجعت إلى ! وتكرر ذلك خلال عام واحد ثلاث مرات ! وفي المرة الأخيرة حسمت كل هواجسي وقررت الزواج منها ، وصارحت أبي برغبتي فيها وبكل ظروفها فأبدى لي تخوفه من ألا أسعد معها لاختلاف الظروف والنشأة العائلية ، لكني صارحته بتمسكي بها فلم يملك إلا الموافقة ، وكان قد أحيل للمعاش وازداد اعتماده المادي على .. فتزوجت هذه الفتاة وأقمت معها في الشقة التي أدفع أقساطها ولاحظت من البداية تأففها من أبي وأمي ، وإخوتي بفتورها تجاههم وعدم رغبتها في زيارتهم أو مجيئهم عندي ، وأغضيت الطرف للأسف عن هذا الجانب السلبي وساعدني على ذلك أن أبي وأمي وأخوتي قد شعروا بفتورها تجاههم فلم يلحوا عليها بدعوتها إلى البيت أو زيارتها في بيتها . فنزل جدار من العزلة بينهم وبينها حتى لم يعودوا يزورونني نهائيا في بيتي وأنجبت من زوجتي طفلة جميلة ولاحظت للأسف إبعادها لهذه الطفلة عن أهلي وتقريبها من أهلها ، كما تغاضيت عن عصبيتها الزائدة معي ، وعنادها وتمسكها برغباتها إلى أن تتحقق ولو لم أكن راضيا عنها .. كما رضخت كذلك لرغبتها في عدم الإنجاب بعد هذه الطفلة بالرغم من أمنية أبي وأمي أن يريا لي ابنا من صلبي .. وانشغلت عما يضايقني منها بعملي الذي حققت فيه نجاحا كبيرا .. وباهتمامي بأبي وأمي واخوتي الذين أنهى بعضهم تعليمه وبدأ حياته العملية .. وبزواج أختي الوحيدة .. وسعادتها مع زوجها الشاب المكافح .. وادائي لواجبي معها في « السر » لأن زوجتي شديدة الحساسية تجاه أية مساعدة أقدمها لإخوتي وتتعمد

إرهاقى وتعجيزى بالطلبات المادية الترفية حين تستشعر إسهامى فى بعض شئون إخوتى ، لكن الحياة مضت بنا بالرغم من كل ذلك ، وظل حبها مشتعلا فى قلبى بالرغم مما أنكره عليها من تصرفات تجاه أهلى .. أو فيما يتعلق بمظهرها المتحرر وكثرة لجوئها إلى بيت أهلها وتركى وحيدا فى مسكن الزوجية لفترات طويلة لأن أعصابها متعبة وتحتاج للراحة إلى جانب كثرة صداقاتها وقضاء معظم الوقت فى الحديث بالتليفون والخروج إلى النادى ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع مع صديقاتها دونى .. الخ ...

وبعد ثمانى سنوات من إنجاب طفلتنا الوحيدة اتخذت زوجتى قرارا فرديا بأن تنجب لها أخا ، وأنجبنا بالفعل طفلنا الثانى وعقب إنجابها له ازدادت عصبية وتسلطا وتحكما .. وأصبح الشجار والخصام قاسما مشتركا فى حياتنا عند أى مناقشة أو بادرة اعتراض من جانبى على أى تصرف من تصرفاتها ، كما أصبح استنزافها المادى لى صارخا وسوء تصرفها الاقتصادى يبدد كل ما أجنيه من عملى الأساسى والإضافى رغم وفرته .. وكلما حاولت مناقشتها فى شىء من ذلك غضبت وهجرت مسكن الزوجية واصطحبت الطفل الصغير وابنتنا إلى بيت أهلها ولا ترجع إلا حين استرضيها وألبى لها مطالبها المادية التى لا تنتهى ، حتى لم أعد أعرف الاستقرار العائلى سوى لبضعة أسابيع طوال السنة .

ثم ازداد نزاعنا حول كثرة خروجها إلى النادى وإلى زيارات لصديقات لا أعرفهن خلال غيابى .. وصرخت هى وهددت وتوعدت وتدخل أهلها وبدلا من أن يعيدوها إلى رشدها ساندوها فى موقفها وبرروه لى بأنها قد اعتادت الحرية طوال حياتها .. ولم نتفق على رأى بهذا الشأن وظل موضع خلاف وصراع بيننا ينفجر من حين لآخر .

وجاءتنى فرصة للإشراف على مشروع للهيئة فى إحدى مدن

الجنوب البعيدة فرحبت بها لكى تبعدنى عن الجو المضطرب فى بيتى وأصبحت أقضى هناك ٢٥ يوما كل شهر وارجع لقضاء أسبوع مع اسرتى ، واستمر المشروع عامين لاحظت خلالهما ان ابنتى الوحيدة قد أصبحت تتدخل بينى وبين أمها فى كل نزاع يطرأ بيننا وتتخذ موقف الدفاع عنها والهجوم على دائما وعاتبت زوجتى فى اشراكها لابنتنا فى مشاكلنا ، فلم تهتم بعتابى وقالت لى أن البنت قد كبرت وأصبحت تفهم كل شىء ومن حقها أن تبدى رأيها فيما لا يعجبها من تصرفاتى ، أما حين سألتها ولماذا لا تبدى رأيها فيما لا يعجبها كذلك من تصرفات أمها فقد كانت اجابتها بالطبع أنها على حق دائما وأنا على خطأ باستمرار !

وضقت بكل شىء وأصبحت أتجنب أسباب النزاع والمشاكل معها خلال الأسبوع الذى أقضيه معها ، وكنت التمس الراحة والسلوى فى بيت أبى وأمى ، وكان من عادتى أن أتصل ببيتى خلال وجودى فى موقع المشروع كل يوم عدة مرات لأطمئن على أحوال زوجتى وابنى وابنتى ، وأتابع دراستهما فلاحظت أن التليفون قد بدأ يصبح مشغولا لفترات طويلة من المساء والليل ، كما لاحظت أننى كثيرا ما أتصل بزوجتى فى النهار وأول المساء فلا أجدها ، أو لا أجد أحدا نهائيا فى البيت ، وحين ترجع تقدم لى تبريرات غير مقنعة لخروجها .

ورجعت فى الإجازة فأثار شكوكى أنها حاولت على خلاف عادتها معى فى الشهور الأخيرة أن تحتوينى عاطفيا ، كأنما تريد أن تبعد عن ذهنى أى خاطر مريب ، كما لاحظت أنها كثيرة التهامس مع ابنتى ولا تجيب على التليفون أبدا فى حضورى على خلاف عادتها ، وتقوم ابنتى بالرد ثم تقول لى إن الرقم خطأ !

وربطت بين كل هذه الأشياء واتخذت القرار المؤلم وهو أن اعتذر عن عدم العودة لعملى لكى أراقب زوجتى التى بدأت الشكوك تساورنى فيها ، وحملت حقيبتى فى موعدى المقرر وغادرت البيت ،

لكنى لم أتجه إلى محطة القطار وإنما إلى فندق فى وسط المدينة ، وبدأت أراقب زوجتى فإذا بى اكتشف وجود رجل آخر فى حياتها ، وأنه يخرج مع زوجتى وابنتى التى بلغت من العمر ١٦ عاما وابنى ، وبعد تحريات مؤلمة اكتشفت أن زوجتى تقدمه لهما على أنه خالها العائد من الدول العربية بعد غياب ١٥ عاما ! وواجهت زوجتى بما عرفت وانفجرت فيها ضربا وركلا وخنقا حتى كادت تلفظ أنفاسها بين يدى .. ولم ينقذها منى سوى وقوف ابنتى على حافة النافذة وتهديدها لى وأنا فى قمة جنونى أنها ستلقى بنفسها منها إن لم أدع أمها .

ثم توالت الكوارث بعد ذلك وتدخل أهلها فتصادمت معهم صداما عنيفا ، ووصل الأمر إلى أقسام الشرطة والمستشفيات إلخ .. وبعد أسابيع من المنازعات طلقتها غير نادم عليها بعد أن نفدت آخر قطرة من حبى الكبير السابق لها ، واتفقنا بعد أهوال - لا أريد الإطالة عليك بها - على أن تبقى مع البنت والولد فى مسكن الزوجية وأن أدفع لها مبلغا كافيا لمتطلبات ابنى وابنتى ، على أن يكون لى حق زيارتهما فى البيت والاشراف على تربيتهما ودراستهما ..

وأجرت شقة صغيرة بالقانون الجديد فى موقع قريب من بيت ابنى وابنتى ونقلت إليها متعلقاتى وبعض الأثاث القليل ، وتكتمت عن أبى وأمى خبر طلاقى لزوجتى لكيلا أجدد أحزانهما ، ولم أبح به لأحد من أخوتى ربما خجلا من نفسى أو تخوفا من التنقيب عن أسبابه المشينة لى كرجل ..

وأديت التزاماتى تجاه ابنى وابنتى .. وانتظمت فى الاتصال بهما تليفونيا كل يوم والتأكد من تلقيهما الدروس المطلوبة واستذكار دروسهما وحاولت خلال ذلك إقناع ابنتى بالحياة معى لكى أحميها من مؤثرات شخصية أمها عليها فرفضت ذلك بإصرار عجيب وهددتنى بالانتحار إذا أرغمتها على ذلك ، وأصبح كل هاجسى هو

حماية ابنتى وولدى وإنقاذهما من الضياع ، فإذا رأيت ملابس ابنتى قصيرة نصحتها بعدم ارتدائها واشتريت لها ملابس طويلة كاسية لكنى بدلا من أن تساعدنى أمها على ذلك كانت تنفجر فى وجهى وتتهمنى بأننى معقد وسوف أعقد البنت فى حياتها ، كما عقدتها هى ، وشيئا فشيئا بدأت ألاحظ أن مشاعر ابنتى تجاهى قد أصبحت عدائية خاصة بعد أن اعترضت على كثرة خروجها وتأخرها فى العودة إلى البيت ! وفى كل زيارة لى لأسرتى يقع صدام جديد بينى وبينها لمثل هذا السبب ، إلى أن حدث ما دفعنى للكتابة إليك وأطار النوم من عينى خلال اليومين السابقين ، فلقد ذهبت للاطمئنان على الولد والبنت فى المساء فلم أجد ابنتى فى البيت وسألت أمها عنها فاختلقت أسبابا واضحة الكذب لغيابها .. فاتصلت بكل صديقاتها بحثا عنها دون جدوى وبحثت عنها فى النادى فلم أجدها وعدت للبيت وأصررت على الانتظار حتى تعود ورفضت كل محاولات أمها لاقناعى بالانصراف ، وأخيرا وعند منتصف الليل لمحت من الشرفة سيارة تقف أمام العمارة وتنزل منها ابنتى بنت السابعة عشرة .. وهى تتبادل الضحكات العالية والكلام مع قائد السيارة فهرولت فوق السلالم إلى أن لحقت بهما وفتحت باب السيارة وأخرجت منهاقائدها وهو شاب رقيع لا يزيد عمره على ١٨ أو ١٩ عاما وانهلت عليه ضربا .. وصرخت ابنتى وهرولت صاعدة إلي البيت ، فتركته وهرولت وراءها فإذا بها تغلق الباب وراءها وتعاونها أمها وترفض فتحه لى ، وصحت العمارة كلها علي الصراخ ، وتدخل الجيران لإقناع الأم بفتح الباب مع طمأنتها بأنني لن أفعل شيئا وأخيرا فتحته وما أن دخلت حتى فوجئت بآخر مشهد لا يود أن يراه أب فى حياته وهو مشهد ابنتى وأمها وهما واقفتان متنمرتان لى والأم تعلن لى بكل بجاحة أمام الجيران أنه لا شأن لى بها ولا بابنتى وأنهما ستطلبان الشرطة لحمايتهما منى . ونظرت إلى ابنتى التى طالما احببتها ودللتها ولبيت

لها كل مطالبها وأنا استجدى منها كلمة واحدة تنفي بها ما تقوله أمها على لسانها ، فصدمت صدمة شديدة بها وصوتها يعلو أمام الجيران ، ويؤكد كل ما قالته الأم المارقة لى وتصرخ أكثر من ذلك فى طالبة منى تركها وشأنها وعدم عودتى إلى هذا البيت مرة أخرى لأنها لا تريد أن ترى وجهى ثانية .. لا هى ولا أخوها الصغير كما قالت !

وانعقد لسانى من الصدمة وشعرت بانكسار شديد .. وسألتها مترددا .. ألا تريدين حقا أن ترى أباك مرة أخرى ؟

فأجابت : نعم لأننى قد كرهتك . وكرهت أمى وأخى وكل الناس من أجلك ، وابتلعت ريقى بصعوبة ثم سألتها بصوت خفيض : وكيف ستعيشين إذا لم تريدينى فى حياتك ، فقالت صارخة إن أهل أمها سيتكفلون بها وبأخيها وأمها ولم أشعر بنفسى إلا والدموع تنهمر كالمطر من عينى وأحد الجيران الواقفين ينهر هذه الابنة بشدة ويطلب منها الصمت مهددا إياها بأنه هو الذى سوف يضربها إذا نطقت بكلمة أخرى ، ثم يجذبنى من ذراعى طالبا منى الخروج معه .. واستجبت ليده وغادرت الشقة ودموعى لا تتوقف .. وأوصلنى الرجل إلى سيارتى وهو يعرض على أن يقودها بدلا منى وغادرت المكان وأنا لا أرى ما أمامى .

ورجعت إلى مسكنى الخالى فلم أنم لحظة واحدة ، ورقدت فى فراشى مريضا بلا مرض وتعلق أملى الخائب بأن تتصل بى ابنتى تليفونيا وتعتذر لى عما بدر منها وترجونى أن أسامحها وترجع إلى أحضانى من جديد ، فمضى النهار الثقيل دون أية كلمة أو إشارة منها ومضى اليوم الثانى كذلك وأنا عليل فى فراشى .. ولا شىء حولى سوى الصمت وذكريات الجحود والإنكسار والعار ، وطوال الوقت اسأل نفسى : ماذا جنيت يا ربى لكى يكون هذا هو عاقبة حبى لابنتى وابنى وخوفى عليهما من الضياع ؟

لقد كنت ومازلت ابنا بارا بأبويه .. فكيف تعاقبنى السماء بعقوق

الأبناء وأنا الابن الذى لم يعص أبويه وحريص دائما على إرضائهما .

إننى لا آكل ولا أنام ولا أذهب للعمل .. ولا أعرف كيف سأواجه الحياة بعد أن انكرتنى ابنتى ، وسكت ابنى الغلام فلم يندفع نحوى ليحتضنى ويقول لمن شهدوا هذه المأساة إننى أب حنون وعطوف على ابنائى ، وأنفق معظم دخلى عليهم .

إن قلبى ينازعنى لأن أذهب إلى ابنتى هذه وأحاول استعادتها إلى أحضانى مرة أخرى .. لكن خوفى من نفورها وكلماتها الجارحة يمنعنى ، إننى استطيع أن أفعل الكثير بالقانون واستطيع استعادة الشقة التمليك فى أى وقت وتقديم مسكنى الصغير الحالى لمطلقتى الحاضنة لابنى الصغير بديلا عنه كما استطيع أن أقبض يدى عن ابنائى إلا لضروريات الحياة .. لكنى لا أريد لهم أن ينزلوا عن مستوى معيشتهم السابق ولا أن يدفعوا ثمن خيانة أمهم ، وتنكرها لحبى السابق لها وقد انذرتها بأننى سوف استرد ابنى وابنتى إذا تزوجت ، فأكدت لى أنها لن تتزوج .. وأكدت لى أيضا لكى تزيدنى هما وغما أن ولدى لا يريدان لها الزواج لكيلا أستردهما منها !

إن زوجتى السابقة لا تعنينى الآن فى شىء .. فلقد نضب معين حبى السابق لها تماما .. لكنى حزين على ولدى .. فبماذا تنصحنى أن أفعل لكى اتجاوز إنكار ابنتى وابنى لى .. وأنسى ذكريات الموقف المؤلم الأخير لهما معى .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من مواقف الحياة ما يزيد من إيمان المرء بها ويحببه فيها ، ومنها على الناحية الأخرى ما يبغضها إليه ويزهده فيها ، والموقف المؤلم الأخير لابنتك الضالة هذه معك وإنكارها لك أمام الملأ ، من هذه المواقف التى يحق للمرء أن يحزن لها حتى النخاع، غير أن فهم حقائق الحياة قد يعين الإنسان على التخفف

قليلا من بعض من أساء لها ، وهذه الابنة الشاردة الجاحدة بالرغم من ادانتى بشدة لكل ما فعلت بحياتها وبك ، هى فى النهاية جانية وضحية فى الوقت نفسه ، فاما أنها جانية فيما تنكرت له وجحدته من حقك عليها كاب فى أن تمنعها من تكرار مثال أمها الفاسد والانصياع وراء أهوائها بلا رادع من دين ولا قيم اخلاقية ، وبما أرتكبته فى حقك من مواجهتك بالرفض والكراهية والإنكار ، وسوف تلقى إن لم ترجع عنه وتندم عليه جزاءها العادل عنه فى الدنيا والآخرة .

وأما أنها ضحية فى الوقت نفسه فلأنها قد نشات فى احضان أم لم ترع حدود الله فى حياتها وأبنائها وزوجها ولم تغرس فيها حب الأب واحترامه وطاعته والاعتراف له بحقه عليها فى توجيهها وحمايتها من أنواء الحياة . ولعلى لا اجاوز حدودى كثيرا إذا قلت لك أن شيئا من هذه المسئولية الجسيمة إنما يقع عليك كذلك ، باستسلامك الطويل السابق لإرادة أمها الذى لم يسهم فى غرس المفاهيم الصحيحة فى وجدان هذه الابنة منذ الصغر ، كتغاضيك المزمن عن مقاطعتها لأبويك واخوتك واهلك وإبعادها لولديك عنهم ، فضلا عن عصبيتها الزائدة وتسلطها المستمر ومظهرها وسلوكياتها المتحررة طوال رحلة العمر معها. ولا عجب في ذلك فلقد ادى تسامحك الدائم معها ابتداء من ارتباطها بغيرك ثلاث مرات قبل خطبتك لها ، إلى تسليمك لها بما لا ترضى عنه من سلوكيات طلبا للسلام العائلى معها ، إلى إيهام الابنة منذ الصغر بان الشخصية المؤثرة الحقيقية في حياتها ينبغي أن تكون هي شخصية الأم القوية المسيطرة وليست شخصية الأب التى لا تدور حولها فيما تراه وتلمسه حياة الأسرة ، وما يقوله علماء الاجتماع بشان طبائع الشعوب من تقليد الأمم الضعيفة للأمم القوية ، قد ينطبق احيانا على البشر

فيصبح سلوك الأقوياء فى مخيلة البعض هو القدوة التى ينبغى أن تحتذى مهما كان المثال خاطئا ومجافيا للحق والدين . وطريق التنازلات يبدأ دائما بخطوة واحدة .. تليها غالبا بقية الخطوات، ويخيل إلى أن بداية هذه المأساة المؤلمة فى حياتك كانت فى تغاضيك منذ البداية عن تحرر الفتاة التى اجتذبتك وعن عبثها المتكرر مع غيرك خلال فترة ارتباطك الأولية بها ، ولأن المقدمة الخاطئة لا تقود إلى نتيجة منطقية صحيحة .. فلقد كان ما حدث بعد ذلك فى حياتك من استسلامك لهذه السيدة بدافع الحب الطاغى لها والضعف الدائم معها نذيرا بكل ما شهدته حياتك من أخطاء مأساوية بلغت ذروتها فى جحود هذه الابنة الشريدة لك وإيلامها القاسى لمشاعرك كأب .

وإنى ليخيل إلى أن حبك الطاغى لها طوال ارتباطك بها لم يكن المسئول الأوحد عن ضعفك السابق معها ولا عن تنازلاتك المستمرة لها ، وإنما كان للشعور الغامض بالنقص تجاهها بسبب اختلاف المستوى العائلى والاجتماعى نصيب ، كذلك فى تراجعك المستمر أمامها حتى لم تعد تخشى شيئا من جانبك ولا تجد على تصرفاتها أى قيد .

غير أنى لا أريد أن أزيد من آلامك وأنت فى هذه المحنة القاسية، وإنما أحاول فقط أن أفسر لك بعض ما غمض عليك من معاناتك مع هذه السيدة ، لأن « من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه» كما قال الإمام ابن القيم الجوزيه .. ومن لا يتعلم من أخطائه لا أمل له فى النجاة من شدائد الحياة .

ثم أصل بعد ذلك إلى تساؤلاتك المؤلمة فى نهاية رسالتك وأقول لك أن الحكمة القديمة التى تقول إن من عق والديه عقه ولده ، هى قول سديد حقا ، لكنه ككل قاعدة لا تستعصى على الاستثناء ، وعقوق ابنتك وأنت البار بأبويك وإخوتك وأهلك ليس سوى هذا

الاستثناء المؤلم الذى أعانت عليه ظروف نشأة هذه الابنة الشاردة بين أم متسلطة قوية الشكيمة ومتحررة من قيود القيم الدينية والأخلاقية ، وأب مسالم يحاول قدر الجهد والطاقة تحجيم الآثار السلبية لقيم الأم المعنوية على أبنائها ، كما أن برك بأبويك وأهلك قد انعكس من الناحية الأخرى على جوانب مختلفة من حياتك كتوفيقك فى عملك وتحقيقك لكل أحلامك المادية خلال فترة زمنية قصيرة ، فإذا كنت قد حزنت لعقوق ابنتك لك وتعلقت بالأمل فى أن تأتى إليك نادمة ، فثق بأنها سوف تجىء بالفعل باكية ولكن ليس الآن وهى فى عنفوان مراهقتها وحمقها وجهلها وغرورها بنفسها وبالحياة ، وسيطرة قيم الأم الفاسدة عليها ، وإنما بعد أن تلقنها الحياة دروسها القاسية وتدرك بعد فوات الأوان أن كل ما يصيبها من عثرات الطريق هو الجزاء العادل لإنكارها لأبيها وخروجها على حدود ربها .

ولهذا فإنى أنصحك يا سيدى بألا تمتهن نفسك مع هذه الابنة الجاحدة وألا تستجدى مشاعرها الصخرية ، لأنه لن يرضيها شىء سوى أن تترك لها الحبل على غاربه لتفعل بحياتها ما تشاء متحررة من كل قيد ، وبشرط أن تدفع أنت إلى جانب ذلك فاتورة الحياة اللذيذة السهلة الخالية من كل القيود .. فهل أنت على استعداد لأن تكون هذا الأب الذى لا يسأل ابنته المراهقة عما تفعل.. ويكافئها على ذلك بالإغداق عليها وتلبية كل مطالبها ؟

إننى لا أنصحك بالتخلى عن مسئوليتك المادية عن ابنك وابنتك لأنك مسئول أمام الله بالرغم من كل شىء عن توفير أساسيات الحياة لهما .. وإنما أطالبك فقط بأن تكتفى - فى المرحلة الحالية وإلى أن تهدأ العاصفة - بتحمل نفقات حياتهما الأساسية على أن تربط بعد ذلك بين العطاء المادى الغامر لهما وخاصة بالنسبة لهذه الابنة .. وبين التزامهما بالطريق القويم

فى الحياة والقيم الدينية والاخلاقية التى ترجو لهما أن ينشأ فى ظلالها .. فمن استجاب فله العطاء الأوفى بلا حدود ومن تنكر فعلى نفسه ما فعل .

وفى هذا الشأن فإنى اتساءل : أين هؤلاء « الأهل » العظام الذين تدخلوا بينك وبين زوجتك السابقة من مسئوليتهم كذلك عن حماية ابنتك مما تمضى إليه من طريق الضياع بلا أى محاولة من أمها لتقويمها ، ولماذا لا يتدخلون هذه المرة الإلزام الحفيدة برعاية حدود ربها ، وطاعة أبيها واحترامها له .

يا سيدى اصبر وانتظر .. ولا تيأس من ممارسة دورك كأب فى رعاية ابنك وابنتك حتى يصلا إلى سن الرشد وشاطىء الأمان ، فلسوف يظلان فى حاجة إليك من الناحية المادية والنفسية والإنسانية مهما خيل لهذه الابنة الشريدة غير ذلك ، وما تهديها لك بأن أهل أمها سوف يتكفلون بها وبأخيها من الناحية المادية سوى قعقعة بلا طحن .. لا يصمد للواقع العملى طويلا ، كما أن هذه الابنة سوف تزداد احتياجا إليك مع مرور الأيام ، ومع مجىء الوقت الذى تتلفت فيه كل ابنة باحثة عن أبيها لكى يقوم بواجبه الأبوى والإنسانى معها ويضع يده فى يد من سوف ترتبط به ، ويتكفل بنفقات تكريمها وإعدادها للحياة الجديدة ..

فتماسك يا سيدى ولا تستسلم لضعفك الأبوى مع هذه الابنة الجاحدة إلى أن تجيئك ذات يوم قريب تتلمس السبل إليك وتحاول محو ذكرى تنكرها المؤلم لك .

فأما حزنك وهمك بتخلى أبنائك عنك فأرجو أن تعفى منه غلامك الصغير الذى لا يملك من أمر نفسه الآن شيئا ويفزعه كأى طفل فى مثل عمره أن ينتزع من بين أحضان أمه حتى ولو كان الحضن الآخر الذى ينتظره هو حضن أبيه العطوف ، واستعن على أحزانك بالصبر والأمل فى تعويض السماء لك ، وبقول من

لا ينطق عن الهوى ـ صلوات الله عليه ـ عن ابن مسعود ما معناه انه « ما أصاب عبدا هم أو حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانا فرحا ».

فاستعن بهذا الدعاء الكريم على امرك وحبذا لو فكرت بعد فترة من النقاهة النفسية المناسبة في أن تبدأ صفحة جديدة في حياتك ، ترتبط فيها بسيدة ترعى حدود الله في حياتها وتعينك على أمرك وتعوضك عما لقيت من أحزان .


صوت
من السماء
١٢
الحياة الجديدة

أنا شابة نشأت طفلة وحيدة لأبوين جمع بينهما العمل فى مكان واحد ، تزوجا وأنجبانى .. وشاءت ظروف والدتى الصحية بعد مولدى ألا يكون لى إخوة ، فعكف أبى على رعايتى وتعليمى وحين بلغت عامى الجامعى الأخير تقدم لخطبتى مهندس شاب يعمل بإحدى دول الخليج ، ولم أر فيه ما يعيبه فرحبت به ، ورجع خطيبى إلى عمله ومضى عام ثم عاد لإتمام الزفاف ، وسافرت معه إلى البلد الذى يعمل فيه وودعنى أبى وأمى اللذان لم أنفصل عنهما من قبل بالدموع الغزيرة ، ومضت الحياة بى فى بيت زوجى هادئة بعد عواصف البداية المتوقعة بسبب اختلاف الطباع ، وسلمت قيادى لزوجى باختيارى احتراما لنفسى بعد أن لمست فيه الصرامة فى كل شىء ، ومضت ثمانى سنوات أنجبت خلالها ثلاثة أطفال ولم أرجع لمصر سوى مرتين فقط وضعت فى الأولى مولودى الثانى ، وودعت فى الثانية أبى ـ رحمه الله وأثابه عنى خير الجزاء ـ فقد كان نهرا من الحنان فى حياة أسرتنا وكان يملؤها حبا ومزحا طوال الليل ، على عكس حياتى مع زوجى بعد ذلك ، وفى أحد الأيام منذ حوالى الستة انقلبت حياتى رأسا على عقب ، حين فوجئت بزملاء زوجى فى الغربة يطرقون علىّ الباب ويدخلون واجمين ليقول لى أحدهم وهو منكس الرأس : البقاء لله . فلقد رحل زوجى عن الحياة فجأة وبغير مرض ..

ولا أستطيع أن أصف لك ما مررت به فى هذه الفترة العصيبة من حياتى ، لكن زملاء زوجى أثابهم الله عنى قاموا بكل شىء .. وعدت إلى القاهرة ودخلت بيت الزوجية الذى لم أدخله من قبل ، حيث كنت فى إجازاتى السابقة أرجع من المطار إلى مدينة أمى ويبقى زوجى فى مسكن الزوجية بالقاهرة لتشطيبه وفرشه ، فدخلت مسكنى ومعى أمى وأطفالى ووالد زوجى الراحل ، لأقيم فى القاهرة التى لا أعرف أحدا فيها ، وبدأت حياتى كأرملة شابة فى الثلاثين من العمر وفى رقبتها ثلاثة أطفال صغراهم ما زالت رضيعة على ذراعى وساعدنى صهرى فى كل شىء خاصة فى إجراءات المجلس الحسبى لأن لأولادى ميراثا من أشقاء أبيهم ١٤ عاما فى الغربة ، وبعد انقضاء شهور العدة زارنى صهرى وطلب محادثتى على انفراد ، وقال لى إنه رجل واقعى ويعرف أننى لن أقضى بقية حياتى بلا زواج وأنا شابة وجميلة وما دام الأمر كذلك فإنه يطلب يدى لابنه الطبيب الشاب الذى يكبرنى بعامين فقط ، وشكرته على مشاعره وطلبت مهلة للتفكير فى الأمر ، وبعد تفكير عميق توصلت أنا وأمى إلى أن هذا هو الحل المثالى لمشكلتى خاصة أن عم الأبناء قد أغدق عليهم بحبه وحنانه حتى ذكرنى بأبى وما كان يشهده بيتنا القديم من مرح وسعادة ، وقبلت بالزواج منه ، وجاء المأذون فى هدوء وعقد قراننا ، وأخذت أمى الأطفال ليقيموا معها بعض الوقت فى بيتنا القديم ، ورجع زوجى الجديد بعد توصيلهم فسألنى أين أفضل أن ينام .. فى حجرة أمى أم حجرة الأولاد ، فأجبته بأن عليه أن يبيت فى حجرته هو أى فى غرفة نومى ، وتركنى بعض الوقت لأنفرد بنفسى ، وطال انتظارى له بلا جدوى وخرجت لأبحث عنه فوجدته مستغرقا فى النوم فى حجرة الأبناء .

فتقبلت حياتى الجديدة معه على هذا النحو نظرا للظروف المحيطة بنا ، ولاحظت بعد عودة أمى وأطفالى للحياة معنا أنه لا يتحدث معى

ولا ينطلق على سجيته إلا فى وجود أمى والأولاد فيضحك معهم ومعى ، أما فى غرفتنا فهو لا يتبادل معى سوى التحية والكلام الرسمى بغير أن ينظر أحدنا إلى الآخر وهو يتحدث إليه .

ورضيت عن حياتى بالرغم من ذلك ، لكنى فوجئت ذات يوم بعد ثلاثة شهور من الزواج بصهرى يطلب الانفراد بى ويهاجمنى بشدة ويتهمنى بأننى لا أرعى الله فى زوجى الجديد ، وأننى إذا استمررت على هذا الوضع مع ابنه فسوف يزوجه من أخرى ويحملنى المسئولية كاملة ، وفوجئت بما قاله صهرى ولم أتمالك دموعى لأنى لم أتعود الكلام فى مثل هذه الشئون الخاصة مع أحد ، واكتفيت بالصمت والبكاء فانصرف ، وانفردت بأمى فإذا بها هى الأخرى تهاجمنى وحاولت الدفاع عن نفسى ، فطلبت منى أن أحاول الكلام مع زوجى ولو لمرة واحدة حول حياتنا واستمرارها على هذا النحو ، لأنه حرام شرعا أن تظل هكذا .

وانتظرت زوجى حتى رجع من عمله فى المساء وسألته حين انفردت به عما إذا كان قد شكانى لأبيه فلم يجب ، وسألته ما هو خطئى معه بالتحديد لكى أعالجه .. هل هو قبولى الزواج منه دون أن أتأكد من أن هذا الزواج يعكس رغبته الشخصية وليس رغبة أبيه وحده ، أم ترى أن خطئى هو أننى لا أحاول الحديث معه عن نفسى وعنه بالرغم من أنه هو أيضا لا يحاول ذلك ؟ وبكيت وأنا أقول له إننى لم أرفض أن أكون زوجة كاملة له لكنه هو الذى لم يحاول أن يتعامل معى على هذا الأساس .. فلماذا إذن يهتك سرى لأبيه ؟ ولم يجب زوجى بكلمة وغادر الغرفة ونام مع الأطفال ، وفى الصباح جاء إلىّ معتذرا بكلمة واحدة فقط هى « آسف » ثم خرج لعمله .. ومشت الأيام بعدها وهو لا يتحدث معى نهائيا .

إننى لا أدرى يا سيدى ماذا أفعل ، وأؤمن بما قاله لى صهرى بأن حياتى الجديدة هذه فرصة لن أستطيع تعويضها إذا فقدتها لأن

زوجي حنون للغاية على أطفالى وأمين على مصالحهم وهم يحبونه ويتقبلونه حتى أن مولودتى الرضيعة تنام فى حضنه إذا عجزنا عن تهيئتها للنوم ، لكنى عاجزة من ناحية أخرى عن مبادرته بما يطلبونه منى لأننى ببساطة لم أتعلم ذلك ، ولأن هذا الشأن إذا كان فطرة فى المرأة ، فإن عدم استخدام هذه الفطرة لفترة طويلة خاصة فى ظروفى الجديدة يحيل هذه الفطرة إلى التقاعد فهل ما توصلت إليه صحيح وهو أن زوجى لديه الحرج نفسه الذى استشعره تجاهه لكن إلحاح أبيه عليه بأن يكون له حفيد منه قد دفعه لاتهامى بالمسئولية عن عدم تحقق هذا الأمل ؟

وهل هو يريدنى حقا أم أنه قد اختلق هذه المشكلة لكى يبرر لأبيه انفصاله عني بعد أن يكون قد أرضاه بقبول الزواج منى فى البداية ؟ إننى لا أعرف أى شىء عن حياته قبل الارتباط بى وربما كانت هناك من اتفق معها على الزواج قبلى ، وهو لا يتكلم وصمته الدائم يثير جنونى ولا يدع لى الفرصة لمبادرته بالكلام فأرجو أن تنصحنى بما أفعل لإنقاذ هذا الزواج من الانهيار لأنه لم يعد لى أب ينصحنى وأثق فى رأيه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا افضل التفتيش فى الضمائر او الحكم على نيات الآخرين بلا بينة .. لكننا لو اخذنا بظاهر الأمور فلقد التمس لك بعض العذر فى تصورك ان زوجك قد قبل الزواج منك تحت ضغط ابيه للمبررات العائلية والإنسانية المالوفة فى مثل هذه الظروف وهى رعاية ابناء الأخ الراحل وحمايتهم من الحياة مع زوج آخر للأم او من حرمانهم من الأم وتشتتهم بين بيت جدتهم وبيت امهم إذا هى تزوجت رجلا آخر ، لكن الشقيق الذى قبل بهذه التضحية من اجل ابناء اخيه هو على الناحية الأخرى شاب له حياته الخاصة وآماله الشخصية واختياراته المختلفة فوجد نفسه حائرا بين

تلبية نداء الأب وفاء للآخ الراحل ، وبين نداء الحرية فى اختيار شريكة حياته فاثر حلا للمشكلة أن يقبل بالزواج بارملة شقيقه على أن يحتفظ لنفسه فى الوقت ذاته بحق الرجعة عنه وبعد أن يكون قد أرضى ضميره الشخصى أولا واباه ثانيا بقبول المحاولة.. فيحق له بعد اقتناع الآخرين بفشلها ، أن يختار لحياته ويمضى بها فى الاتجاه الذى يفضله ، وهو احتمال قائم بالفعل يا سيدتى قد يرجحه لديك انفجار مشكلة العلاقة الخاصة بينكما بعد ثلاثة شهور فقط على الزواج وإشراك والد زوجك فيها على هذا النحو غير المألوف فى أوساطنا العائلية .

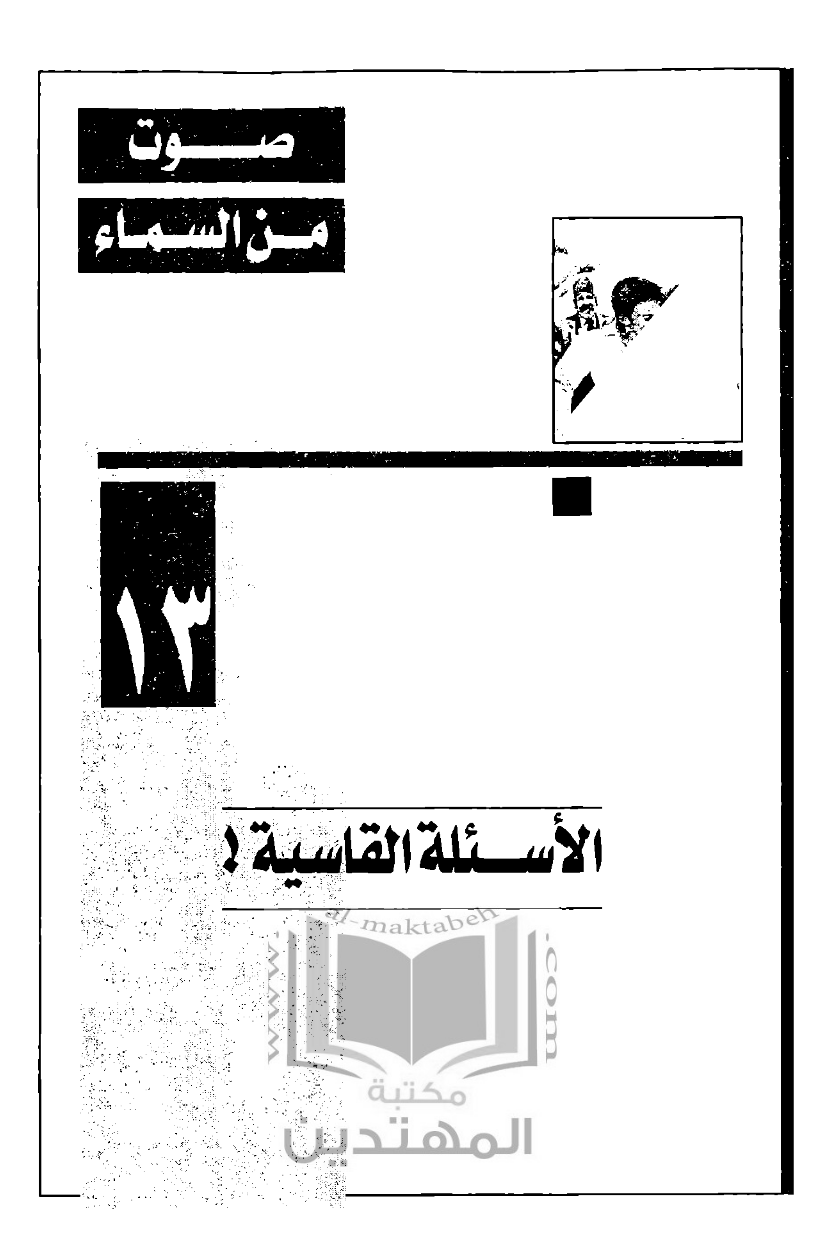
لكننا كما قلت لا نستطيع أن نرجم بالغيب أو أن نحاسب الآخرين عما يضمرونه لنا فى أعماقهم .. وإنما نملك فقط أن نحكم عليهم من أعمالهم وتصرفاتهم معنا .. فإذا سلمنا بذلك فلعلى أقول لك ، إن حرج الظروف الإنسانية الذى يحيط بزواجكما منذ البداية ، قد يكون تفسيرا مقبولا لعدم اقتراب كل منكما من الآخر على النحو المامول خلال هذه الفترة القصيرة ، والحق أن مثل هذا الزواج الذى تمليه على البعض الضرورة العائلية والإنسانية ، هو فى النهاية زواج خال من الاختيار الحر والمشاعر العاطفية ، وهو أقرب لأن يكون شبيها بزواج المصلحة ، مع الفارق الكبير فى نوعها لأنها فى مثل هذه الظروف تكون مصلحة إنسانية وعائلية أكثر منها مصلحة مادية .

والشركاء فى مثل هذا الزواج لابد لهم أن يكونوا أكثر واقعية فى التعامل معه ، وأكثر استعدادا لمغالبة النفس على الاقتناع به، والصبر عليه إلى أن يتخلص من الظلال المأساوية به وتوفير كل السبل الضرورية لإنجاحه واستمراره ، ما داموا قد قبلوا به ورغبوا فيه لأسبابهم الملحة .

ولست أريد فى الحقيقة أن أشارك صهرك ووالدتك لومهما لك

او اتهامك بالمسئولية عن جمود العلاقة بينك وبين زوجك ، كما اننى لا أتصور أيضا أن أطالبك باية « مبادرة » من جانبك فى هذا الشأن شديد الخصوصية ، لأن المبادرة فيه بحكم النشأة المحافظة والأعراف والتقاليد ينبغى ان تكون لزوجك وليست لك ، وإنما اريد فقط ان أطالبك بإعطاء الإشارة لزوجك بأنك ترحبين به حين ينجح فى مغالبة حرجه الإنسانى ويتخلص من شبح ذكرى شقيقه الذى قد يقف الآن حائلا بينك وبينه وفى هذا الشأن فلقد أقول لك إن أوقاتا ثمينة من العمر قد تضيع فى الكبرياء والخجل.. وانتظار الخطوة الأولى من الطرف الآخر وأنت على أية حال مطالبة على الأقل « باختبار » نيات زوجك الحقيقية تجاهك لكيلا يظلمك أحد إذا كان بالفعل يضمر فى أعماقه الرجوع عن هذا الزواج والتظاهر امام أبيه بأنه قد حاول بإخلاص إنجاحه لكنك رفضت مساعدته على ذلك ، وللمرأة فنونها الفطرية فى إعطاء مثل هذه الإشارة الضمنية بغير أن يتعارض ذلك مع كبريائها وحيائها وتحفظها الذى نشأت عليه .. ولا شك فى أن كلا منكما لابد أن يقتنع داخليا أولا بهذا الزواج لكى ينطلق من إقتناعه بضرورته إلى محاولة الحفاظ عليه وحمايته من الانهيار ، وأنت يا سيدتى قد تكون مصلحتك العائلية والإنسانية فى استمرار هذا الزواج أعمق وأكبر من مبررات زوجك للإقدام عليه .. وعلى قدر الحرص على الأشياء يكون الجهد المبذول للحفاظ عليها وحمايتها من الضياع ، فشجعى زوجك على الاقتراب إنسانيا منك وليس عائليا فقط .. وحاولى التعرف عليه وعلى شخصيته الحقيقية وآماله فى الحياة وأفكاره ، وساعديه أنت أيضا على التعرف عليك وعلى أفكارك وسمات شخصيتك لكى تنشأ بينكما أولا العلاقة الإنسانية التى ترشحكما لفهم كل منكما للآخر واكتشاف شخصيته ، وبالتالى تعاملى معه كشريك كامل للحياة

فإذا واصل زوجك الابتعاد والنفور والصمت بعد كل ذلك ، يصبح من حقك حينئذ الاقتناع بفكرة قبوله الزواج مؤقتا منك لإرضاء أبيه .. ويحق لك في هذه الحالة أن تدافعي عن نفسك أمام الجميع بانك كنت ضحية لمحاولة ابن لإرضاء أبيه على حساب مشاعرك وكرامتك الإنسانية وظروفك المؤلمة .. ولم تكوني الجانية ولا المسئولة عن انهيار مثل هذا الزواج .. والله معك .



صوت
من السماء
١٣
الأسئلة القاسية !

أكتب إليك بعد أن ضاقت بى الدنيا وأغلقت فى وجهى كل الأبواب ، فأنا سيدة فى الثلاثين من عمرى ، شاءت لى أقدارى أن أتزوج وأنا فى التاسعة عشرة ، من قريب لى مهاجر إلى كندا ويعمل هناك . وقد تزوجته فى مصر وسافرت معه إلى مهجره ، فوجدتنى وأنا فتاة صغيرة قليلة التجربة فى مجتمع غريب أعانى من ضغوط الغربة وافتقادى أهلى وبلدى ، فلم تطل عشرتى له أكثر من شهرين رجعت بعدهما إلى مصر وأنا أحمل فى أحشائى ثمرة هذه العشرة القصيرة ، وبعد أشهر من عودتى وضعت جنينى فكان طفلا جميلا ولد فى غيبة أبيه ولم أر زوجى منذ عودتى من المهجر إلا مرة واحدة بعد تسعة أشهر من مولد طفلى ، وفشلت محاولات التوفيق بينى وبين زوجى وأسهم أهله فى ذلك بالقدر الأكبر ، وظللت زوجة معلقة نحو خمس سنوات ثم حصلت على الطلاق .. وطويت هذه الصفحة من حياتى بخيرها وشرها ، واحتضنت طفلى ، وحاولت تعويضه عما ينقصه من رعاية الأب ، وبعد فترة أخرى تزوجت من إنسان طيب ، ظروفه مشابهة لظروفى وله ابن من زواج سابق يعيش مع والدته ، وبدأت حياتى الزوجية الحقيقية معه ، وأقام ابنى من زواجى السابق معى ، يتمتع بحنانى ورعاية زوجى الذى يعطف عليه ويرى فيه صورة ابنه .

ولقد مضت السنوات هادئة وسعيدة حتى ظننت أننى قد نسيت أحزان الماضى ، لولا شىء واحد هو طفلى من الزواج الأول القصير ! فلقد علم ابنى عن طريق أهل أبيه أن له أبا على قيد الحياة لكنه لا يتصل به ولا يسأل عنه ولا يحاول رؤيته ، فراح يسألنى كثيرا عنه.. ويلح علىّ بالأسئلة القاسية من نوع : لماذا لا يهتم بأمره ؟.. ولماذا لا يتصل به تليفونيا ولو مرة واحدة فى عيد ميلاده كل سنة ؟ وهل هو يكرهه ولهذا فلا يهتم به ولا يسأل عنه ؟ وإذا كان يكرهه فكيف كرهه وهو لم يره إلا وهو وليد صغير ولم يعرف إذا كان ولدا طيبا أم سيئا ، ولماذا يسأل كل الآباء عن أبنائهم من أصدقائه حتى وهم على سفر ولا يسأل عنه أبوه أبدا ، إلى غير ذلك من الأسئلة القاسية التى لا أعرف كيف أجيب عنها ولا كيف اطمئن خواطره بإجاباتى المفتعلة عليها .

وبعد أن كان هذا الطفل كالزهرة المتفتحة ويتفجر بالصحة والعافية ، بدأ يذبل ويشحب حتى طفت به على الأطباء والاخصائيين النفسيين لعلاجه دون جدوى ، ولسوف تسألنى بالضرورة ولماذا لم تلجئى إلى أهل زوجك السابق وتطلبى منهم مساعدة طفلك فى الاتصال بأبيه لكى تنشأ بينهما العلاقة الطبيعية بين الأب وابنه ؟ وأجيبك على هذا السؤال بأن صفحات الرسائل كلها لا تكفى لكى أروى لك ماذا فعل هؤلاء الأهل ، وهم كما قلت لك سابقا من الأقارب لكى يقطعوا كل صلة بين طفلى وأبيه ، على الرغم من تأكيدى للجميع أننى لا أريد من وراء هذه الصلة أن يتحمل الأب أية مسئولية مادية عن ابنه ، ولا أريد شيئا سوى أن يشعر طفلى الذى يبلغ من العمر الآن تسع سنوات بأنه إنسان طبيعى له أب يهتم بأمره ويسأل عنه كغيره من الأبناء .

ولقد فشلت كل المحاولات للاتصال بهذا الأب ، فلقد غير محل إقامته وعنوانه بعد أن تزوج من أجنبية وأهله فى مصر يعتبرون

عنوانه سرا حربيا لا يبوحون به لأحد مهما ضغط عليهم وناشدهم .

ولقد كتبت منذ شهور إلى السفارة المصرية فى كندا وإلى القنصلية المصرية هناك ، بل وإلى مالك العمارة التى كنت أقيم بها مع زوجى الأول ، على أمل التوصل إلى عنوان هذا الأب .. بلا جدوى .

فهل تستطيع مساعدتى فى التوصل إلى هذا الأب ومخاطبة أبوته وحثه على انقاذ ابنه مما يعانيه بالاتصال تليفونيا به ولو مرة كل بضعة أشهر أو إرسال بطاقة بريد له تشعره بأهميته لدى أبيه ؟

إننى أرجو أن تجد لى حلا لهذه المشكلة حتى لا يضيع ابنى من يدى ، ومستعدة لتقديم كل الضمانات الكافية لعدم مطالبة زوجى السابق بأية أعباء مادية عن طفلى .. ولا عن الماضى ولا فى المستقبل .. لأن كل ما يهمنى هو سلامة ابنى النفسية وليس أى شىء آخر .. فهل هناك أمل فى ذلك ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

مازلت برغم خبرة السنين وكثرة ما شهدته وتعاملت معه من مشكلات البشر وأحوالهم العجيبة ، عاجزا حتى الآن عن تصور كيف يمكن أن تهنأ الحياة لإنسان يعلم أن له فى مكان ما من الأرض طفلا لا يعرفه ولا يراه ولا يحاول الاتصال به والاطمئنان عليه ، ناهيك عن تحمل مسئوليته المادية والتربوية والإنسانية !

فإذا كانت قلوب بعض الآباء على هذه الشاكلة .. فكيف يحق لنا أن نقول عن الإنسان انه أرقى الكائنات الحية .. وفى دنيا الأعاجم من الحيوانات من تمرض حتى الموت إذا انتزعت صغارها منها ، أو حيل بينها وبين هؤلاء الصغار ؟

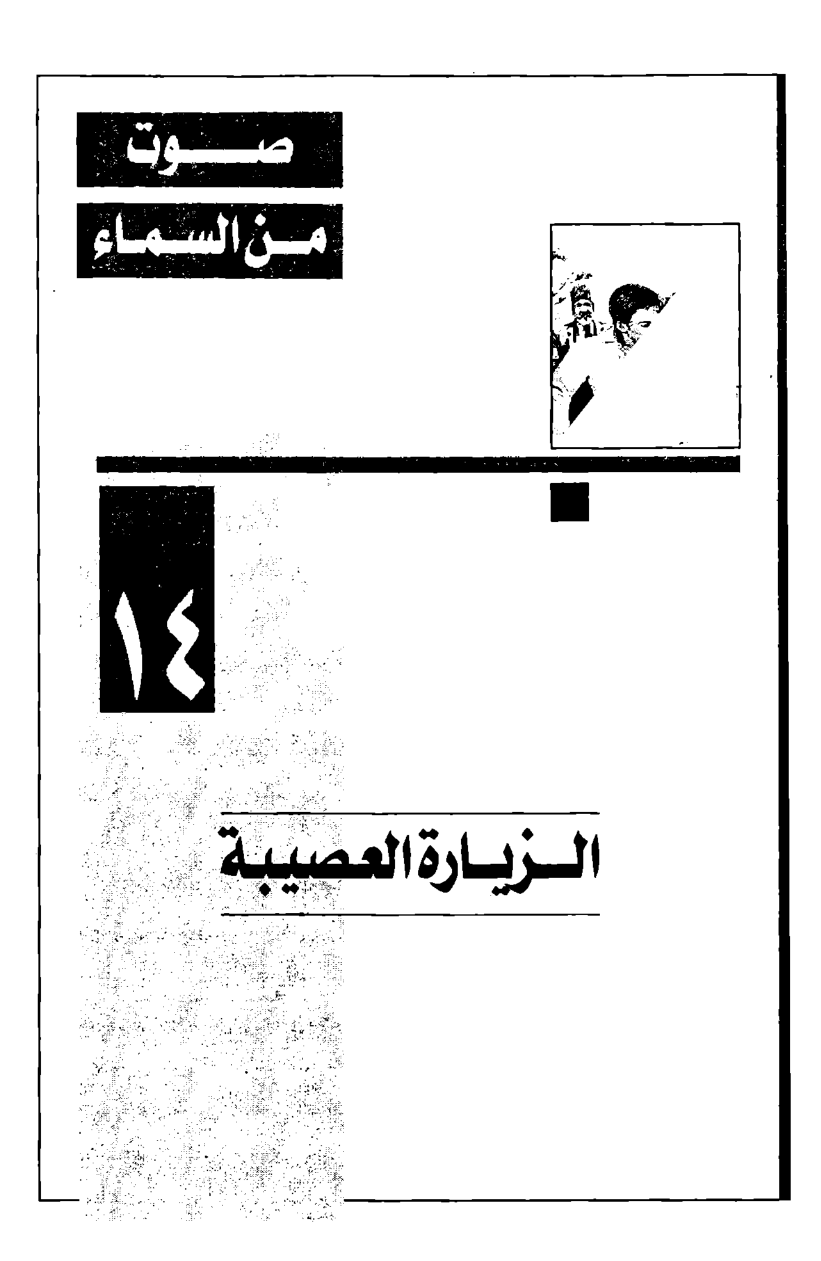
وكيف تكون الوسيلة المقبولة لإغراء مثل هذا الأب اللاهى بالاتصال بابنه هى تقديم « الضمانات » له بأن أحدا لن يطالبه بتحمل مسئوليته المادية عنه فى الماضى أو المستقبل ، وبعض الآباء الأسوياء يشعرون فى أعماقهم بشىء من الحزن الغامض

غير المفهوم ، كلما كبر أبناؤهم وازداد اعتمادهم على أنفسهم وقلت حاجتهم المادية والمعنوية إلى آبائهم ؟ إن تبعات الأبوة مسئولية دينية أخلاقية لا يستحق من يتقاعس عن تحملها أدنى درجة من الاحترام الإنسانى فما بالنا حين تتضاءل هذه التبعات فى حالة زوجك السابق إلى أدنى حدودها ، فتصبح مجرد إشعار طفله البرىء بأن له أبا كغيره من الأطفال يهتم بأمره ولو عن بعد.. ويقتطع من وقته الثمين بضع دقائق كل شهور ليتصل به تليفونيا أو يكتب له بطاقة بريدية ؟

لقد قرأت ذات يوم قصة روسية قصيرة تركت فى نفسى أثرا لم يمح منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكانت عن طفل مات أبوه ويعيش مع أمه .. ويؤرقه هذا السؤال القاسى : لماذا لا يكون له أب كغيره من الأطفال ينتظره أمام المدرسة ، و « يأمره » بالمحافظة على نظافة ملابسه ، ويشترى له الهدايا الصغيرة ويتأكد من دخوله فراشه فى الموعد المحدد للنوم ، كما يفعل آباء الأصدقاء ، واشتد حنينه إلى وجود مثل هذا الأب فى حياته ، فرأى فى واجهة أحد المحال التجارية ذات يوم « مانيكان » على هيئة رجل يعرض بدلة للرجال ، فدخل إلى المحل وسأل البائع هذا السؤال القاسى : كم يتكلف « شراء رجل » كهذا الرجل الوسيم المعروض فى واجهة المحل ؟

ولقد قلت مرارا أن فى أعماق الأطفال الصغار « بوصلة » غامضة يتجه مؤشرها تلقائيا إلى الآباء والأمهات الذين تحول ظروف الأيام بينهم وبين الحياة مع الأبناء تحت سقف واحد ، وأن كل ما قد يتوافر لهم من حنان الآباء البدلاء والأمهات البديلات قد لا يحول فى بعض الأحيان بين مؤشر هذه البوصلة وبين الاتجاه إلى الآباء والأمهات الحقيقيين تتلمس دفء التواصل الإنسانى معهم ولو على البعد ، فكيف يتعامى بعض

الآباء والأمهات عن مثل هذا النداء المحروم ، وكيف تطيب لهم الحياة وأبناؤهم البعيدون عنهم ينطوون لهم على مثل هذه المرارة التى يستشعرها طفلك تجاه أبيه ؟ إننى سابذل كل جهدى يا سيدتى لمحاولة التوصل إلى مقر إقامة والد طفلك فى كندا ، وحثه على تحمل تبعات أبوته الإنسانية تجاه ابنه ، ولسوف أؤكد له إذا وفقنى الله سبحانه وتعالى فى ذلك أن أول من سوف ينكر عليه هذا التجاهل اللاإنسانى لطفله فى مصر ، هو زوجته الأجنبية التى تشاركه الآن حياته ، وأبناؤه منها .. ولسوف استعين على ذلك بقراء بريد الجمعة من المصريين المقيمين فى كندا .. وأرجو أن تنجح جهودهم التطوعية فى الاهتداء إلى هذا الأب وتذكيره بواجبه الإنسانى تجاه طفله .. والله المستعان على كل أمر عسير .


صوت
من السماء
١٤
الزيارة العصيبة

أنا شاب من أسرة متدينة نشأنا أبى على القيم الدينية والأخلاقية ، وشجعنا على التفوق فى دراستنا ، وصنع مستقبلنا بكفاحنا وعرقنا .. ولقد حققت لأبى أمنيته وتفوقت فى مراحل دراستى ، وتخرجت فى كليتى متفوقا ، وشعرت بالرضا عن نفسى وعن كفاحى وعن عملى ، ثم التقيت ذات يوم بفتاة أعجبت بجمالها ورشاقتها وقوامها فطلبت منها موعدا لزيارة أسرتها والتقدم لخطبتها ، وتحدد الموعد وأنا لا أعلم شيئا عن ظروفها العائلية والاجتماعية وهى لا تعرف شيئا عن ظروفى ، وذهبت فى الموعد وحدى دون أهلى لأتعرف أولا على الأسرة وأتيح لها فرصة التعرف بى ، وبعد ذلك اصطحب عائلتى معى للزيارة فى المرة التالية ..

وبعد التحيات والمجاملات المعتادة فى مثل هذه الزيارة قمت بتقديم نفسى فذكرت اسمى وسنى وعنوانى ثم كانت الطامة الكبرى هى عملى إذا ما أن تجرأت وأشرت إلى وظيفتى التى ظننت أنها ترفع من قدرى وتشرفنى ، خاصة أننى شاب من أسرة مكافحة ولا أملك سوى مرتبى الذى اقتطع منه جزءا لمساعدة أسرتى ، أقول لك إننى ما إن تجرأت وأشرت إلى هذه الوظيفة .. وهى أننى أعمل معيدا بكلية جامعية حتى انقلب جو الجلسة وفوجئت بوالدة الفتاة تمصمص شفاهها وتقول لى وكأنها قد وضعت يدها على جسم الجريمة : بتاع

كتب يعنى ؟! فى حين تنهدت فتاتى تنهيدة لم أفهم معناها ، أما الأب فلقد ألقى علىّ نظرة فاحصة ثم سألنى : كم مرتبك ؟

فأجبته على سؤاله وشفعت إجابتى بحديث قصير عن الشىء الأهم فى الزواج وهو العشرة الطيبة والمعاملة الحسنة وكيف أننى أعرف ربى جيدا والحمد لله ، وأصلى وأصوم وسوف أتقى الله فى زوجتى ، فقطعت علىّ والدة الفتاة حديثى بتذكيرى بالمثل القديم الذى يقول إن الرجل لا يعيبه شىء سوى جيبه ! وارتج علىّ الأمر وابتلعت ريقى وأنا أحاول أن أتلمس الإجابة المرضية للأم ، فإذا بالأب يسألنى: هل عندك شقة ؟ فشغلنى السؤال الجديد عن مثل الأم القديم وأجبته بأننى لا أملك شقة فى الوقت الحالى لكنى أتعشم خيرا بإذن الله وآمل أن أجد شقة مناسبة بإيجار معقول ، أو أن أتقدم بقسيمة الزواج لأحد مشروعات الإسكان التى تقيمها الدولة للشباب والتى تشترط الزواج الحديث للحصول على شقتها ، وذكرت الأب بأننى قد جئت للتعرف على الأسرة بهدف التمهيد لخطبة ابنته وليس للزواج منها فى الحال ، وبالتالى فإن الفرصة سوف تكون متاحة لنا للبحث عن شقة مناسبة بإذن الله ، فما أن قلت ذلك حتى أجابنى الأب بأن الزواج : شقة وجهاز .. وأن الأفضل لى ما دمت لا أملك شيئا من ذلك هو أن أواصل طريق العلم فى الجامعة التى أعمل بها ..

ثم اختتم حديثه بالعبارة القاطعة التى أعلنت نهاية الزيارة فى حسم وهى : آنست وشرفت !

فعقد الخذلان لسانى وخرجت إلى الشارع ذاهلا وسرت على غير هدى وأنا استرجع وقائع هذه الزيارة العصيبة التى لم تستغرق سوى بضع دقائق ، وأستعيد ذكريات ليالى السهر الطويلة فى المذاكرة والدراسة حتى تفوقت وعينت معيدا بالجامعة . وأسأل نفسى أكان تفوقى وعملى بالجامعة جريرة أعاقب عليها بالرفض والخذلان ، أم هو شىء ينبغى لى أن أفخر به ، وأتوقع التقدير والاحترام له ؟ لقد

كان أبى يا سيدى وأقسم لك على ذلك مديرا للإسكان بإحدى محافظات القاهرة الكبرى لكنه كان رجلا نزيها طاهر اليد ، فرفض أن يتحايل على القانون وييسر لى الحصول على شقة فى محافظته ، ولقد ربانا على النفور من الحرام ، والقناعة والقيم الدينية .

ولست أكتب لك رسالتى هذه لكى أعتب على أبى فى نزاهته وطهارة يده اللتين وضعتانى فى هذا الموقف المحرج أمام أسرة فتاتى ، فالحق أننى أفخر به فى أعماقى وأدعو له الله سبحانه وتعالى بأن يجزيه من إخلاصه فى عمله وتمسكه بتعاليم دينه فى حياته خير الجزاء ، لكننى كتبتها لك لكى أحذر كل شاب « غلبان » مثلى من أن يتجرأ ويقدم على ما أقدمت عليه من حماقة حتى لا يصدم فى واقعه وأحلامه وأخلاقه ومبادئه وقيمه وحبه لمن يحب ..

فلقد صدمت أنا فى كل ذلك لكنى على أية حال لم أيأس وأثق فى أننى سوف أجد ذات يوم قريب من تقدر لى تفوقى وكفاحى وأخلاقياتى وترضى بفقرى ولا تراه عيبا فىّ .

وأخيرا فلقد كتبتها لكى يجد أولياء أمورنا حلا لهذه المعضلة الجديدة ، فالدولة تشترط الزواج لكى يحصل شاب مثلى على شقة من مساكن الشباب ، وأسرة العروس تشترط الشقة لكى توافق على الزواج ، فماذا يفعل أمثالى من الشباب وهل رجعنا مرة أخرى إلى معضلة البيضة والدجاجة أيهما أقدم فى الوجود ؟ إننى أشكرك على قراءتك لهذه الرسالة وأرجو منك النصحية .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لى ثمة نصيحة تقال لشاب أمين ومتدين ومتفوق دراسيا وأخلاقيا مثلك سوى ما قاله الفيلسوف الألمانى « كانط » ذات يوم فى موقف مشابه وهو : كن كاملاً فى عالم ناقص يكمل العالم تدريجيا على مر الزمن !

بمعنى أن افتقاد الإنسان المكافح والملتزم أخلاقيا ودينيا ،

للتقدير فى الوسط المحيط به لفترة من الزمن لا ينبغى له ان يهز قيمه ومثالياته ولا ان يؤثر على ثقته بنفسه وبجدارته لأن يحقق كل ما يستحقه من أهداف الحياة فى الوقت المناسب ، وإنما عليه ان يمضى فى الحياة متمسكا بقيمه ومثالياته ومؤمنا فى الوقت نفسه أن مجرد وجوده وامثاله فى الحياة يفيدها ويزيد من مساحة الخير والحق فيها تدريجيا ويقلل من مساحة القبح وفساد القيم والمفارقات المؤلمة فى محيطها .

ولقد ذكرت فى بداية رسالتك انك قد التقيت ذات يوم بفتاة اعجبك « جمالها ورشاقتها وقوامها » فتقدمت لأسرتها طالبا يدها . وكل المؤهلات التى اثارت إعجابك بهذه الفتاة ودفعتك للتطلع إلى الارتباط بها كما ترى مؤهلات ظاهرية تتعلق بالشكل الخارجى للفتاة ، وليس بشخصيتها أو تفكيرها أو القيم السائدة فى محيطها العائلى ، فإذا كان الشكل الخارجى يصلح فى بعض الأحيان لأن يكون عامل الجذب المبدئى الذى يدفع شابا للارتباط بفتاة ، فإن ما يؤدم بينهما ويحول هذا الانجذاب السطحى إلى رباط يجمع بينهما ويرشحهما للحياة معا ، هو تقارب رؤية كل منهما للحياة وتوافق نظرتهما إلى الأشياء الأولى بالاعتبار فى حياتهما .. وتماثل القيم السائدة فى المحيط العائلى لكل منهما .

ولقد التقيت بفتاة تختلف نظرتها ونظرة أسرتها إلى الزواج عن نظرتك أنت إليه وتختلف القيم السائدة فى محيطها العائلى عن القيم السائدة فى وسطك الأسرى ، فلا عجب إذن فى أن تفترق بكما السبل من الزيارة الأولى . لكن ذلك لا يعنى أبدا أنك لن تجد على الناحية الأخرى من تتفق رؤاهم للحياة مع رؤيتك ، أو أنك لن تجد من يعملون فى حياتهم الخاصة بهدى قيمهم الدينية ويرحبون بمن « يرضون دينه وخلقه » ، ولو لم يكن ثريا « وإلا

تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » كما حذرنا من ذلك الهادى البشير صلوات الله وسلامه عليه .

وبالرغم مما تعكسه رسالتك من مؤشرات مخيفة عن تراجع شرف العلم والأخلاق والدين والأصل العائلى الكريم بالمقارنة بشرف المال والقيم المادية عند الاختيار لدى بعض الأسر ـ فلقد قلت مراراً أن ذلك لا يعنى ابداً إعلاء القيم المادية على بقية القيم الأخلاقية والدينية والعائلية لدى الأغلبية العظمى من الأسر ، واكدت مراراً أن من الأسر الفاضلة وهى كثيرة والحمد لله من لا تعدل بهذه القيم العليا أية قيم مادية مهما بلغ شانها لدى الغير .

ولهذا فلقد عجبت اشد العجب من أن تكون النقطة الفاصلة فى حديثك إلى هذه الأسرة خلال الزيارة العصيبة هى الإشارة إلى عملك كمعيد فى الجامعة ، ومن أن يكون رد الفعل العائلى لهذه الحقيقة التى تشرفك ، هى التساؤل الازدرائى من جانب أم الفتاة عن « الكتب » والنصيحة الجاهلة لك من الأب بان تصرف نظرا عن الزواج وتواصل اهتمامك بطريق العلم ، وكان الكتب والعلم مرادفان لعدم الجدارة بمصاهرة مثل هذه الأسرة الكريمة.. وهى محصلة تسىء إليهما وليس إليك ، لأن نفس هذه الأسرة ما كانت لتشير إلى الكتب والعلم مثل هذه الإشارة الإزدرائية لو كنت تملك من المال ما يمكنك من تلبية متطلبات الزواج على الفور ، بغير كفاح وانتظار لعدة سنوات ، بل لعلها كانت فى هذه الحالة سوف تفخر بمنصبك العلمى وتضيفه إلى مؤهلات جدارتك بالفوز بمصاهرتها لأن التقويم فى كلتا الحالتين قائم على اعتبارات مادية فى الأساس وليس على نوع العمل أو الوظيفة ، فإذا كان من حقك أن تستاء لهذه الإشارة المؤلمة فليس من حقك أن تحزن لها لأنها تعكس خللاً فاضحا فى قيم مثل هذه

الأسرة وليس فى قيمك انت ولا فى ظروفك او وضعك الاجتماعى والعائلى ..

وأما والدك مدير الإسكان الأسبق الذى رفض التحايل على القانون ليتيح لك الحصول على مسكن وعاش نزيها وطاهر اليد فمن حقك فعلا ان تفخر به لانه قد أورثك ما يعلو به قدرك لدى الأسر الفاضلة التى تمثل الأغلبية الصامتة فى مجتمعنا ، وليس لدى تلك الأسرة التى تقوم الرجال بما يملكون من مال وليس باى شىء آخر .

فإذا كنت قد كتبت رسالتك هذه تنصح بها كل شاب مكافح مثلك بالا يكرر تجربتك فإنى اتفق معك فى جزئية واحدة منها وهى ألا يتقدم اى شاب إلى أية اسرة بغير أن يتحسس خطاه جيدا من البداية ويعرف اولا اى نوع من الأسر يتقدم إليها واى قيم تسود فى محيطها .. وبذلك يتجنب الشباب المرارات .. ويتفادون ما يهز قيمهم الأخلاقية ومثلهم العليا وثقتهم فى أنفسهم .. وتجد كل المشكلات حلها ومنها معضلة الشقة وقسيمة الزواج !


صوت
من السماء
١٥
كتم الأنفاس!

أنا سيدة فى الأربعين من العمر جميلة ورشيقة وأشغل مركزا مرموقا ، وأريد أن أروى لك تجربتى لعلها تفيد الآخرين ، فلقد تزوجت وأقصد تحملت زوجى عشرين عاما كاملة ، أنجبت خلالها منه ولدين بلغ أحدهما الآن المرحلة الجامعية ، وبلغ الأصغر المرحلة الثانوية .. أما أننى قد « تحملت » ، فلأن عشرين عاما من عمرى قد تبددت فى العناء وأنا أحاول احتمال الحياة مع زوجى والصبر عليها .. فلقد كتم زوجى على أنفاسى عشرين عاما كاملة .. قضى معظمها جالسا بالمنزل بالرغم من أنه موظف ، لكنه لا يذهب إلى عمله سوى كل يومين أو ثلاثة أيام ولمدة نصف ساعة فقط ، ثم يرجع إلى البيت قبل أن يستيقظ الأبناء من النوم ، ويتفرغ نهائيا لكتم أنفاس كل من فيه .. ويتدخل فى كل شىء وأتفه شىء .. كالكوب الذى ليس فى مكانه والشباك المفتوح بلا ضرورة ولكى يجلس أمام التليفزيون من طلعة النهار إلى آخر الليل يراقبنا جميعا ـ وهو أمام التليفزيون ـ ويتسمع كل همسة تصدر عنا ، ثم يطلق قذائف السباب والشتائم ، ويختلق المشكلات .. ويحول كل شىء إلى قضية لا تنتهى ، وهو دائما فى البيت لا يغادره إلا لصلاة الجمعة ولا يزور أحدا ولا يزار وليس له أصدقاء .. فضلا عن الوجه المتجهم ليل نهار .. واللسان السليط ، وإهدار آدميتى وآدمية الأبناء حتى أمام الغرباء ، مما أدى إلى إصابة

ابنى الأكبر بالوسواس القهرى ، وذلك بسبب خوفه الشديد من أبيه ومن لسانه ، أما ابنى الأصغر فلقد انطوى على نفسه .

عشرون عاما يا سيدى لم يخرج زوجى خلالها من البيت إلا نادرا، لم أفتح فمى خلالها للرد على إهاناته أو حتى لعتابه . ولم أجرؤ خلالها على فتح جهاز التليفزيون ، لأنه وحده هو الذى من حقه فتحه وإغلاقه ، وإذا رجع من الخارج ووجده مفتوحا أغلقه دون كلمة منه .. ودون همسة اعتراض منى وكل ذلك مع أننى امرأة عاملة ولى شخصيتى فى عملى وناجحة وقد وصلت فيه إلى مركز مرموق بجدى واجتهادى ، أذهب إلى عملى فى التاسعة وأرجع فى الثالثة بعد الظهر وأقوم بكل واجباتى كزوجة وأم وربة بيت .. من طهو وغسل وتنظيف.. إلخ .. وأجد فى انتظارى دائما الوجه المتجهم والسخرية والتهكم كأننى المرأة الوحيدة فى العالم .. وبالرغم من ذلك فلم أفكر فى تحطيم بيتى وأسرتى لأنه لا مكان آخر لى يسعنى ولا سند لى .

وبدلا من أن يقدر لى زوجى ذلك استغل ضعفى وقلة حيلتى وانعدام سندى وراح يهددنى بالطلاق كل حين وبطردى من البيت مع أننى قد بددت كل ذهبى ومدخراتى فى تلبية مطالب الأسرة واشتركت معه فى دفع مقدم الشقة وثمن السيارة ، وشاركته فى كل شىء لكيلا ينهار البيت ، وهو قابع فى مكانه أمام التليفزيون يصحو من النوم ليسب ويشتم ويتصيد لنا الأخطاء ويقول لابنه الأكبر إنه يكرهه ، ثم يرجع لمواصلة النوم !

وإلى أن تمادى زوجى فى إهانتى وعدم احترام مشاعرى كزوجة وطردنى من صالون البيت أمام ابنة الجيران التى كانت تزورنا ، فإذا بحبل الصبر الذى ظل يقاوم كل الضغوط على مدى عشرين عاما ينقطع فجأة ، وإذا بى أهجر البيت وأطلب الطلاق وأتمسك به وأنا بلا أية خطة للمستقبل .. ولا يشغلنى شىء سوى التحرر من قيود الذل والمهانة ، ثم فليفعل الله بى بعد ذلك ما يشاء .

ولقد طلقنى زوجى بعد أن تنازلت له عن كل حقوقى المادية .. ولم يشأ هو أن يتركنى مع ابنى ويبحث لنفسه عن مكان آخر ، فقبلت ذلك ورضيت بالتشرد بين بيوت الأهل ، بديلا للذل والمهانة وكتم الأنفاس الذى استمر عشرين عاما ، ومن عجب أننى قد أصبحت فى نظره وكما يصورنى للناس المفترية التى لم تحفظ النعمة ، ولم يعترف حتى لنفسه بخطأ واحد من أخطائه ، وحرم أولاده من وجودى معهم .. لكن كل ذلك لم يعد مهما بعد أن تنفست لأول مرة منذ عشرين عاما الصعداء .. وانزاح عن صدرى حجر ثقيل .. لقد تركت البيت والسيارة والوضع الاجتماعى لكننى تعلمت درسا ثمينا هو ألا يسكت الإنسان على خطأ .. وألا يصبر على ذل ولو كانت التضحية بمتاع الدنيا كلها هى الثمن . إنه يحاول الآن أن يستعيدنى ويقول إنه قد ندم على ما كان ، لكن الأوان قد فات لذلك والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لكل إنسان قدرته على الاحتمال التى لا يستطيع تجاوزها وإلا انهار نفسيا وصحيا ، أو انفجر كالمرجل حين يشتد عليه ضغط البخار المكتوم ، فيدمر كل ما حوله ، والواضح يا سيدتى هو أنك قد بلغت نقطة الانفجار هذه بعد عشرين عاما من الصبر والاحتمال ، وليس مهما هنا أى حادث عارض هو الذى أدى إلى الانفجار .. لأن أتفه الأحداث قد يتساوى فى هذا الأمر مع أعظمها، ولأن المرجل حين ينفجر فإنه لا ينفجر بسبب ذرة البخار الزائدة على قدرته على المقاومة وحدها ، وإنما بسبب الضغوط السابقة التى كانت تمور داخله قبل أن يتلقى إشارة الانفجار من هذه الذرة الزائدة ، فإذا كان الدرس الثمين الذى خرجت به من تجربتك هذه هو ألا يسكت المرء على خطأ وألا يصبر على الإذلال إلى ما لا نهاية ، فإن هناك درسا آخر لا يقل عنه أهمية يمكن استخلاصه كذلك منها ، وهو أننا حتى فى العلاقة بين الزوج

وزوجـتـه والأب وابنـائه إنما نحـتـاج لأن نعـرف مـتى نتـوقف عن الضغط المستمر على الغير قبل ان ندفعهم دفعا للانفجار فى وجوهنا ، وقبل أن تنقطع خيوط التواصل نهائيا بيننا وبينهم ، كما نحتاج كذلك لأن نتعلم كيف نتيح لمن يعيشون معنا هامشا من الحرية الشخصية يتيح لهم التنفس بحرية لكيلا يستشعروا كتمنا لأنفاسهم .. ويضطروا لدفعنا بعيدا عنهم طلبا لنسمة من الهواء تحفظ عليهم حياتهم .

والحق اننا قد نحتاج فى هذا الشان لأن نستعير حكمة القنافذ فى الاقتراب الآمن من الآخرين حتى ولو كان هؤلاء الآخرون هم الزوجة أو الزوج والأبناء . فلقد روى بعض الأدباء انه قد شاهد فى ليلة شديدة البرودة مجموعة من القنافذ تحاول التماس الدفء باقترابها الشديد عن بعضها البعض ، فإذا أشواكها تؤذيها وتحول دون التصاقها فابتعدت عن بعضها البعض مؤثرة النجاة من اذى الأشواك ، فإذا بها تتاذى بالبرد الشديد ، فتعود للاقتراب من بعضها البعض مرة أخرى ، ولكن بحكمة وبحيث تستشعر حرارة الأجسام وتتجنب فى الوقت نفسه أذى أشواكها ، وهكذا ينبغى ان نفعل نحن أيضا فى حياتنا العائلية والاجتماعية فنقترب من الآخرين ، ولكن بغير ان نغرس اشواكنا فى اجسامهم فينفروا منا وبغير ان تؤذينا أشواكهم فننعزل عنهم ، ولقد كان احد أسباب عجزك عن مواصلة احتمال الحياة مع زوجك إلى جانب الوجه المتجهم والتسلط الدائم .. والسباب المستمر ، هو وجوده « الأبدى » بينكم كل ساعات الصحو فى الليل والنهار وتدخله فى كل شئون الحياة وتسلطه المستمر على الزوجة والأبناء وملاحقته لكم بالانتقاد والسباب وتسقط الأخطاء مهما بدت تافهة ولا تستحق التوقف أمامها ، فكان أن شعرتم جميعا بالاختناق ، وأصيب الابن الأكبر بالوسواس

القهرى بسبب خوفه الدائم من الأب وانزوى الابن الأصغر متجنبا مصادر الأذى بقدر الامكان .. ثم كان أن انفجر مرجلك أنت فطلبت الطلاق دون أية خطة للمستقبل ودون أن يكون لديك البديل الذى يوفر لك المأوى الكريم .. فإذا كنا نطالب الزوج والأب العطوف بان يتيح لزوجته وأبنائه ، بالرغم من عطفه وحسن معاشرته ، هامشا معقولا من الحرية الشخصية يتيح لهم استشعار الخصوصية ويجدد الشوق إليه ويحفظ حرارة المشاعر بينه وبينهم . فكيف بمن لا يكون وجوده الدائم بينهم إلا نذيرا دائما بتكدير صفو الحياة عليهم وملاحقتهم بالسباب والإهانات وتصيد الأخطاء فى كل حين ؟

ان العطف يدفىء قلوبنا كما تدفىء النار أجسامنا على حد تعبير المفكر الفرنسى الكبير فولتير ، ولقد خلا قلب زوجك السابق ، كما تقول رسالتك هذه من العطف على الزوجة والأبناء.. فكيف كان المصير ؟ ومتى يتعلم هو الآخر درس التجربة فيحاول إصلاح الأخطاء واستعادة الأرض التى خسرها لديك ولدى أبنائه؟ وهل تقبلين العودة إليه إذا استشعرت حقا أنه قد تعلم من أخطائه ، وأصبح أكثر استعدادا لأن ييسر الحياة عليكم ، بدلا من أن يظللها دائما بهذه السحابة الثقيلة من التجهم والشقاق وتكدير الأوقات ؟


صوت
من السماء
١٦
الفوز الحقيقى!

أنا سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى .. أبكتنى رسالة « نداء البراءة » للصبى الصغير الذى يبلغ من العمر ١٥ عاما ، وكتب رسالته إليه يناشدك التدخل لدى أمه وأبيه لإعادة جمع شملهما تحت سقف واحد من جديد بعد أن انفصلا بالطلاق ويعدك ويعد والديه إذا رجعا لسابق عهدهما بأن « يذاكر » هو وشقيقه الأصغر دروسهما جيدا ويحصلا على درجات أكبر ، ولقد دفعتنى هذه الرسالة المؤلمة التى أرجو أن تنجح فى تحريك مشاعر أم الصبى وتدفعها للعودة إلى زوجها السابق وولديها ، لأن اكتب لك عن تجربتى الشخصية فى الزواج والتى كادت أن تصل بى وبأطفالى الثلاثة إلى مثل هذا المصير، لولا أن هدانى الله إلى الخير والحق .

فلقد تزوجت منذ تسع سنوات ، وكان عمرى حين تزوجت ١٩ عاما وكان زوجى من سكان المنطقة التى نقيم بها وله مكانته العلمية المرموقة ، ويكبرنى بعشر سنوات ، وقد اختارته أمى من بين كثيرين كانوا يتوددون إليها بهدف الفوز بى ، فبدأت أمى تحدثنى ليل نهار عن مميزاته من دين وأخلاق وأدب ووسامة ومركز علمى الخ ، وشاركتها صديقاتى الإعجاب به ، فقبلت الارتباط به وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى لكى تعلم صديقاتى أننى « الفائزة » دائما بسبب جمالى الظاهر وخفة ظلى .. ولقد كان هذا الغرور يملؤنى بغير أن يشعر به سواى ، وبعد عام من الخطبة تزوجنا ، ولم يكن الزواج

بالنسبة لى فى وقتها سوى ملابس جديدة وحرية فى الخروج والنزهات إلخ ، وبعد رحلة شهر العسل رجعنا إلى بيتنا ففوجىء بى زوجى أحضر حقيبتى استعدادا للذهاب إلى بيت أمى لقضاء فترة لديها ، فطلب زوجى منى بهدوء أن أؤجل ذلك إلى وقت آخر ، فإذا بى انفجر صياحا وهياجا وأقيم الدنيا ولا أقعدها ، لمجرد عدم امتثاله لرغبتى فى أن أرجع إلى بيت أمى بعد شهر العسل ، ومن ذلك اليوم مضت حياتى معه فى الطريق الخاطىء .. إذ كان يغار علىّ بطريقة جنونية - وأنا أحاربه فى كل شىء بشراسة شديدة .

ومضت سبع سنوات على زواجى أكملت خلالها دراستى الجامعية وأنجبت ثلاثة أطفال ، وأنا فى صراع شبه متصل مع زوجى، وأنكر على أمى ضغطها علىّ للزواج منه وأتحدث بذلك أمامه مما ولد لديه انطباعا راسخا بكراهيتى له ، وهو يحاول من ناحيته الزامى بأشياء كثيرة .. وأنا أعارض فى البداية بشدة ثم استسلم مضطربة وكارهة فى النهاية فألزمنى ارتداء الملابس المحتشمة ، ولم يكن ذلك سهلا علىّ ، وأنا البنت الشقية المتبرجة التى كانت تسعد بتذلل الأولاد من أجل مجرد الحديث إليها ، ومضت سنوات وأنا فى هذه الحرب المتصلة مع زوجى ومن حين لآخر أغضب وأهجر بيت الزوجية إلى بيت أبى ، ثم ارجع بلا شروط ، وأشكو دائما مما يفعله معى زوجى من تدقيق فى كل شىء ، ومنعى من فتح الأبواب والنوافذ ونشر الغسيل بسبب غيرته الجنونية ،ومن ملاحظته لنظراتى ونحن نسير فى الطريق ومحاولته أن يعرف لمن تتجه هذه النظرات ، حتى لأرفع صوتى عليه ونحن فى الطريق وإلى جانب اعتمادى سياسة الرد عليه فى كل شىء على أساس المساواة بيننا ! حتى صار جميع أفراد عائلتى أعداء له مما سمعوه منى عنه ، وحتى بدأت أشعر بأنه لم يبق إلا أن يلجمنى زوجى بلجام لأكون كالسائمة التى يسحبها وراءه بلا اعتراض ، وفى غمار ذلك نسيت له كل شىء من حب وإخلاص وعطاء ولم أعد أذكر شيئا إلا معاناتى معه وصدامى المستمر به إلى أن كان

يوم منذ عامين اشتد بى فيه الضيق والاكتئاب ووجدت فى المسجد الذى أتردد عليه سيدة متدينة تتحدث بحرارة عن حق الرجل على زوجته ، وواجب الزوجة فى طاعته فيما لا معصية فيه للخالق فوجدت نفسى أشكو لها من زوجى وحياتى معه ، ورغبتى فى الانفصال عنه والتفرغ لتربية أطفالى الثلاثة وحدى ، ونيتى فى إلا أتزوج بعد ذلك أبدا ، فابتسمت السيدة المتدينة فى عطف ثم راحت تحدثنى حديثا طويلا عن أهمية الوفاق الزوجى وفهم الزوجة لشخصية زوجها ، وماذا فعلت زوجة القاضى شريح التى سألت زوجها ليلة زواجهما عن طباعه ورغباته وعاداته لكى تراعيها ، وكيف سألته عمن يريدها أن تتحدث إليه ومن لا يريدها أن تفعل ذلك معه ، ثم احترمت رغباته وطباعه فعاشت معه فى وئام ، وحدثتنى عن نصائح الأعرابية لابنتها ليلة زفافها ومن بينها العبارة المشهورة : كونى له أمة يكن لك عبدا .

وخرجت من المسجد وقد أدار حديث هذه السيدة رأسى ، ورحت أفكر فيه طويلا وبعد بضعة أيام من التفكير المستمر فى ذلك قررت أن أجرب العمل به وأحكم على صدقه بالتجربة ، فبدأت بعدم الرد على زوجى فى كل كبيرة وصغيرة ، كما كنت أفعل معه متصورة أن هذه هى المساواة بين المرأة والرجل ، وتجنبت ملاحاته ومشاكلته فى كل شىء ، فاكتشفت أن عدة أيام قد مضت بدون أن يحترق دمى وأعصابى بسبب توافه الأمور ، ثم استجبت لرغباته دون معارضة لمجرد المعارضة والجدل ، كما كنت أفعل كل مرة ثم استجيب فى النهاية لما يطلبه وأنا كارهة فاكتشفت أنه لا يطلب منى ما يستحق «الحرب» لرفضه وإنكاره .. وإنما هى مجرد أمور بسيطة من طبيعة الحياة العائلية فوجدتنى أتخلى بعد ذلك تدريجيا عن زينتى خارج البيت وهى التى كنت أحرص عليها بالرغم من الحجاب الذى ألزمنى به منذ بداية الزواج ، ووجدتنى بدلا من ذلك أتفنن فى زينتى داخل البيت ، حتى أصبحت ارتدى أحدث خطوط الموضة والأزياء ولكن لزوجى وحده دون غيره من البشر ، فإذا بى أجد زوجى الذى كنت

أشكو لطوب الأرض من أنه جاف الطبع وقوى الشكيمة ، يتحول إلى « خطيبى » الرقيق الناعم الذى ارتبطت به قبل سبع سنوات والذى ظننت أنه قد تبدل بعد الزفاف إلى شخص آخر ، وكلما وجدت نتيجة إيجابية لكل تغير جديد فى سلوكى معه ازددت عزما على المضى إلى آخر الشوط فى التغيير ، والإصلاح إلى أن وجدت زوجى وقد أصبح « عبدا » لىّ ، ولست أجد فى ذلك حرجا لأننى أنا أيضا قد أصبحت أمة له ، فتعجبت له ، وتعجبت أكثر لنفسى وأنا التى تمنيت ذات يوم الموت على الحياة معه .

وإنى أنظر الآن إلى السنوات السبع الأول من زواجى بألم وإنكار وأتمنى لو استطعت أن أشطبها نهائيا من حياتى .. فلقد بدأت حياتى الزوجية الصحيحة منذ عامين فقط حين أخلصت النية لله سبحانه وتعالى فى إصلاح بيتى واتباع تعاليم دينى فى معاملة زوجى ، والحفاظ على سعادة أطفالى ، وحين أدركت أن قوامة الرجل على المرأة ليست كما يقول العلماء قوامة تشريف وإنما قوامة تكليف ، واقتنعت بأن طاعة الزوجة ليست امتهانا لكرامة المرأة ، وإنما جزء من طاعتها لربها ، ومن حرصها على استقرار حياتها ونجاحها واستمرارها لأن السفينة التى يتنازع قيادتها اثنان يئول مصيرها إلى الغرق ، وأنى لأعجب الآن أكثر كيف تطيع المرأة رئيسها فى العمل وإلا نالت عقابه الإدارى ، ولا تطيع زوجها مع أن عقاب ربها أشد ، ومع أن لزوجها عليها من الحقوق ما ليس لرئيس العمل بعضه أو شىء منه وأقول لتلك الأم التى أصرت على الطلاق من زوجها وهجرت ولديها فى رسالة نداء البراءة ، ولكل زوجة مثلها ، إن الأوان لا يفوت أبدا لإصلاح الأخطاء فلا تظن امرأة أن الوقت قد فات للإصلاح ، وإن المزارع يحرث الأرض ويبذر البذور ويرويها ثم ينتظر فى صبر جنى الثمار وكذلك ينبغى للمرأة أن تفعل ، وأن تصبر حتى تجنى حصاد زرعها ، بل إنى أقول إن كل زوجة تستطيع خلال عام واحد من الزواج أن تعرف مفاتيح شخصية زوجها وماذا يحب وماذا

يكره ، فإن راعت ذلك صارت أسعد الزوجات ، وإن كان زوجها صعبا فلتخلص النية لله وتبتغى بحياتها مع زوجها ورعايتها لأبنائها وجه ربها ولسوف يعينها الله على أمرها.. وتنظر كل زوجة إلى واجباتها كما تنظر إلى حقوقها وإذا قامت بواجباتها تجاه زوجها وأسرتها فسيكون ذلك سببا مباشرا فى تغيير زوجها ، فإن لم يتغير فكفى بها رضاء ربها عليها ، وأنى أتذكر الآن جارتى التى كان زوجها يرجع إليها مخمورا كل يوم والناس يلعنونه ، فتستقبله فى صبر وتغير له ملابسه وتدعو له بالهداية . فإذا بالهداية تنزل عليه بعد طول الانتظار من السماء ، وإذا بها تفخر بين جاراتها بأن صبرها عليه هو الذى عالجه وشفاه ، مع تمنياتى للجميع بالهداية والتوفيق والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

هذا هو الفوز المبين حقا يا سيدتى لأنه فوز بالسعادة الحقيقية ، وراحة القلب والضمير واستقرار الحياة الزوجية ، ونشاة الأبناء فى حياة عائلية موفقة ترفرف عليهم فيها ظلال الحب والعطف والأمان .

لقد كنت تعتبرين نفسك « الفائزة » دوما من بين صديقاتك لأنك تجمعين بين الجمال وخفة الظل ، ويتذلل إليك الشبان الصغار من أجل الفوز بالحديث إليك ، ولأنك فزت بمن نال إعجاب الصديقات والجارات دونهن وأنت فى الثامنة عشرة من عمرك ، لكن كل ذلك لم يكن من الفوز الحقيقى فى شىء . وإنما تحقق لك ذلك حقا حين أدركت حقائق الحياة وفهمتها على وجهها الصحيح .. وعرفت أن السعادة هى الغاية الثمينة التى تستحق أن يشقى الإنسان حقا لبلوغها ، فإن لم يبلغ شاطئها كان كل ما حققه من نجاح وفوز على الجبهات الأخرى ، لا قيمة له دونها . فنهضت بإرادة قوية ونية خالصة لله سبحانه وتعالى لإنقاذ حياتك العائلية من الانهيار والحفاظ عليها ودفع الخطر

عنها حماية لأطفالك الثلاثة ولنفسك التى تتوق للسعادة وزوجك الذى اختارك دون الأخريات . والإنسان يستطيع دائما إذا أراد أن يراجع حياته وأفكاره ومعتقداته الراسخة التى تنعكس على أساليب تعامله مع الحياة والآخرين ، وإن ينبذ منها ما تثبت له تجربة السنين فشلها فى بلوغ الغاية التى يستهدفها وأن يعدل أفكاره بما يسمح له باتباع أساليب مختلفة فى التعامل مع الحياة عسى أن تقربه من غايته .. وتحميه من أشواك الطريق وهذا هو أهم الفروق بين الإنسان الذكى القابل للتطور وغيرهم من البشر الجامدين على أفكارهم وأساليبهم بالرغم من فشلها المروع فى تحقيق أهدافهم فى الحياة .

وهذا هو أيضا « علم الحياة » الذى قال عنه الأديب الفرنسى البير كامى أنه أصعب من كل العلوم والفنون .

ولقد كان قاسم أمين يقول : إن أقل مراتب العلم ما يتعلمه الإنسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما يتعلمه من تجاربه الشخصية مع الأشياء والناس .

فإذا كنت تبحثين عن سر السعادة الذى تكشف لك فجأة منذ عامين فى لحظة تنوير كتلك التى هبطت ذات يوم سحيق على الحكيم بوذا وهو يجلس تحت شجرة المعرفة ، فلعلى أستطيع أن أوجزه لك فى عبارة مختصرة هى العودة إلى اتباع تعاليم الدين وقيمه ومعانيه السامية وأوامره ونواهيه فى حياتك الشخصية ، وعن اقتناع صادق نابع من النفس هذه المرة وليس مفروضا عليها من خارجها ، فلقد كنت ترتدين الحجاب لكنك كنت تضيقين به فى قرارة نفسك ولولا إلزام زوجك لك به لما ارتديته ، ولهذا فإنه لم يغير الكثير من جوهرك وافكارك وإن كان قد غير من مظهرك ، أما حين راجعت أفكارك السابقة وقررت نبذ الخاطىء منها .. واقتنعت حقا وصدقا بما أرشدتك إليه تلك السيدة المتدينة من حقوق الزوج وواجباته ، فلقد وجدت فى نفسك شجاعة الاعتراف بالخطا ونقد الذات ، ووجدت لديك النية

الخالصة لنبذ الأفكار الخاطئة التى اثبتت لك تجربة الأيام فشلها فى تحقيق السعادة لك ولأسرتك واتباع أساليب مختلفة فى التعامل مع حياتك الشخصية .

فإذا أضيف إلى ذلك فارق خبرة السنين وفارق النضج فى الشخصية بعد سبع سنوات من هذا الزواج المبكر فى سن التاسعة عشرة ، فلقد كان عدلا أن تزدادى فهما للحياة وقدرة على التعامل الصحيح معها .

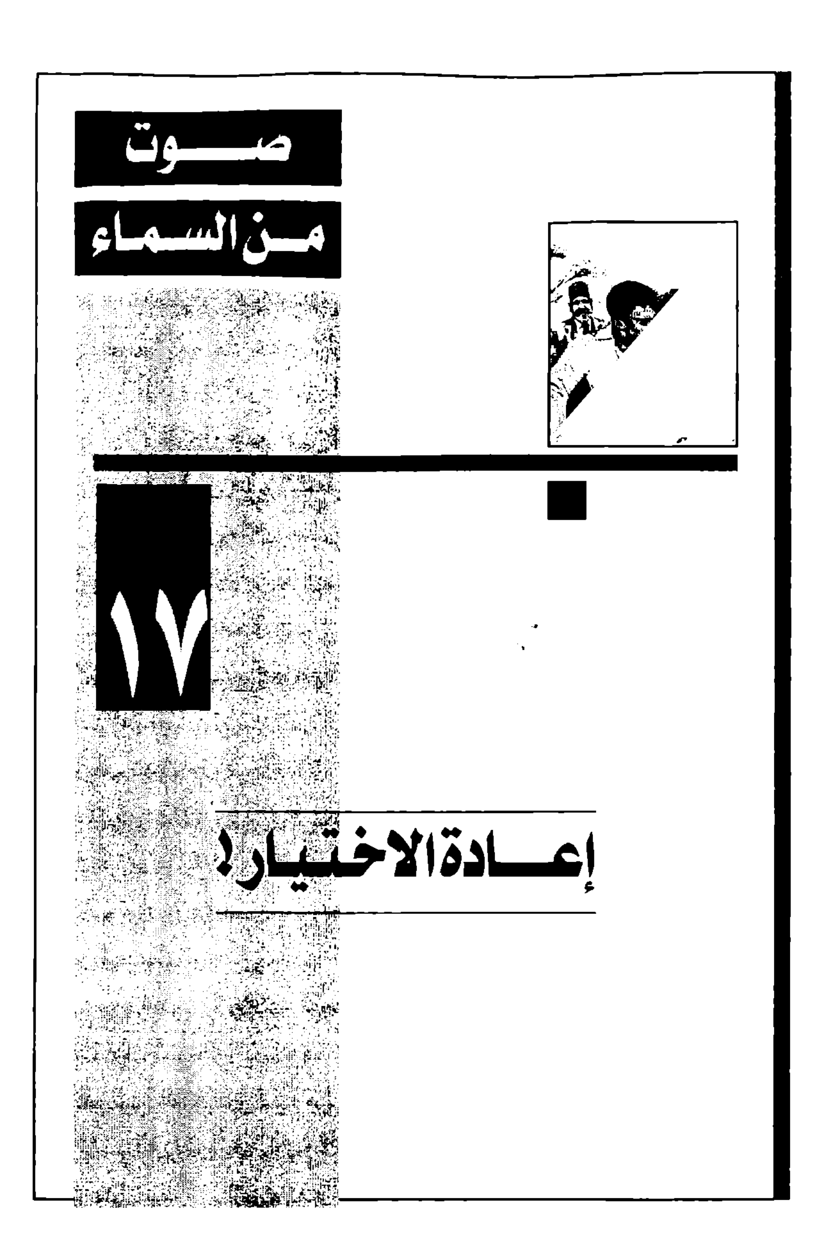
والحق أنه ليست هناك امرأة أو رجل لا يرغب فى إسعاد نفسه وشريكه فى الحياة وأبنائه اللهم إلا إذا كان شخصا غير سوى لكننا قد نضل الطريق إلى هذه السعادة ، وقد نتبع من الأساليب والأفكار والأعمال ما يبعدنا عنها بدلا من أن يقربنا منها .

والنهج الذى اتبعته مع زوجك يثبت لنا من جديد صدق الحكمة العربية القديمة التى تقول « لا يابى الكرامة إلا لئيم » .

وبمعنى أنه يندر ألا يستجيب إنسان كريم لحسن معاملة آخر له وحرصه عليه ورعايته لحقوقه إلا بمثل ذلك كله من جانبه اللهم إلا إذا كان « لئيما » أى غير سوى !

ولقد ذكرنى لقاؤك بتلك السيدة الفاضلة فى المسجد وأثر حديثها المخلص لك فى تصحيح بعض مفاهيمك السابقة بما قرأته ذات يوم للمفكر الكبير رجاء جارودى من قوله : إننى أبحث فى الآخر عما ينقصنى لكى أصبح أكثر إنسانية !

فلقد وجدت لدى تلك السيدة ما كان ينقصك لكى تصبحى أكثر فهما للعلاقة الزوجية وحقوق الزوجة وواجباتها ، وصادف ذلك لديك عقلا متفتحا لقبول الجديد الصالح من الأفكار ونية خالصة للعمل بهديها ، فكان لك ما حققت من سعادة ووفاق ، وكان لك ما يحق لك أن تفخرى به عن جدارة هذه المرة بين الصديقات وهو الفهم الصحيح للحياة !


صوت
من السماء
١٧
إعادة الاختيار!

لا أدرى من أين أبدأ رسالتى .. فالحق أننى أحتاج لأن أرجع إلى الوراء سنوات طويلة ، لأروى لك عن جذور هذه القصة القديمة ، فلقد كنت قد خطبت إنسانة بعد رحلة حب وصداقة شريفة وعفيفة ، وقبل البدء فى إجراءات الزواج نشأت ظروف لا إرادة لى فيها أرغمتنى على عدم إتمامه . إذ فقدت نعمة الحرية وعشت وراء القضبان خمس سنوات كاملة لأسباب سياسية ، وكان ذلك فى أواخر الخمسينات وحتى منتصف الستينات ، فانتظرتنى خطيبتى ثلاث سنوات كاملة .. ولما لم تظهر أية بادرة أمل فى انتهاء الغمة ، يئست من طول الانتظار ومعها كل الحق فى ذلك ، وتزوجت بمن طرق بابها بالطريق المشروع وأنجبت منه ثم انتهت بالنسبة لى سنوات السجن العجاف بما فيها من عذاب مادى ومعنوى ، وخرجت إلى الحياة مرة اخرى ، وبدأت أعيد ترميم حياتى من جديد فتزوجت من إنسانة طيبة عاشت معى وعشت معها فى إخلاص متبادل وأنجبنا البنين والبنات ووفقهم الله فى حياتهم وتزوجوا جميعا ، وعشت أنا وزوجتى بعد زواج الأبناء وتفرقهم فى البلاد وحيدين يؤنس كل منا الآخر ونسعد بزيارات الأبناء المتباعدة واتصالهم التليفونى بنا إلى أن رحلت زوجتى عن الحياة منذ سنوات ، يرحمها الله ، وعانيت حياة الوحدة ، وخلال

السنوات التى تلت فقدى لزوجتى عرض علىّ الزواج أكثر من مرة من فتيات صغيرات فلم أشأ أن أظلم إحداهن معى .. وقلت لنفسى رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، فلقد تخطيت الستين ولا يجوز لى الزواج بفتاة صغيرة السن أو لم يسبق لها الزواج وذلك بالرغم من أن صحتى جيدة والحمد لله ولى عمل خاص يشغل فراغى بعد سن المعاش ، وهكذا فلم أوفق إلى زوجة مناسبة لى بالرغم من حاجتى الشديدة إلى أنيس يؤنس وحدتى ، إلى أن جمعتنى الصدفة ذات يوم ببطلة القصة القديمة أى خطيبتى الأولى التى كان مقدرا لنا أن نتشارك فى حياة زوجية واحدة قبل أكثر من ثلاثين عاما ، لولا تلك الظروف التى حكيت لك عنها ووجدتها تعيش وحيدة هى الأخرى فى مسكنها بعد زواج الأبناء فجمعت بيننا مشاعر الوحدة التى يعانيها كل منا فى حياته ووجدتنى أتساءل : ماذا يمنعنا من أن نقضى ما بقى لنا من العمر معا ، وقد كبر الأبناء وتزوجوا وأنجبوا وانشغلوا بدنياهم وحياتهم الخاصة ؟ واتفقنا على أن يعرض كل منا الأمر على أبنائه ويستطلع آراءهم فى الفكرة ، فتناقشنا بالفعل معهم فى ذلك ، فكان منهم من رحب بها إشفاقا علينا من الوحدة ، وكان منهم من عارض وتشنج ضدها بحجة أنه لا يصح أن نتزوج ونحن فى هذه السن ، أما ما أعانيه أنا بعد وفاة زوجتى وما تعانيه هى بعد وفاة زوجها ، فيكفى لاحتماله من وجهة نظرهم أنهم يطمئنون علينا بالتليفون كل عدة أيام ، وبالزيارة كل بضعة شهور نظرا لبعد المسافات بيننا وبينهم علما بأن ابناءنا جميعا موفقون والحمد لله فى زيجاتهم وحياتهم الشخصية وليسوا فى حاجة مادية إلينا ، ولسنا نحن أيضا فى حاجة مادية إليهم ، ولقد اتفقنا حين لم نصل إلى حل يرضى جميع الأطراف ويحفظ المودة بيننا على أن نحتكم اليك فأرجو

أن تحكم بيننا بالحق وتشير علينا بما تراه عادلا فى هذا الموضوع .

إننى أعرف أن مشكلتنا هذه قد يستخف بها البعض أو يسخرون منها .. لكنها مشكلة حقيقية لمن يعانون من الوحدة مثلنا وقد يؤول بهم الحال إلى دور المسنين بحجة أن الوضع الاجتماعى للأبناء لا يسمح بغير ذلك ، فأرجو أن تحكم بيننا وبين المعارضين من أبنائنا مع رجائى لك ألا تسىء الظن بنا إذ إننا نعرف جيدا حدود الله ونرعاها حق رعايتها حتى أنى إذا حادثتها تليفونيا أو حادثتنى فإنه حتى الكلمة الخطأ نتحسب لها فنتحاشاها فماذا تقول لنا ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يسخر من المجروح من لا يعرف الألم كما تقول الحكمة القديمة ، ولأنه ليس هناك على وجه الأرض من لم يعرف الألم ، أو من يضمن لنفسه ألا يعرفه ذات يوم ، فمن الرحمة دائما أن نتعامل مع هموم الآخرين بما يستحقه من احترام حتى ولو بدت للبعض أهون من غيرها من هموم الحياة ، وعلى هذا الأساس فليس من حق أحد أن يستخف بمشكلتك هذه أو يسخر منها ، وليس من حق المعترضين من أبنائك أو أبناء هذه السيدة أن يحتكروا الحكمة لأنفسهم دونكما أو يصدروا الأحكام القاطعة عليكما بانكما تستطيعان تعويض إحساسكما الشديد بالوحدة بسؤال الأبناء عنكما تليفونيا من حين لآخر ، وزيارتهم لكما كل بضعة شهور .

ذلك انه لا أحد يملك أن يحكم على عمق احتياج الإنسان الذى يكابد الوحدة فى حياته إلى الرفقة والإيناس سواه ، فإذا قر رايه على دفع اشباح الوحدة عنده بالزواج المشروع ، واهتدى إلى شريك ملائم له فى الحياة ، فليس من العدل أو الرحمة أن يعترض معترض على رغبته المشروعة هذه ، باسباب تتعلق

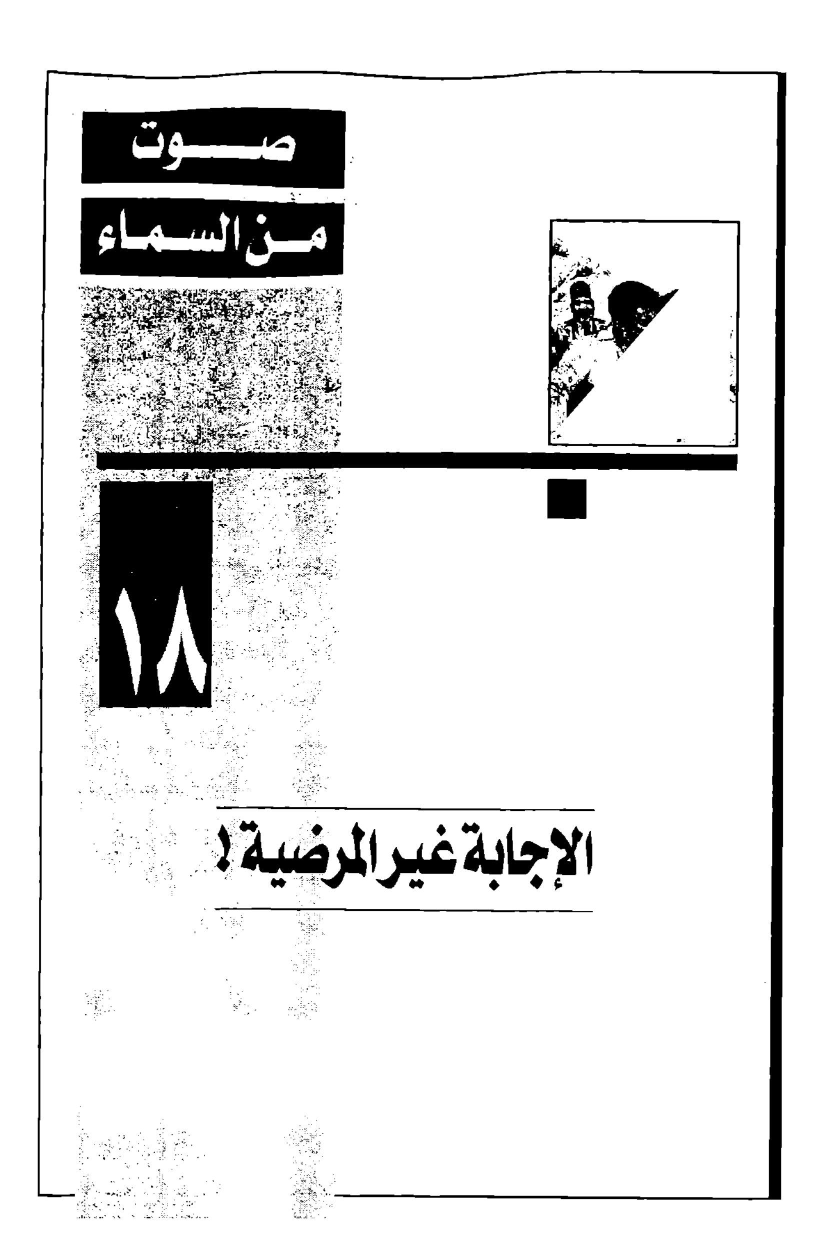
بظروف المعترض وحده وليس بظروف الراغب فى الزواج ودون اى اعتبار لعمق احتياجه الإنسانى إليه .

فنحن لا نستطيع ان نحكم على ابنائنا وأمهاتنا باسبابنا الشخصية واعتبارات وضعنا الاجتماعى بغير أن نتوقف لحظة لنتساءل عن هؤلاء الآباء والأمهات فى أن يحيوا ما بقى لهم من عمر فى هناء وسعادة دون خروج على الشرع أو الأعراف السائدة وإلا كنا أبناء أنانيين نطالب هؤلاء الآباء والأمهات بالتضحية باعتباراتهم الشخصية إلى مالا نهاية ومن أجل ما نراه نحن ملائما لوضعنا الاجتماعى ، حتى ولو كابد هؤلاء الآباء والأمهات الوحدة المؤلمة واشتدت بهم الحاجة إلى الرفقة والإيناس .

ولقد كنت على استعداد لأن أتفهم دوافع المعترضين من الأبناء على هذا الزواج لو كنت قد اخترت فتاة صغيرة السن للارتباط بها وانت فى هذه المرحلة من العمر أو فتاة من وسط عائلى أو اجتماعى لا يتناسب مع أوضاعك العائلية والاجتماعية .. لكنك لم تفعل ذلك ولا تلك السيدة الفاضلة التى ترغب فى الارتباط بها قد فعلت شيئا منه ، وإنما أعاد كل منكما اختيار صاحبه الذى كان قد اختاره بالفعل لمشاركته رحلة الحياة قبل ٣٥ عاما ثم تدخلت الظروف القاهرة ففرقت بينكما ، مما يعنى توفر كل شروط الكفاءة فى العمر والوضع العائلى والاجتماعى بينكما ، فماذا يضير المعترضين من الأبناء فى أن تترفق بكما الأقدار فتعيد الجمع بينكما بعد ٣٥ عاما من الافتراق لكى يسكن كل منكما إلى صاحبه ويقضى إلى جواره ما بقى له من العمر ؟ إن الأبناء الرحماء بآبائهم وأمهاتهم هم الذين لا يطالبونهم بتضحيات لا مبرر لها ولا تسمح طبيعة العمر باحتمالها أو مكابدة عنائها ، وانى لأرجو ان يعيد هؤلاء المعترضون النظر فى موقفهم من هذا الزواج الذى يدفع عنك وعن هذه السيدة ، ألم الوحدة وأحزان

فقدان الرفيق وخلو الحياة من حول كل منكما بعد زواج الأبناء وانشغالهم بدنياهم ، وخير هؤلاء الأبناء من يتنازل عن اعتباراته الاجتماعية الهينة نسبيا بالمقارنة مع احتياجك أنت وهذه السيدة للإيناس ، ويسحب اعتراضه على زواجكما ويسعد بسعادتكما واطمئنان جانب كل منكما بالآخر ، فيفوز برضاكما عنه وعرفانكما له .. وخلو نفس كل منكما من المرارة تجاهه .

فلقد ترفقت بكما الأقدار وسمحت لكما بالالتقاء من جديد واستكمال القصة القديمة التى وأدتها الظروف القاهرة فى حينها ، أفلا يدعو ذلك المعترضين من الأبناء إلى مشاركة هذه الأقدار الرحيمة ترفقها بكما .. فلا يكدرون عليكما صفو الحياة بهذا الاعتراض الذى لا مبرر له ؟ .



صــوت
مــن الســمـاء
١٨
الإجابة غير المرضية !

أنا زوجة عمرى ٢٤ عاما وأم لطفلين جميلين ، وقد تزوجت عقب تخرجى مباشرة فى الجامعة ، وأعمل بوظيفة محترمة يتمناها الكثيرون وعلى خلق ودين ، وأؤدى فرائضى الدينية وأرعى الله فى زوجى وبيتى وعملى ، فأجتهد فى العمل وأتمتع فيه بالكفاءة والسمعة الطيبة ، وأقوم فى البيت بكل الأعمال المنزلية وحدى وأعد لزوجى كل ما يحب من طعام وحلوى وعصائر أقدمها له مزينة بالديكور الجميل ، وأجعل له مائدة الطعام كالحديقة الغناء ، وأعتنى بالطفلين عناية كاملة إى جانب عنايتى التامة بنفسى فى البيت من حيث تسريحة الشعر والملابس الجميلة وطلاء الأظافر والعطور الفواحة .. إلخ .

أما زوجى فهو يكبرنى بعشرين عاما أو يزيد ، لا أعرف على وجه التحديد ، لأنه يفرض الغموض والسرية على كل بياناته الشخصية كما لو كانت سرا حربيا غير قابل للنشر ، كما أنه حاصل على مؤهل متوسط ويشغل وظيفة عادية وليس له أى دخل خارجى ، وقد اكتشفت ذلك أخيرا فقط ، كما أنه يعول والدته التى تقيم معنا من حين لآخر وتتنقل بين بيوت بناتها كما تشاء ، ولا تجد منى كلما جاءت إلا كل احترام ومحبة وتلبية لكل طلباتها ، ولقد منحنى الله نعمة الجمال والرشاقة والأناقة .. ولست أمدح نفسى بقولى هذا ولكن بماذا أصف الشعر المسترسل والوجه الحسن والقوام الملفوف سوى

بذلك ؟ ومع هذا فإن زوجي لا يحبني ولا يقبل على صداقتي والخروج معي في المناسبات والرحلات ، ويحاول دائما الانتقاص من شأني والتهوين من قيمة ما أقوم به من تضحيات ، وما أبذله من مجهود داخل وخارج البيت ، مع العلم بأنني لا أكلفه ما لا يطيق ولا أطلب منه شيئا لأن مرتبه محدود ، ومرتبي يمكنني والحمد لله من شراء ما أريد بالتقسيط المريح ، كما أن زوجي ينصرف عني تماما حتى أصبحت أشعر بأنه مضطر للاستمرار في هذا الزواج ، ولقد ألححت عليه بالسؤال عن سبب هذا السلوك تجاهي ، وأنا الزوجة المخلصة التي تتفاني في إسعاده ، وفي جلب السعادة إلى المنزل بروح المرح والمحبة ونشر الجمال والزهور ونباتات الزينة في أرجائه ولكن دون جدوى ، وكلما طلبت منه أن يفسر لي سر عدم رضائه عني ، ويكشف لي عن عيوبي لأقوم بإصلاحها يتركني ويذهب دون إجابة ، وذات يوم أصررت على أن أحصل منه على إجابة ، وخيرته بين أمرين .. إما أن يشعرني بالاهتمام ونسعد معا ، وإما الطلاق ، فقال لي أن إجابته لن تسعدني ولن ترضيني فأصررت على سماعها ، فقال لي إن أنفي طويل وأن هذا هو ما ينفره مني ومن الخروج معي !

فقلت له أنني أعلم أنه طويل بعض الشيء ، لكني أسأله هل هو غير متناسق مع وجهي ، فأجابني بالإيجاب ! فعارضته على الفور بأنني مستعدة لأن أجري له عملية تجميل لكي أرضيه ، وفي اليوم التالي شغلني موضوع أنفي طوال اليوم ورحت اسأل كل زملائي في العمل وأقاربي عن رأيهم في أنفي ، وهل هو طويل بالفعل إلى هذا الحد ، فكانت إجابة الجميع أنه ليس طويلا ولا كبيرا ، وإنما هو متناسق مع ملامح وجهي الجميل وعيوني الساحرة !

ولم أكتف بذلك وإنما ذهبت إلى أحد أطباء التجميل لاستشارته فكان رأيه أن أنفي مثالي وجميل ، ونصحني بألا أدع زوجي يدخل الشك في جمالي إلى نفسي ، ولفت نظري إلى أن زوجي يريد

إضعاف ثقتى فى نفسى لأنشغل بأنفى عن الفوارق التى بيننا كفارق السن وفارق المؤهل .. إلخ ..

ورجعت إلى زوجى وأبلغته برأى الطبيب ورأى زملائى فى العمل وأقاربى فى أنفى ، فهز رأسه ولم يقتنع ! وأصبح بعد ذلك بدلا من أن يقول لى كل يوم صباح الخير ، يضع أصبعه على أنفه ويضغط عليه لأعلى ولأسفل ثم ينصرف دون كلام ، وحتى حين ذهبنا إلى المصيف عن طريق عمله لمدة أسبوعين ، أمضى معنا أسبوعا واحدا ورجع إلى القاهرة بحجة أن لديه عملا فيها وتركنى وحيدة مع الطفلين حتى أثار عليه سخط زملائه الذين كانوا معنا فى المصيف ، وسمعت تعليقاتهم وكانت من نوع : كيف يترك كل هذا الجمال وهذه الأخلاق ويرحل ؟

أو كيف يترك زوجة شابة صغيرة وطفلين صغيرين فى مدينة غريبة عليها ويسافر ؟ وساعدنى كثيرون فى رعاية الطفلين حتى لا أشعر بالغربة فى المصيف الذى اختاره هو لنا عن طريق عمله .. فماذا أفعل يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بداية التسلل إلى عقل اية امرأة هو إطراء جمالها والمبالغة فى إظهار الإعجاب به .. كما ان بداية الاجتراء على مغازلتها هو رضاها عن هذا الإطراء وسعادتها به واستزادتها منه !

ولهذا فإننى اوفر حديثى عن موقف زوجك منك ، لكى اقول لك أنك بسؤالك للرجال من الزملاء والأقارب عن رايهم فى أنفك ، وضمنا فى جمالك ، هو اقتراب من الخطر ينبغى لك ان تتنبهى له ، وما كان أغناك عنه بسؤال الصديقات والقريبات عما تريدين السؤال عنه ، إذا كان هناك حقا ما يستدعى إجراء « استفتاء عام» لآراء الغير فيه ، وإذا كنت آخذ عليك ابتهاجك بآراء الرجال فى أنفك وجمالك ، فإننى الفت نظرك فقط إلى الحكمة القديمة التى تقول ، إنه لا يعجب بفستان امرأة من يدفع ثمنه ! ومغزاه

أنه لا يعجب بامرأة غالبا إلا من لا يكلفه الإعجاب بها شيئا .. وقد يعده تكلف الإعجاب بها بامل مرغوب فى فوز قريب ! فاحترسى يا سيدتى لأنك تحومين الآن من حيث لا تدرين حول الحمى .. ورسولنا الكريم صلوات الله عليه وسلامه يقول لنا ما معناه : إن من يرتع حول الحمى يوشك أن يخالطه ، وأن من يخالط الريبة يوشك أن يجسر » أى يجسر على ارتكاب ما يأثم به فلعل زوجك « يسعد » الآن بأنه قد أوشك على أن يعرضك بجهله وقصر نظره وإعراضه عنك لمخالطة الحمى ، والتعرض للإغراءات ، إذ إنه لم يكتف فقط بتجاهل مشاعرك والإعراض عنك والتقصير فى أداء حقوقك الإنسانية عليه .. وإنما رغب أكثر من هذا فى أن يبرر ذلك بعذر هو أقبح من الذنب ، وهو التعريض بأنفك والتشكيك فى ثقتك فى نفسك كأنثى ، وفى نصيبك من الجمال الذى ترينه أنت سابغا وموفورا إلى جانب ما تكيلين لنفسك من صفات ومزايا لا حصر لها والرجل حين يعرض بجمال زوجته ويشعرها بإنكاره لهيئتها .. ويشككها فى جمالها وفى نفسها كأنثى ، فكأنما يغريها بذلك على « اختبار » هذا الجمال والتحقق منه فى مرآة غيره من الرجال ، ولأنه لا يعجب بفستان امرأة من يدفع ثمنه كما قلت ، فلسوف تجد دائما من « ينبهر » بهذا الجمال مهما يكن متواضعا أو قليلا ، ومن يسارع بإعلان إعجابه به و« الرثاء » لهذه الزوجة المظلومة التى لا تجد ما تستحقه من تقدير لجمالها لدى شريك حياتها فتكون هذه هى البداية !

ولهذا فإننى أقول لزوجك إن إعراضه عنك بلا مبرر مقبول خطأ بالغ فى حق زوجته وفى حقه هو كرجل ، أما تبرير هذا الإعراض بمثل هذا المبرر السخيف فهو أكثر من جريمة لما له من أثر نفسى سيىء على الزوجة .. قد يوردها موارد الخطأ فى محاولتها « للتأكد » من صحة رأى زوجها فيها !

ولن اقول لمثل هذا الزوج مرة أخرى اين تخفت زوجتك بانفها الطويل حين ارتبطت بها وانجبت منها الطفلين ؟ وإنما ساقول له فقط إنه إذا كان يكرر خطأ بعض الأزواج حين يميلون لإشعار زوجاتهم بالنقص لكى يضعفوا شوكتهن فى التعامل معهم ، فإن زوجتك كما تبدو لى من رسالتها منزوعة الأشواك ، ولا تحتاج منك لمثل هذا السلوك ، أما إذا كان يفعل ذلك لكى يشغلها عن فوارق السن والمؤهل والوظيفة بينهما ، فإننى اقول له أن الرجل هو الرجل فى علاقته بزوجته أيا كانت مؤهلاته ومؤهلاتها ، وإن من خبث الطوية ان ينطوى المرء لمن تشاركه حياته على مثل هذا الإحساس بالنقص تجاهها والرغبة فى سلبها ثقتها بالجدارة ومن واجبه فى كل الأحوال ألا يعرض عن زوجته أو يتجنب الخروج معها لمثل هذه الأعذار القبيحة ..

أما نصحيتى لك أنت يا سيدتى فى النهاية فهى أن تكفى عن استجداء « شهادة » الرجال لك بالجمال ، تجنبا للمزالق والشبهات ، وأن تستعينى على زوجك بوالدته لكى تحثه على حسن معاملتك .. وبالأهل من جانبك لنفس هذا الهدف ، فإذا فشلت كل الجهود معه .. فإن التهديد الجدى بالانفصال عنه قد يكون منبها له إلى ما هو غافل عنه .


صوت
من السماء
١٩
الضغط المعنوى

أنا سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى على قدر من الجمال وجامعية ، ومن أسرة ميسورة ، وقد تعرفت منذ عشر سنوات على شاب يكبرنى بخمس سنوات من أسرة كريمة ووالده رجل أعمال ، فجمع بيننا الحب .. وتخرج فى كليته ومارس الأعمال الحرة وتخرجت أنا أيضا ، وتقدم لطلب يدى وتزوجنا بالرغم من المصاعب التى واجهتها من أسرتى .. وبدأنا حياتنا الزوجية معا منذ ثمانى سنوات وسعدنا بها وازداد حب كل منا للآخر .. غير أن الشهور مضت ولم تظهر فى الأفق أية بشائر للحمل والإنجاب ، فبدأنا رحلة الطواف على الأطباء بعد عام من زواجنا ، فإذا بالأقدار تخبىء لنا مفاجأة غير متوقعة ، فيعرف زوجى من الطبيب أنه لن يستطيع الإنجاب .. وصارحنى زوجى بهذه الحقيقة فور علمه بها .. وأبدى لى رغبته فى أن يعفينى من الارتباط به لكيلا يحرمنى من الأمومة فرفضت أنا هذه الرغبة بشدة .. وأكدت له أننى أريد أن أعيش حياتى إلى جواره إلى اليوم الأخير فيها ، فهو يحبنى بإخلاص ، كما أنه إنسان محبوب من كل من حوله ويتمتع بسمعة طيبة ، وعشنا حياتنا معا . لكن شيئا مهما كان قد تغير فى شخصيته بعد أن تكشفت له الحقيقة ، فلقد أصبح عصبى المزاج ، وأصبحت طلباتى منه تثير المشاكل بينى وبينه لأنه بدأ يشعر بأننى أضغط بها عليه بسبب مسألة الإنجاب إلى أن غضبت منه ذات يوم

وتركت بيتى إلى بيت أسرتى والتف حولى أهلى وأحاطونى اهتمامهم ومعاملتهم الطيبة فشجعنى ذلك على الابتعاد عن زوجى لفترة أطول ، وبعد فترة من الاتصالات بين أسرتى وزوجى ومحاولاته للصلح وافقت على العودة إلى البيت بشروطى التى رفضها من قبل ، وكنت أعرف أنه سوف يقبل بها فى النهاية لأنه يحبنى ، ومضت بنا الحياة هادئة بعد ذلك لمدة ٣ سنوات ثم غضبت مرة أخرى ولجأت إلى بيت أهلى وراح زوجى يحاول بكل طريقة ممكنة إعادتى إلى البيت فكانت أسرتى تنصحنى بالتروى وبأن أفكر بعقلى وليس بقلبى الذى يحبه بجنون ، خاصة أنه من النوع المحب المخلص وكريم إلى حد الإسراف فى بيته ويفعل كل صغيرة وكبيرة لإرضائى ، وبعد محاولاته التى طالت هذه المرة عدت إلى منزلى مرة أخرى بشروطى وشروط أسرتى وهى أن نحاول إجراء بعض الفحوص والعمليات التى تساعدنا على الإنجاب ، وقبل زوجى ، وأجرينا الفحوص رغم تكاليفها الباهظة واكتشفنا أن هناك بعض الأمل وأجرينا عملية حقن مجهرى وبعد نجاح العملية طبيا تخلق داخلى أول جنين لى ، لكن إرادة الله كانت فوق كل شىء ولم يكتمل الحمل ، وأثر علينا ذلك بالفعل وضاقت بنا الحياة حتى وصلت إلى طريق مسدود ، وبلغ بى الحال إلى أن طلبت منه الطلاق ، فرفض لأنه كان متفائلا بالمستقبل ، أما أنا فلم تعد لى طاقة على الصبر والتفاؤل ، وصممت على طلب الطلاق بالرغم من محاولاته المستميتة للاستمساك بى ، وكانت نصيحة أسرتى لى أننى ما دمت أرى فى الطلاق خيرا لى فإنهم لا يمانعون فيه لأنهم يريدون راحتى نظرا لأننى الابنة الوحيدة المدللة .. وحين يئس زوجى من عدم استجابتى لمحاولاته وافق على الطلاق وكان كريما معى فى طلاقى لأنه متدين ويخشى ربه ..

وبعد الطلاق حاولت أن أشغل نفسى بعمل فوفقنى الله فى عمل جيد ، ولقد مضت الآن عدة شهور على طلاقى وأعيش فى بيت

أسرتى وألقى منها المعاملة الكريمة ، لكنى بالرغم من ذلك كنت انتظر من زوجى أية محاولة أخرى لاستعادتى لأننى أشعر بالفعل أنه تنقصنى نفسى وتنقصنى أشياء كثيرة بالرغم من التفاف أسرتى حولى ، فأنا أشعر الآن بوحدة قاتلة وأريد أن أعود إلى زوجى لكن كبريائى يمنعنى من هذا ، وأنا أعلم أنه يحبنى وهو من قراء هذا الباب وأرجو أن توجه له ندائى .. فلقد أصبحت مطلقة معذبة بنار حبى لزوجى الذى تنازلت عنه بسهولة ، وإذا كانت هناك نصيحة فإنى أرجو أن تنصحنا بها وأسأل الله أن يغفر لى ولزوجى ما فعلناه من أبغض الحلال .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لو كنت تحبينه « بجنون » حقا كما تقولين عن نفسك ، لما رغبت أبدا فى مفارقته لمجرد فشل عملية الحقن المجهرى فى حل مشكلة الإنجاب لديكما ، ولما سددت عليه كل أبواب الرجاء حتى لم يجد بدا من التسليم برغبتك فى الطلاق وهو كاره ، لقد أسرفت على نفسك هذه المرة يا سيدتى فى ممارسة الضغط المعنوى عليه لكى يستجيب لشروطك فى كل خلاف بينكما ، وتعاملت مع تجربة الطلاق ، كما تعاملت من قبل مع تجربتيك السابقتين فى هجره واللجوء إلى بيت أهلك والاستمتاع بحدبهم عليك ، فى الوقت الذى يبذل فيه زوجك المساعى لاسترجاعك ويقبل فى النهاية بكل شروطك ، فلعلك قد تصورت حتى بعد أن تمسكت بالطلاق منه وحصلت عليه أنه لن يمضى وقت طويل حتى يكون قد بدأ محاولات استعادتك ، وتجددت الاتصالات بينه وبين أسرتك وراجعك الأهل فى هذه العودة .. فتتمنعين قليلا فى البداية ثم تملين شروطك التى لابد أن يقبل بها لعودتك إليه للمرة الثالثة .. وكل ذلك ليس من الحب العاقل أو الجنونى فى شىء .. فمن يحب إنسانا لا يفرط فيه .. ولا يستمرىء الضغط المعنوى عليه الذى

، أحيانا الى حد ابتزازه عاطفيا لإخضاعه وإملاء الشروط عليه .. ولا يغلى كذلك فى تقدير نفسه فيرى أن من حقه أن يتمرد بتدلل ويهجر ومن واجب من يحبه أن يسعى .. ويتذلل .. يمتهن نفسه لكى يستعيده .

لقد كان الرجل أمينا معك منذ البداية وصارحك بحقيقة حالته صحية ، ورغب فى إعفائك من الارتباط به لكيلا يحرمك من الأمومة ، ورفضت أنت ذلك لكن شيئا قد تغير فى علاقتكما بعد اكتشاف هذه الحقيقة فاصبح كما تقولين عصبى المزاج ، ويستشعر فى طلباتك منه شبهة الابتزاز المعنوى له بحالته الصحية وقبولك للحياة معه دون إنجاب ، فاين الخطا فى ذلك يا سيدتى ومن الذى يتحمل مسئوليته ؟ هل يتحمله هو ، وهو الذى لا ذنب له فى أقداره ، ولم يخف عنك شيئا منها ؟ أم تتحملينه انت وقد استشعرت فيما يبدو أنك قد أصبحت الطرف الأقوى فى العلاقة فاستمرأت الهجر وإملاء الشروط ، وانتظار السعى من جانبه لإرضائك واستعادتك ؟.

لقد اثبتت لك التجربة هذه المرة أن هناك حدودا لما يقبله المحب على كرامته ولو كان متيما بحب الطرف الآخر .. وراغبا فيه بكل جماع نفسه .

كما اثبتت لك أيضا ما سبق أن أكدته مرارا من انه لا قيمة لنا إلا لدى من يحبوننا ونحبهم ويحرصون علينا ونحرص عليهم واننا نفقد الكثير من أسباب الجدارة الشخصية إذا نحن أسرفنا فى الضغط على هؤلاء فضاقوا بنا وتحرروا من أسرنا ، فنعرف حينذاك اننا بالنسبة للآخرين لسنا سوى بشر من البشر لا نتميز عنهم بشىء .. ولا نستشعر معهم العزة أو تقدير الذات .

فاية كبرياء هذه التى تقولين بعد كل ذلك أنها تمنعك من العودة إلى زوجك مع انك ـ كما تقولين ـ تفتقدينه وتفتقدين نفسك بعد انفصالك عنه ؟

ولماذا تنتظرين ان تجيء خطوة الإصلاح هذه المرة ايضا من جانبه وهو الذى لم يخطيء فى حقك ولم يرغب فى انفصالك عنه ولم يقصر فى محاولة إرضائك طوال عشرته لك ؟..

إن الأمانة تطالبنا إذا اخطانا فى حق أحد بان نعترف له بهذا الخطأ ونعتذر له عنه .. فلماذا لا تعترفين له بخطئك فى حقه واعتذارك له عنه ، ورغبتك فى استئناف الحياة معه على اسس جديدة لا ضغط نفسيا فيها ولا ابتزاز !

أم ترى انك ما زلت تريدين ـ بعد أن ذقت مرارة الوحدة والفشل ـ أن يرجع إليك من موقع الضعف واستجداء المشاعر الذى تفضلينه له !

يا سيدتى إما أن تعدلى من أفكارك عن العلاقة الزوجية ، وتسلمى بأقدارك فى عدم الإنجاب تسليما حقيقيا وليس مفتعلا وتكفى عن ممارسة لعبة القوة والضغط المعنوى على شريكك السابق وتستانفى علاقتكما برضا صادق عن حياتك معه .. ودون أى إحساس داخلى لديك بمسئوليته عن أى نقص فى حياتك ولا بانه مطالب بان يعوضك عن هذا النقص بالاستجابة بكل رغباتك وطلباتك ، وإما أن تدعيه لنفسه وأقداره .. وتبدئى انت حياة جديدة مع غيره .. والسلام !



الكنز المفقود!

أنا رجل تجاوزت الخمسين من عمرى ، تزوجت منذ عشرين عاما من فتاة تصغرنى بعشرة أعوام ، وبالرغم من أن زواجنا كان تقليديا إلا أنها كانت وما زالت الحب الأول والوحيد فى حياتى ، فلقد رأيتها لأول مرة فى إحدى المناسبات وأحببتها من النظرة الأولى ، وجدتها جميلة ورقيقة وهادئة تلفت النظر برشاقتها وأناقتها وابتسامتها الدائمة وصوتها الهامس فبت ليالى عديدة لا أفكر إلا فيها ، وبغير أن تشعر هى بشىء جمعت عنها كل المعلومات الضرورية ، فعرفت أنها من أسرة طيبة ومعروفة بكرم الأخلاق والدين ، فتقدمت إلى أبيها طالبا يدها ، وسعدت بقبوله لى وتحفزت لإتمام الزواج فى أقرب وقت ، فلم تشترط هى أو أبواها أية شروط مما تخوفت أن تعجز إمكاناتى عن تلبيته ، وكان مطلب أبيها الوحيد منى هو أن أحسن معاملتها لأنها أقرب أبنائه إلى قلبه وأحقهم بالعطف ، وتم زفافنا سريعا ، وشعرت بأننى قد أطبقت بيدى على نجمة زاهية من نجوم السماء ، وملك حبها علىّ كيانى ، أما هى فلم أجد لديها التجاوب العاطفى بنفس القدر الذى ينشده أى زوج فى زوجته ، ووسوس لى صديق شكوت إليه حالى أنها ربما تكون مشغولة بغيرى ـ لم أطق احتمال الفكرة وواجهتها بذلك فى هدوء ، فأجابتنى فى حياد بأننا قد تزوجنا سريعا ولم يكد يعرف أحدنا الآخر ، وأنها تحتاج لبعض الوقت لكى تألفنى ،

ثم لامتنى باكية على مفاتحتى لصديقى بما يجب أن يكون من صميم أسرارنا الشخصية .

ومضت الأيام وبدأت أتأكد من أن زوجتى التى أحببتها بكل ذرة من كيانى من ذلك النوع من البشر الذى يفضل تأمل القمر على الهبوط على سطحه وأنها خيالية وحالمة وتسعد بأن تستكين بين ذراعى كالقطعة الوديعة ، ولا تسعد إذا تطور الأمر بيننا لأكثر من ذلك ، وكنت رجلا فى الثلاثين من العمر يحب زوجته بقوة ويرغب فيها بشدة فهدانى تفكيرى لأن افتعل الخلاف والغضب منها بسبب وبدون سبب ، لعل ذلك يحرك مياهها الهادئة مع أنها لم تكن تقصر فى حق من حقوقى ومساهمة بمرتبها كله فى بيتنا وتسعى لارضائى وتعتبر رضائى عنها جنتها فى الآخرة ، لكنى فيما يبدو كنت أعاقبها على حبى الزائد لها وجاء الأبناء ورعتهم زوجتى بحبها وعطفها وحنانها فتقدموا فى مدارج العمر والتعليم واستووا ابناء طيبين ناجحين .

ومنذ سنوات حدث ما لم أكن أتوقعه ، ففقدت قدرتى كرجل ، ولم أفقد الرغبة التى ظلت مشتعلة فى داخلى لا تهدأ وتفوق قدراتى كرجل وكزوج لامرأة يأبى الزمن أن يترك آثاره عليها فضلا عن اهتمامها الدائم بملبسها وشعرها وتغيير لونه من حين لآخر بالرغم من ارتدائها الحجاب .

وكان اكتشافى لما حرمتنى منه أقدارى صدمة قاسية لى ، أما هى فقد ظلت على عهدى بها خجولة وتستحيى من أن تفاتحنى فى الأمر ، ومضت سنتان دون أن تنبس ببنت شفة .

ثم مضى عام ثالث ما بين محاولاتها للتهرب منى والتشاغل بالأبناء عنى ، وما بين تجاهلى لدمعتها الصامتة عقب محاولاتى الفاشلة معها . ثم لاحظت أن عصبيتها قد بدأت تتزايد وشعرت بالإشفاق عليها ، وقررت التماس العلاج لحالتى وشجعتنى هى على ذلك وهى تقول لى ضاحكة أننا قد اقتربنا من السن التى ينبغى فيها

أن نكون صديقين نستمتع بصحبتنا وأوقاتنا معا وأن من واجبنا أن نتدرب من الآن على ذلك ، وفشل العلاج لأسباب مرضية أعلمها جيدا وتدركها هي تماما وهي الجامعية المثقفة ، لكني وجدتني أحملها مسئولية هذا الفشل واتهمها بأن عدم تجاوبها العاطفي معي هو سبب إحباطي ، والتزمت زوجتي الصمت وأغرقت نفسها في عملها وتفانت في القيام بواجباتها المنزلية ومساعدة الأبناء في دراستهم ، ومرت ثلاث سنوات أخرى ازداد خلالها الخلاف بيننا وازدادت أيضا محاولاتي لإهدار آدميتها ، وبالرغم من ثقتي بها وتأكدي من أن مجال عملها ليس به رجل واحد ، فلقد رحت أضايقها بتعليقاتي السخيفة في غدوها ورواحها كأن أتساءل مثلا عمن تصبغ له شعرها وتحرص من أجله على رشاقتها وقد أصبحت ابنتنا عروسا ؟ أو أذكرها بأنها قد كبرت في السن ولم تعد تعنيني رشاقتها .. إلخ ، ونسيت في غمار ذلك أنها تقوم وحدها بكل الأعباء المنزلية وشئون الأبناء الذين بلغوا مرحلة المراهقة ، وأصبحت لهم مشكلاتهم ، ثم تملكني الشيطان ذات يوم وافتعلت معها خلافا حادا فلم تتجاهله هذه المرة كعادتها مع الخلافات المفتعلة السابقة ، وإنما ارتفع صوتها لأول مرة فإذا بيدي تمتد إلى وجهها الذي طالما عشقته فأصفعها بعنف لا أدري كيف قدرت عليه ، فيزداد صراخها وتهتف طالبة الطلاق ومعلنة أنها لن تعيش معي بعد اليوم ، وبعدها بأربعة أيام تركت البيت لأول مرة منذ تزوجنا دون علمي ، ولجأت إلى أهلها وانقلبت الدنيا رأسا على عقب .. ولم أعرف وقتها ماذا قالت عني لكني كنت مؤمنا بأنها لابد أن تكون قد باحت بما لا أحب أن يعرفه أحد عني . ووجدتني أضع العراقيل أمام طلاقها ، فطالبتها بالتنازل عن كل حقوقها المادية ووافقت هي على ذلك ، وانتزعت منها الأبناء وأوهمتهم بأنها قد طلبت الطلاق لكي تتزوج من رجل آخر ولم أسمح لها بالاتصال بهم ، ولعب أصدقاء السوء دورهم حتى اقتنعت أنا نفسي بصحة ما فعلت

ورحت أشى بها حتى تركت هى عملها .. ولقد مضت شهور الآن وأصبح أبنائى يسألوننى لماذا قلت لهم إن أمهم ستتزوج رجلا آخر وهى لم تفعل ذلك ؟

إننى أعلم أننى قد أخطأت ، لكنى تائب ونادم الآن ولقد باءت كل محاولاتى مع أسرتها بالفشل ولا أمل لى فى الالتقاء بزوجتى السابقة على انفراد لأنها لن تقبل ذلك ، كما أننى أعلم جيدا أنها لن تتزوج فلماذا لا تعود إلىّ إذن ؟ إننى أريد زوجتى وأشعر بأنه لا غنى لى عنها وأبنائى يضيعون ولن يحسن تربيتهم سواها ، والله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء فلماذا لا تغفر لى وتصفح ؟ إننى سوف أرد إليها كل حقوقها ولن أضايقها مرة أخرى ولن أفرض نفسى عليها وسأتعهد لها ولك بذلك إذا رغبت أنت فى مقابلتى ، ولقد علمت أنها تعانى أزمة صحية حاليا وأريد أن أكون إلى جوارها لأثبت لها ولو لأول مرة كم أهتم بها وأتعذب من أجلها .. وهى من قارئاتك وأريد أن نستأنف حياتنا الزوجية معا مرة أخرى ونؤدى فريضة الحج معا ونرعى أبناءنا ، فأنا والله أحبها ولن أطلب منها مقابلا لهذا الحب لأن سعادتى فى حبها ، وسامح الله كل من زين لى الشر حتى هدمت بيتى وفقدت إنسانة يندر أن يجود الزمان بمثلها فى طيبة قلبها وطفولتها وسذاجتها التى كان يجدر بى أن أنعم بها لا أن أستغلها فيها ولقد مضى وقت كاف لمراجعة النفس وأيقنت أننى قد أضعت الكنز الذى كان بين يدى .. فهل توجه إليها كلمة لعلها تسمعها منك ويتحقق الأمل على يديك ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قد تستطيع المرأة خاصة إذا كانت قد نالت بعض حظها فى الزواج والسعادة ، أن تصبر على ما يطرأ على قدرة زوجها من تغير مع التقدم فى مراحل العمر وأن تتواءم مع أوضاعها الجديدة وتتلمس سبل التعويض النفسى عما ينقصها فى أوجه

حياتها الأخرى مع زوجها وأبنائها ، ولكن بشرط ألا يضاعف زوجها من معاناتها بما يطرأ عليه هو أيضا من اضطرابات نفسيه تزيد من شقائها بما طرأ على قدرته من تغير .. وتصعب عليها احتمال الحياة معه إلى ما لا نهاية .. ذلك أن الآثار النفسية السلبية لما يطرأ على الرجل تكون عادة أكثر خطرا على علاقته بزوجته من التغير الفسيولوجى الذى طرأ عليه . إذ يرافق هذا التغير غالبا توتر مكتوم فى علاقة الزوج بزوجته ، فإذا نحينا جانبا الآن ما قد تستشعره الزوجة فى أعماقها من نقمة صامتة على الزوج لما تتصوره من مسئوليته عما تعانيه من نقص وتعبيرها عن ذلك أحيانا فى بعض التصرفات السادية العابرة ، أو بازدياد حدة مزاجها وسرعة تهيجها العصبى فى بعض الأحيان ، فإن ما يعانيه الزوج من آثار نفسية سلبية يعد أشد خطرا على علاقته بزوجته من ذلك ، إذ قد يدفعه شعوره بالنقص تجاه زوجته وبما جد عليه من ضعف الثقة بالنفس وبقدرته على السيطرة على زوجته إلى محاولة « اختبار » هذه القدرة مرارا وتكرارا وطمأنة النفس إلى أنه لم يفقد أسباب الجدارة فى نظر زوجته ، فيكون التعبير عن ذلك أحيانا بافتعال الخلافات واتخاذ المواقف المتشددة معها ، وإثبات الذات على حسابها ، كما قد يلجأ بعض المبتلين إلى حيل نفسية أخرى كحيلة الإسقاط ، وإتهام الزوجة بالمسئولية الحقيقية عما طرأ عليه هو من تغير ومحاولة إقناع الزوجة بذلك لتشاركه بعض إحساسه بالذنب تجاهها ، وتنطوى هى الأخرى على بعض الإحساس بالذنب تجاهه ، فتتساوى الكفتان وتتواصل الحياة !

وهو نوع من الدفاع عن النفس عن طريق الهجوم على الغير فضلا عما قد يصاحب ذلك عادة من غيرة جنونية من الزوج على الزوجة ومحاولة يائسة لاحتوائها وسد المنافذ حولها .. تخوفا مما تصوره له وساوسه وضعف ثقته بنفسه من أنها قد تلجأ إلى

محـاولة تـعويض ما ينقصـهـا فى حـيـاتهـا الزوجـيـة من مصـادر خارجية .

والمحـصلة دائمـا لكل هذه الأوهام والهـواجس والتـوترات النفسية هى اضطراب العلاقة بين الزوج وزوجته وحلول الشقاق وتكرر الأزمات ، حتى لتتراجع لدى الزوجة فى كثير من الأحيـان أهمية ما تفتقده فى علاقتها الخاصة بزوجها بالمقارنة بهمها الأكبر وهو اضطراب حياتها معه وتوترها وكثرة خلافاتهما .

وكل ذلك ليس من الحكمة فى شىء ، فهذا التغير الذى قد يطرأ على الزوج فى أى مرحلة من مراحل العمر ليس نهاية الحيـاة بالنسبـة له أو لزوجتـه ، ومن الممكن فى كثيـر من الأحـيـان أن تستمر الحياة بينهما فى أمان رغم نواقصها إذا أحسن الزوج فهم شخصية زوجته وجاهد نفسه ليتغلب على الآثار النفسية الضارة للتحـول الجديد فى حياته وحاول بإخلاص تعويضها عما ينقصها بالحب والرعاية والعطف والعطاء العاطفى وحسن المعاشرة .. ذلك أن استمرارها معه بعدما جد عليه من تطورات دون أية رغبة منها فى الانفصال عنه ، إنما يعنى أنها قد اختارت استكمال مشوار الحياة معه دون اعتراض على أقدارها وأقداره . ويبقى بعد ذلك أن يعينها هو بحسن معاشرته لها وزيادة عطائه العاطفى لها على استمرار الحياة بينهما وليس بإعسارها عليها واضطرابها وتوترها .

ولقد صبرت زوجة نبى الله أيوب على بلاء زوجها ١٨ عاما كاملة ، لم تهن خلالها ولم تضعف ولم تكل من خدمته ورعايته وعلاجه والعمل لإطعامه حتى لقد قصت شعرها كله لتشترى له بثمنه طعاما ، فكان أن كشف الله سبحانه وتعالى عنه غمته وطال به العمر ، كما جاء فى العهد القديم حتى عاش بعد كشف الغمة مائة وأربعين سنة ، ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال وما أكثر ما صبرت زوجات فضليات على مثل ذلك ورضين

باقدارهن وتلمسن التعويض فى ابنائهن وحسن معاشرة ازواجهن لهن .

لكنك يا سيدى لم تعن زوجتك على احتمال حياتها معك .. بحسن الصحبة وحق الرعاية والعطف ، وإنما استسلمت لكل الآثار النفسية الضارة لما ابتليت به ، فافتعلت الخلافات معها .. ولاحقتها بالتعليقات الجارحة .. وآنيتها بالضرب ، فانفجرت فيك لأول مرة وطلبت الطلاق منك واصرت عليه ، وبدلا من أن تعينها على مراجعة نفسها بكرمك معها فى الطلاق وحرصك على صورتها أمام ابنائها . فلقد أعسرت عليها ولم تكن سلسا ولا كريما معها فى طلاقك لها وحرمتها من الاتصال بابنائها ، ولاحقتها بالوشايات فى عملها حتى اضطررتها لتركه .. فبماذا تريدنى أن أقنعها بندمك على ما كان وصدق رغبتك فى التكفير عنه ؟

إن الاعتراف بالخطأ لا يكفى وحده لكى يعفينا من اللوم إن لم نبادر بتصحيح الأخطاء ورد الحقوق المتعلقة بها .

وفى قصتك هذه فإن الندم الحقيقى على ما فعلت بزوجتك إنما يتحقق بان تبادر بإثبات صدق الرغبة فى الإصلاح والتكفير برد حقوقها المادية التى حرمتها منها مقابل الاستجابة لطلاقك لها ، وبان تسمح لها بالاتصال بابنائها دون إعنات عليها فى ذلك ، بغض النظر عن قبولها للعودة إليك أو رفضها لها ، وبان تقوم بتصحيح الصورة التى شوهتها لها فى أذهان أبنائها ، وجهة عملها ، وبعد ذلك كله فلننتظر ونامل فى أن تتهيا الأجواء ذات يوم قريب لمناقشة عودتها إليك .. ذلك أن كل هذه الخطوات هى من قبيل إبراء الذمة تجاه زوجتك السابقة وإثبات حسن النية ، أما عودتها إليك فإن الأيام وحدها هى التى ستختبر قدرتها على مقاومة نداء ابنائها إليها .. ونداء حبك الطاغى لها وإن غدا لناظره قريب .


صوت
من السماء
٢١
الصفحة البيضاء

أنا أم لفتاة فى سن العشرين جميلة وعلى خلق ودين تؤدى فرائضها ، وترعى الله فى حياتها ومتفوقة فى دراستها وتعاملنى وتعامل أباها وأخوتها بكل العطف والحب والاحترام ، وكغيرها من البنات فلقد راحت منذ شارفت سن الشباب تحلم بفتى الأحلام الذى سيجىء من عالم الغيب ويخفق له قلبها وتشاركه رحلة الحياة ، وما إن وصلت إلى عامها الجامعى قبل الأخير حتى تقدم لخطبتها شاب يعمل عملا مهنيا ، وتتوافر فيه مواصفات فتى الأحلام الذى تحلم به ، وقمنا بدورنا فى الاستعلام عنه وعن أسرته فجاءت المعلومات مطمئنة ، فالأسرة محترمة والشاب متزن وكلامه جميل ومعقول ، فشعرت أنا وزوجى بالارتياح له ولأسرته ، غير أن ابنتى لم تشعر من الوهلة الأولى بنفس هذا الارتياح تجاهه ، وأعطيناها المهلة الكافية للتفكير فى الأمر ، وفى نهايتها قالت لنا بأمانة إنها لا تنكر عليه شيئا . لكنها فقط لا تشعر بالارتياح الكامل له ولا تدرى لذلك سببا ولأنها تخشى ربها فلقد خشيت أن تظلمه بالرفض لغير سبب واضح واستجابت لرغبتنا فى إعطائه الفرصة لأن يقترب منها وتكتشف فيه مزاياه ، وهكذا تمت الخطبة وبعد فترة قصيرة منها طلبت أسرة الشاب عقد القران ، وعارضت ابنتى فى البداية تعجل عقد القران ، ثم وافق فى النهاية بالرغم من تخوفها من بعض المؤشرات التى ظهرت عليه خلال

فترة الخطبة كإحساسها بأنه يكذب كثيرا ، ومضت الأمور فى طريقها الطبيعى وبدأنا فى إعداد الجهاز وبدأنا نتردد كثيرا على الشقة التى ستكون عش الزوجية لوضع الأثاث والمفروشات إلخ . وكلما اشترينا شيئا جديدا حملناه إلى الشقة المغلقة ووضعناه فيها .. إلى أن أكتملت الشقة تماما من الأثاث والسجاد والستائر وأدوات المطبخ والفضيات .. إلخ ولم يبق إلا إتمام الزفاف بعد أسبوعين وكان آخر ما اشتريناه تليفزيونا ملونا ، فاقترح زوجى أن نحمله من المحل إلى الشقة مباشرة وسأل ابنتنا التى كانت معنا عن مفتاح شقتها وأجابت بأنه معها فتوجهنا بسيارة زوجى إلى الشقة المغلقة ونحن فى غاية السعادة والابتهاج ونتبادل الرأى حول المكان الأمثل لوضع التليفزيون فيه ، وفتحت ابنتى الشقة ودخلنا إليها .. وبدأنا فى وضع التليفزيون فإذا بنا نسمع كلاما وضحكات مكتومة .. وتوجسنا شرا وتصورنا أن بالشقة لصا يسرق محتوياتها وتجولنا فى غرفها بحذر إلى أن فتح زوجى باب غرفة النوم فإذا بنا نرى خطيب ابنتى الذى سيزف إليها بعد أسبوعين فقط ومعه زميلة لها بالجامعة ، سبق أن ترامت إليها أنباء عن علاقته بها وواجهته بذلك فأنكرها إنكارا تاما !

ولم تحتمل ابنتى الطيبة الموقف المشين وهرولت خارجة من الشقة و.. واجهت أنا وزوجى هذه اللحظة العصيبة .

وبعد أهوال لا داعى لذكرها استدعينا أهله وروينا لهم ما حدث فعقد الخجل والذهول ألسنتهم ، وطلبنا منهم أن يطلق ابنهم ابنتنا على الفور ، ولم يلحوا علينا كثير للعدول عن مطلبنا لإحساسهم بالخزى مما فعل ابنهم .. لكنه رفض الطلاق وطلب إعطاءه فرصة أخرى « لإصلاح نفسه » ولأنه متمسك بابنتى الصفحة البيضاء التى لم يخط فيها أحد حرفا من قبل كما قال ! وأصرت ابنتى ووالدها على طلب الطلاق بلا أى تفاهم ، وقامت ابنتى بعمل توكيل لوالدها لإتمام الطلاق فى غير حضورها لكيلا ترى هذا الشاب مرة أخرى ، وبعد

محاولات عديدة تم الطلاق ، ووجدت ابنتى نفسها مطلقة وهى فى سن العشرين من عمرها وبلا ذنب جنته سوى أن حلمت كغيرها من الفتيات بفتى تشاركه حياته ومشاعره ، وقد سجلت فى صفحتها البيضاء هذه الزيجة التى لم تتم ، وأصبحت مطالبة إذا تقدم لها شاب آخر بأن تفسر له لماذا طلقت قبل الزفاف .. وما هى الأسباب .. وقد يقتنع بذلك .. وقد تراوده الشكوك تجاهها وتتساءل ابنتى الآن : ما ذنبى فى كل ما حدث ؟! وماذا تقول للأهل والأصدقاء والجيران إذا سئلت عنه وقد استسلمت للحزن والاكتئاب وامتنعت عن الذهاب إلى كليتها واعتزلت الزيارات العائلية .. وراحت تقضى معظم وقتها فى حجرتها صامتة مكتئبة وتتجنب مقابلة الضيوف ، وتتهرب من أبيها وأخوتها حين يدعونها للسمر معهم .

إن قلبى ينزف دما حزنا على ابنتى وأرجو منك أن توجه إليها كلمة تدعوها فيها إلى الخروج من حجرتها والعودة إلى الجامعة لتحصل على شهادتها هذا العام وتقدم لها النصيحة بأن ما حدث لها لا يعنى انتقاص فرصتها فى الزواج الموفق ولابد أن الله سبحانه وتعالى سوف يعوضها عن هذا الظلم الذى تعرضت له بلا سبب وشكرا لك مقدما .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

يختلف تفاعل الإنسان مع الكثير من مواقف الحياة باختلاف زاوية الرؤية التى يرصدها منها . وفى حالة ابنتك فلقد استسلمت للحزن والاكتئاب لأنها قد تفاعلت مع التجربة المحزنة التى تعرضت لها وفقا لزاوية رؤية واحدة رأت من خلالها أنها قد تعرضت لأذى نفسى كبير بلا أى ذنب جنته فى هذه المحنة ، وشعرت بالظلم لأن صفحتها البيضاء مع الحياة والزواج قد نقشت عليها سطور هذه التجربة الفاشلة ، واصبحت مطالبة

بتقديم تفسير لها للغير ولمن يتقدم للارتباط بها فى المستقبل ، فضلا عن إحساسها بالمهانة ومرارة الغدر والخيانة ممن توسمت فيه الوفاء لها والرغبة الصادقة فى تكريس مشاعره وعواطفه لها دون غيرها من الفتيات .

ولا شك فى انها محقة فى كل ما تشعر به من الم وظلم وجرح للكرامة الإنسانية فى هذه المحنة القاسية .. لكن ماذا عن زاوية الرؤية الأخرى لنفس هذه المحنة .. وعن الجانب الآخر الإيجابى فيها ؟

لقد تعرضت ابنتك يا سيدتى لأذى معنوى كبير فى هذه التجربة .. وخسرت بعض الخسائر النفسية والمعنوية المحققة فيها .. لكن هذه المحنة من زاوية أخرى قد أكدت لها ان اقدارها قد ترفقت بها فكشفت لها عن الجوهر الحقيقى الفاسد لمن كانت ستشاركه رحلة الحياة قبل أن يحفر فى صفحتها البيضاء اثرا أعمق غورا من اثر التجربة الفاشلة ، وقد يتعذر محوه أو علاجه فى المستقبل بغير خسائر جسيمة . إنها محبوبة الأقدار كذلك وليست ضحيتها فقط كما تتصور الآن فلقد شاءت لها اقدارها الرحيمة ان تتثبت من صدق مشاعرها المبدئية بعدم الارتياح لهذا الشاب قبل أن يدخل بها وتنجب منه وتتشابك خيوطها معه ويتعذر فضها بغير ان تدفع من حياتها وأمانها وايامها ثمنا فادحا ، ولا عجب فى ذلك لأن من لم يتورع عن خيانة زوجته التى ستزف إليه بعد اسبوعين فقط على فراش الزوجية ، لم يكن ليتورع غالبا فى المستقبل عن خيانتها والعبث مع غيرها بعد بنائه بها ، وكان الأرجح أن تعانى معه الكثير والكثير من كذبه وعبثه وخيانته لها بعد الزواج والإنجاب .. فلماذا لا تلتفت إلى

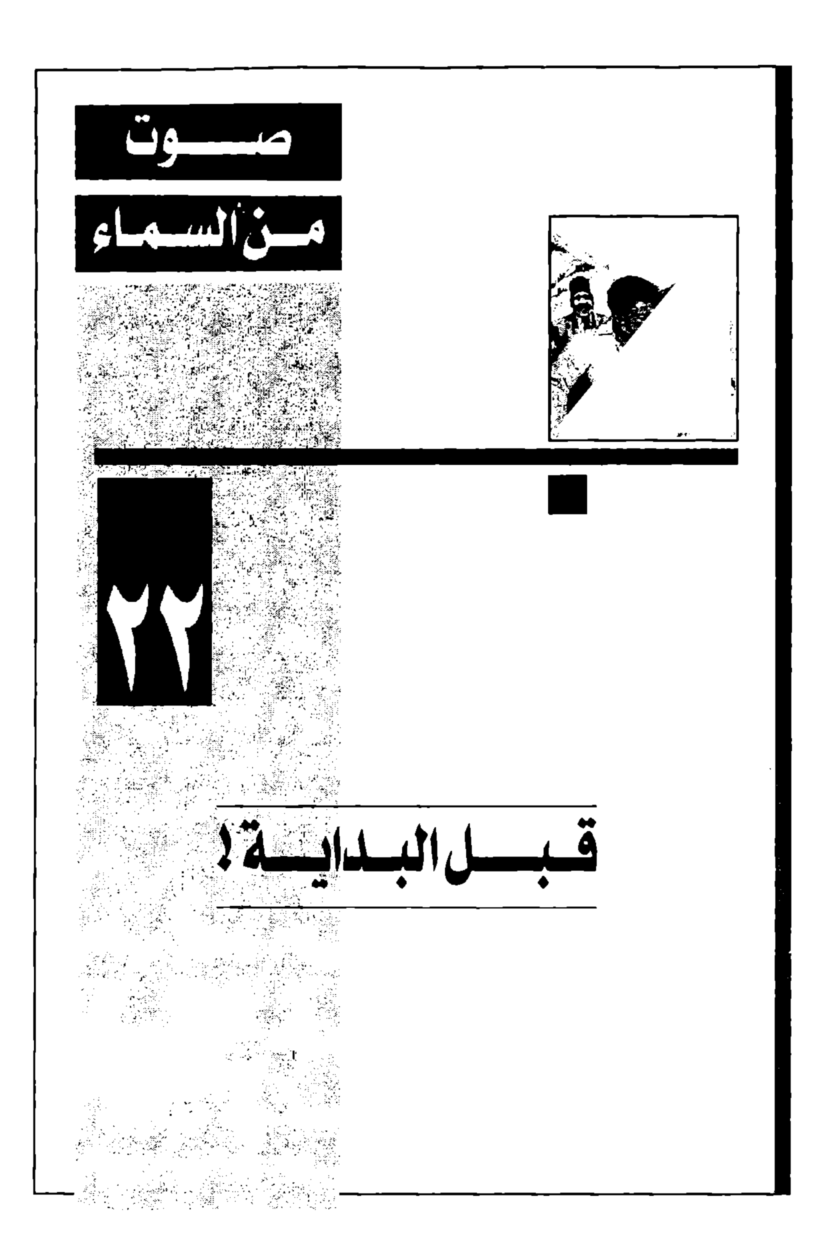
هذا الجانب الإيجابى فى محنتها وتشكر ربها كثيرا عليه ؟

أما تحسبها بتسجيل هذه الزيجة الفاشلة عليها .. واضطرارها لاتخاذ موقف الدفاع عن نفسها بشأنها مع من سوف يرتبط بها فى المستقبل ، فهو ثمن قليل لهذه المحنة التى تلطفت فيها الأقدار بها فحجمت خسائر كثيرة بالنسبة لها ، ولا يقارن هذا الثمن القليل بالآخر الفادح الذى كانت ستدفعه من حياتها واستقرارها وأمانها فى المستقبل لو كانت قد ارتبطت بهذا الشاب ، وما أكثر الزيجات التى تتعرض للانهيار قبل إتمامها ، وتجربة ابنتك يا سيدتى فى النهاية ليست تجربة زواج فاشل ، وإنما هى تجربة خطبة لم يقدر لها النجاح والاستمرار حتى ولو كان قد عقد قرانها على ذلك الشاب خلالها ، وبالتالى فإن صفحتها مع الزواج ما زالت بيضاء من غير سوء والحمد لله . وستظل كذلك إلى أن يجمع الله بينها وبين من يستحقها ويقدر لها مزاياها فى القريب العاجل بإذن الله .

ونحن فى النهاية نعرف الخير بالشر والطيب بالخبيث والأمين بالخائن أى بمقارنة القيم والأشياء بأضدادها ، ولولا وجود الشر فى الحياة لما أدركنا قيمة الخير ولما أعليناه عليه .. فلتهون إذن ابنتك على نفسها ، ولتخرج عن صمتها وعزلتها .. ولتطلق لسانها من عقاله بالشكوى من سوء حظها الذى عرضها لهذه المحنة العابرة فى حياتها وبالشكر لربها أن انقذها من حياة زوجية لم تكن لترشحها إلا للتعاسة والمعاناة ، فذلك خير وأفضل من مكابدة الصمت وكتم المشاعر والخواطر التى تمور داخل النفس وتترك أثرا سلبيا سيئا على الصحة النفسية . فالصمت هو قمة الإنفعال كما يقول لنا أحد علماء النفس المحدثين ، وأكثر

اللحظات إثارة للإنفعال فى حياتنا هى اللحظات التى يبلغ من انفعالنا لها ألا نجد ما نقوله فيها من كلمات ، ولهذا فإنى أدعو ابنتك إلى الخروج عن صمتها ومن عزلتها وإلى المشاركة من جديد فى مباراة الحياة بخبرة أفضل ببعض اسرارها .. وإيمان أكبر بجدارتها بأن تنال كل ما تستحقه من طيبات الحياة وبثقة أعمق بان تعويض السماء لها عما تعرضت له سوف يمحو تلك السطور الباهتة من صفحتها .. ويحل مكانها سطورا مضيئة بالسعادة والتوفيق فى المستقبل القريب بإذن الله .





صـــوت

مـن السمـاء

٢٢

قبـــل البـدايـة!

أرجو أن يتسع صدرك لما سوف أرويه لك وأطلب منك المشورة فيه فأنا فتاة فى السابعة والعشرين من العمر .. وأواجه مشكلة لابد لكى تعرف جذورها أن أروى لك القصة من البداية .. أو على الأصح من قبل البداية وقبل أن أجىء إلى الحياة ، فلقد تزوجت أمى وهى فى التاسعة عشرة من عمرها من شاب من أصل ريفى كان يعمل بمدينتنا، وسعدت أمى بزواجها منه بالرغم من صغر سنها .. غير أن سعادتها به لم تطل كثيرا فلقد مضى عامان من الزواج بغير أن تنجب وراح أبى ينغص عليها حياتها ويحملها مسئولية ذلك ، ثم أذن الله لها بعد ذلك بالحمل وتوقعت هى أن تنتهى متاعبها بالحمل والولادة لكن الأقدار خيبت ظنها ، فلقد وضعت حملها فإذا به أنثى ، وأبى يريد لنفسه ولدا يحمل اسمه ويخلد ذكره فى الدنيا ، كما قال لها ، ومن ثم فإنه لم يفرح بالمولودة الجديدة ، وازداد إساءة لأمى وتنغيصا لحياتها، وبعد عامين آخرين جئت أنا للحياة فكنت ـ على حد قول أبى لأمى وقتها ـ « المصيبة الثانية » التى ابتلى بها بعد مصيبته الأولى ، وكثرت مشاجراته مع أمى ومعايرته لها بعدم إنجاب الولد وتجهمت الحياة فى وجه أمى .. لكنها لم تيأس ـ بالرغم من ذلك ـ من تكرار المحاولة على أمل أن تحقق لزوجها أمله .. وتستقر حياتها معه بلا أكدار وحملت مرة ثالثة .. ووضعت حملها بعد عام ونصف العام من

مولدى ، فإذا به « بنت ثالثة » .. فكان ذلك هو نهاية القصة بالنسبة لأبى .. وما إن علم بنوع المولود الجديد حتى ترك أمى فى المستشفى وحيدة وأرسل إليها ، وهى ما زالت فى ضعف الولادة ، بورقة الطلاق.. فبكت حتى جف دمعها كما روت لنا .. وخرجت من المستشفى إلى بيت أهلها تحمل رضيعتها على ذراعيها .. ولم نجد نحن من يرعانا بعد ذلك سوى أخوالى وأهل أمى .. وبعد فترة ليست طويلة راح أخوالى يضغطون على أمى للزواج مرة أخرى لأنها ما زالت صغيرة السن ، وقبلت أمى تحت هذا الضغط بالزواج من قريب لها .. واقترنت به بالفعل وانتقلنا للحياة معها ومعه فلم تمض بضعة شهور حتى كانت قد حملت للمرة الرابعة ، ووضعت حملها فإذا به - يا سبحان الله - ولدان توءم ! بدلا من ولد واحد .. وسعدت أمى بهذين الولدين كثيرا واختلط مرحها بهما بالأسى على ما لقيته فى حياتها السابقة من ظلم أبى لها واتهامه لها بعدم إنجاب الذكور ، ومعاقبته لها على ذلك بالطلاق ، ومضت الحياة بنا وتقدمنا فى مراحل العمر ، وكلما روت لنا أمى شيئا جديدا عما لاقته من أبى خلال زواجها الأول ، ازداد كرهنا له ، خاصة أنا ، حتى لقد تمنيت ذات يوم لو استطعت أن أغير اسمى فى كل أوراقى الرسمية لكيلا احمل أسمه .. وبالرغم من عطف زوج أمى علينا ورعايته الأمينة لنا إلا أن ذلك لم يعوضنا أبدا عن ذلك الشىء الجوهرى الذى فقدناه ونحن صغار ، حين فقدنا الأب وافتقدنا وجوده فى حياتنا ونهوضه بمسئوليته عنا ، ومضت بنا الأيام وتقدم لأختى الكبرى شاب ناجح وتزوجته . وجاء الدور على كما يقولون فرفضت الزواج نهائيا ، لأننى قد كرهت الرجال فى شخص أبى ولم أعد أتصور أن يضمنى بيت واحد مع أحدهم... ورحت أرفض الخطاب واحدا بعد الآخر دون أسباب واضحة ، حتى اضطرت أمى بعد أن يئست منى إلى تزويج أختى الصغرى التى كانت تؤجل زواجها إلى ما بعد زواجى ، ورحت

أنا أبحث عن سبب لما فعله بنا أبى فلم أجد له عذرا من الناحية الدينية ولا من الناحية العلمية ، فلقد قرأت للإمام الراحل الشيخ الشعراوى أنه فى الوقت الذى كانت فيه الدنيا كلها تتهم النساء بأنهن مسئولات عن إنجاب الإناث دون الذكور جاء القرآن فأكد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الرجال والنساء من نطفة الرجل وأنه لا دخل للمرأة فى ذلك ، ثم جاء العلم الحديث فأكد أن تحديد النوع يأتى من جانب الرجل وليس المرأة .. فلم أجد بعد ذلك أى عذر لأبى فيما فعل بأمنا وبنا ورحت أدعو الله عليه فى صلواتى ليلا ونهارا .. وآمل أن يصيبه دعائى حيث يكون لأننا لا نعلم أين هو ولا إذا كان حيا أم ميتا .. فهل أنا مخطئة فى كراهيتى هذه لأبى .. وفى كراهيتى لجنس الرجال ورفضى للزواج .. إننى أرجوك أن تناشد كل الرجال ألا يظلموا زوجاتهم وبناتهم لكيلا يحكموا عليهن بالتعاسة والشقاء طوال العمر .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

كان الفيلسوف البريطانى برتراند راسل يقول ، إنه لكى تعيش سعيدا فى حياتك عليك أن تحسن « اختيار » أجدادك . وبالرغم من السخرية الواضحة فى هذه العبارة ، فإن مدلولها العلمى صحيح وهو أن الكثير من سماتنا الجسدية والنفسية تحددها العوامل الوراثية التى تسجننا إلى حد كبير فى سجن الجسد ، الذى نولد به ، وسجن الطبع الذى يتشكل من العوامل النفسية الوراثية والعوامل المكتسبة من بيئتنا العائلية وتجاربنا الشخصية . ويبدو أننا مطالبون كذلك لكى نحيا حياتنا فى سعادة أن نحسن أيضا اختيار آبائنا وأمهاتنا وأن نختار لأنفسنا طفولة سعيدة آمنة ترشحنا لمواجهة الحياة بتكوين نفسى سليم واستعداد طبيعى للسعادة .

ولأننا لا نستطيع للأسف اختيار أجدادنا وآبائنا وأمهاتنا

وطفولتنا ، فإن مسئولية الآباء والأمهات عن توفير هذه الطفولة السعيدة لابنائهم تظل دائما هى خير ما يقدمونه لابنائهم من عطايا وخير ما يرشحونهم به للحياة السوية الآمنة فى المستقبل.

وحالك خير مثال على ذلك يا آنستى ، فانت تدفعين الآن ثمنا غاليا لسوء تقدير أبيك وجهله بحقائق الحياة ونكوصه عن الرضا باقداره وتقاعسه عن تحمل مسئوليته الإنسانية عن بناته ، ولقد تفتحت مداركك للحياة وانت تنطوين فى أعماقك على أسوأ ما ينطوى عليه طفل فى طفولته وهو إحساسه الباطنى بانه عبء ثقيل على الحياة وأحد أسباب شقاء أمه أو أبيه بحياته بدلا من أن يشب وبداخله الإحساس السليم بانه هبة الأقدار الغالية لأبويه ، وموضع الإعزاز والحب الغامر من كليهما .

ولقد كان من الممكن أن ينحسر أثر هذا الإحساس المؤلم عليك إلى أقصى حد ممكن لو لم تكن والدتك قد أسرفت فى تنبيه هذا الإحساس لديك ولدى اختيك ، بالاسراف فى رواية ذكريات ماساتها الشخصية مع أبيكن ، وتعميق إحساسكن بأثر « النوع » على تحطم حياتها الزوجية الأولى ، والتركيز على عمق الجرح الذى خلفه هذا الأب الجاحد فى حياتها وحياة بناتها ، إذ تفاعلت كل هذه المؤثرات مع إحساسك المؤلم بافتقاد الأب الراعى المسئول عن بناته فى حياتك وأثرت على تشكيل نظرتك السلبية للرجال والزواج ، وتحول الرجل فى أعماقك إلى رمز لقهر الانثى وإيلامها والتخلى عنها ورغبتك فى عقلك الباطن فى تجنب التعرض لهذا القهر الذى لمست أثره المؤلم على حياة والدتك وحياتك وحياة أختيك فنفرت من جنس الرجال وأصبح الزواج لديك قرينا لتعرض الأنثى للإيذاء المعنوى والقهر والشقاء .

ولقد علمتنا تجربة الحياة أن الأبناء حين يكونون شهداء على التعاسة الزوجية لأبويهم فإنهم يتفاعلون مع ما يشهدون عليه من شقاء سلبا وإيجابا فيورثهم فى بعض الأحيان مثل هذا الأثر السلبى ، الذى يعجزون معه عن التفاعل السليم مع مؤثرات الحياة أو يورثهم فى أحيان أخرى الرغبة الحارة فى السعادة الشخصية فى حياتهم الخاصة والتمسك بما حرموا منه فى طفولتهم وصباهم من أسبابها والحرص على أن يجنبوا أبناءهم مرارة التعاسة والخوف من المستقبل التى تجرعوها هم فى حياتهم .

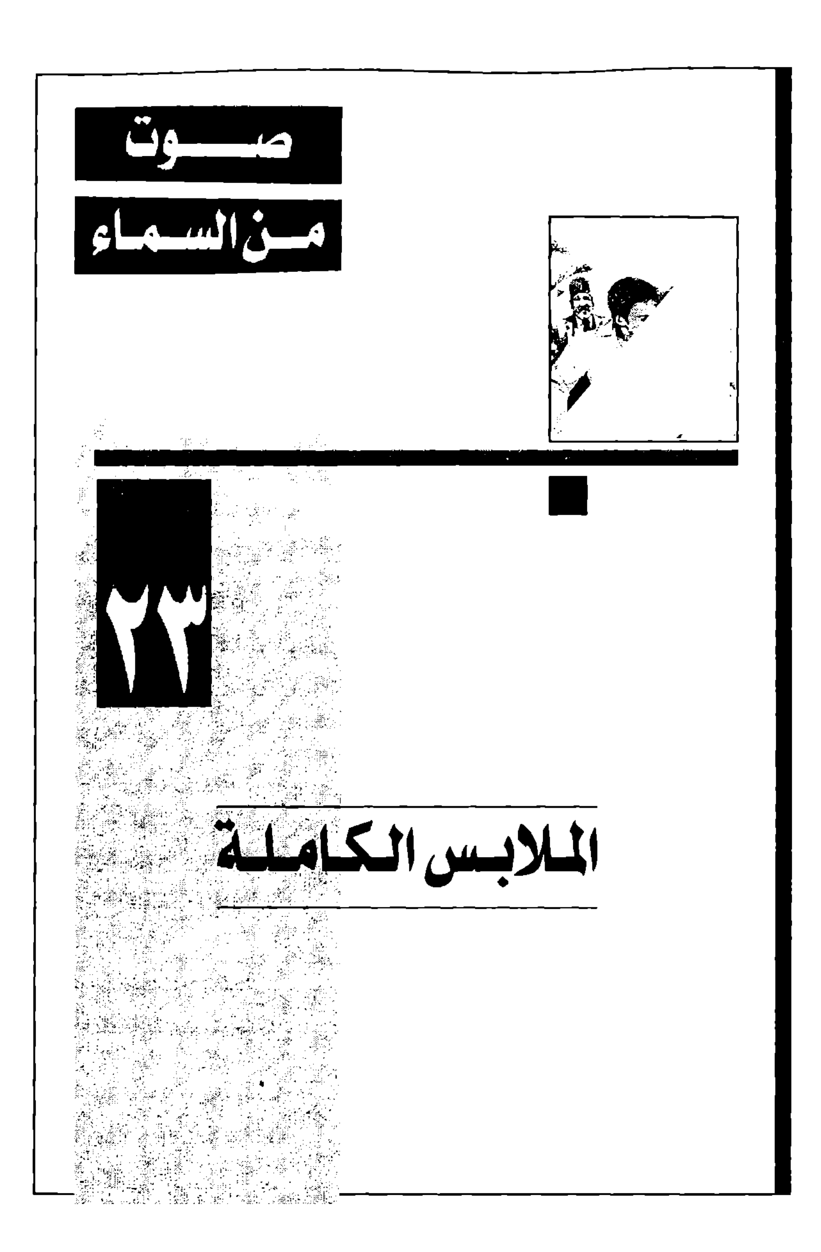
ولقد اختارت لك الأقدار هذا الأثر السلبى دون الآثار الأخرى وتعمق لديك الإحساس بالخوف من أن تتعرضى فى المستقبل لقهر الرجل الذى تعرضت له أمك فى الماضى مع أن تجربتها الثانية فى الزواج قد نجحت وحققت لها ولكن الأمان والاستقرار ، فلماذا ثبتت عيناك على تجربتها الأولى مع أبيك وحده ؟ ولماذا لم تجد تجربتها الثانية فى الوفاق الزوجى ما ينبغى أن يكون لها من أثر إيجابى على رؤيتك للرجل والزواج ؟ ولماذا أيضا لا تأملين فى تكرار تجربتى شقيقتيك فى الزواج السعيد والتعامل مع صنف آخر من الرجال ؟

إن الأمر على أية حال لم يخرج بعد عن نطاق السيطرة ومن الممكن دائما أن يعدل الإنسان من أفكاره الخاطئة فى أى مرحلة من العمر بمراجعة هذه الأفكار واختبار منطقيتها وبالحوار الهادىء العقلانى مع النفس .

فإذا سلمت بينك وبين نفسك ، بأنه لا ذنب لأحد فى ضيق أفق والدك ولا فى تخليه عن مسئولية بناته ، وأدركت أن البشر جميعا ليسوا أشباها متماثلين فى أفكارهم ورؤيتهم للحياة ، واسترجعت ما قاله الأديب والشاعر الألمانى جوته من أنه يندر أن

نجد بين أوراق الشجر ورقتين متماثلتين تمام التماثل ، ويندر أيضا أن نجد بين البشر اثنين تتفق آراؤهما وأساليب تفكيرهما تمام الاتفاق ، إذن لأدركت أنه لا يمكن أبدا تعميم حكم سليم على كل الرجال أو كل النساء اعتمادا على تجربتنا الشخصية مع واحد منهم أو واحدة منهن ، أو حتى مع بعض هؤلاء وهؤلاء .

فضعى الأمور فى نصابها الصحيح ، وتخلصى من خوفك المرضى من الرجال والزواج ولو تطلب ذلك الاستعانة بخبرة الطبيب النفسى ، وتعاملى مع الحياة بالإيمان الصحيح بخيريتها ، بالرغم مما يزعجنا من بعض مظاهر الشر فيها ، ولسوف ترشحين نفسك بذلك للتفاعل الإيجابى معها ولخوض تجربتك الشخصية فيها والابتهاج بها .


صوت
من السماء
٢٣
الملابس الكاملة

أنا سيدة متزوجة فى السابعة والعشرين من عمرى لى أختان ونشأنا فى ظل أبى وأمى فى بيت سعيد يشع بالمرح والتفاؤل والحيوية ، فكان والدنا أخا لنا وأبا لا مثيل له فى حنانه وطيبة قلبه ، وكان لنا يوم أسبوعى نخرج فيه معا كلنا للنزهة ، ويحب كل أفراد عائلتنا زيارتنا فى بيتنا ولم نشعر ذات يوم بأية مشكلة بين أبى وأمى ، وعلى حين كانت أمنا توجه كل جهدها لوظيفتها التربوية ولأعمال البيت ، فقد كان والدى يعطينا من وقته الكثير ويسمع لنا ويساعدنا فى حل مشاكلنا بعد عودته من عمله ، ثم مضت الأيام فى طريقها وتزوجت أنا وسعدت بحياتى وتزوجت شقيقتى التى تلينى ووفقت فى زواجها والحمد لله ، وخرج أبى إلى المعاش وكذلك والدتى فتقبلت أمى حياتها الجديدة بلا تذمر ، أما أبى فإنه لم يستطع تقبل الفراغ بسهولة وبحث عن عمل والتحق بشركة قطاع خاص لبعض الوقت غير أنه لم يعمل بها طويلا ، ولم يستطع التأقلم مع ظروف العمل بالقطاع الخاص ولا مع طريقة المعاملة فيه فتركه ورجع للبيت ، وأصبح أبى ، الذى كان شعلة للنشاط والحيوية قبل فترة قصيرة حبيس مقعده المفضل بغرفة المعيشة طوال الوقت يصحو من نومه مبكرا كعادته فيرتدى ملابسه الكاملة ، كما كان يفعل أيام العمل ويخرج إلى السوق ليشترى بعض متطلبات البيت ويرجع بعد نصف ساعة أو ساعة على الأكثر فيجلس

فى مقعده المفضل بلا حراك ولا حديث ولا ممارسة أى هواية ولا تجاوب مع أى شىء ، يمسك بالصحيفة فلا يقرأ فيها شيئا باهتمام وإنما يتصفحها سريعا ثم يلقى بها جانبا ويجلس أمام التليفزيون فلا يتابع شيئا فيه ولا يتجاوب مع شىء كأنما لا يراه ، ولا يزورنى فى بيتى ولا يزور أختى المتزوجة فى بيتها ولا يجامل احدا فى مناسبة ولا يزور مريضا ولا يتكلم مع أحد فى شىء مفيد ، ويظل مرتديا ملابسه الكاملة بالجاكيت والكرافتة والحذاء والجورب حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، ثم يستريح قليلا وينهض فيخرج لمدة ساعة أخرى فى المساء ويرجع فيظل بملابسه الكاملة إلى أن ينام .

وهكذا تمضى أيامه فى صمت شبه تام وكآبة وعزوف عن كل شىء ، لقد حاولنا مع أمنا كثيرا أن تشجعه على الحياة بدون عمل فتزيد من مساحة الكلام معه وتشركه فى بعض اهتماماتها المنزلية وتأخذ رأيه فى بعض المسائل ولو اضطرت لافتعال ذلك افتعالا ، ولكن دون جدوى ، لقد خيم الصمت على بيتنا ، الذى كان يفح بالمرح والحيوية من قبل ، وأنا وشقيقتى المتزوجة حزينتان على حال أبى بالرغم من أننا لا نعانى المشاكل مع زوجينا والحمد لله . وأتمنى أن توجه كلمة إلى أبى تساعده بها على تقبل حياته الجديدة خاصة أنها ليست مشكلته وحده وإنما مشكلة كثيرين من الرجال الذين يزجون إلى المعاش فتخلو حياتهم من العمل والهوايات ويستسلمون للكآبة .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الفارق الجوهرى بين نظرة البعض منا فى عالمنا الشرقى إلى مرحلة انتهاء الخدمة الحكومية أو العمل الوظيفى ونظرة الرجل إليها فى الغرب بصفة عامة ، هو أن الرجل هناك ينظر إلى مرحلة التقاعد باعتبارها « المكافاة » التى ترقبها طويلا لكى ينعم معها بالراحة وجمال الأوقات وممارسة الهوايات وزيارة الأماكن التى لم يتح له سباق العمل زيارتها ، والاهتمام بالعلاقات العائلية

والإنسانية التى حال الانشغال بالحياة العملية من قبل دون توجيه الاهتمام الكافى بها ، وتذوق الأشياء على مهل واستجلاء معانيها بعمق لم يكن متاحا له من قبل خلال سباق الحياة اللعين ، فى حين ننظر نحن أو بعضنا على الأقل إلى هذه المرحلة من العمر باعتبارها « عقابا » قدريا أنزلته بنا اللوائح الإدارية التى لم تسمح لنا بالاستمرار فى مواقعنا إلى النهاية ، وإيذانا بانتهاء الدور وفقد الاعتبار وانفضاض طلاب المصالح وأصحاب الرجاوات من حولنا بعد فقدنا قدرتنا السابقة على النفع والضرر.

وهذا هو أسوأ ما يفعله المرأ بنفسه أن يعتبر مرحلة الراحة بعد عناء العمل الطويل « عقابا » قدريا له ، وليس مكافأة له على سابق عطائه للحياة والعمل والأسرة .. والا يستمتع بهذه المرحلة الذهبية من العمر التى يسمونها فى الغرب Sugar Age أو سن السكر فيدرب نفسه على التنفس الهادىء المنتظم بعد اللهاث الطويل وراء الأهداف وعلى تذوق الأشياء والمعانى والعلاقات الإنسانية بعمق أكبر والاستمتاع بها وبحياته الجديدة فى ظلالها .. إن مرحلة المعاش ليس كما يتعامل معها البعض منا ، مرحلة انتهاء الدور فى الحياة العملية وانتظار الرحيل الأبدى وإنما هى مرحلة الحياة على مستوى العمق الإنسانى بعد الحياة على المستوى الأفقى خلال رحلة العمل السابقة .

وأكثر الناس تواؤما معها وسعادة بها هم من يراجعون رحلتهم السابقة مع الحياة العملية ويرضون عنها وعن عطائهم خلالها ويرون أنفسهم جديرين بالراحة الإيجابية وتعويض ما فاتهم الاستمتاع به من الصداقة الإنسانية والعلاقات الأسرية وممارسة الهوايات المفيدة ، فضلا عن العبادة باستغراق أكبر وتامل أعمق ، والرغبة فى إفادة الحياة بوجودهم فيها ، ابتداء

من تقديم المساعدة بالجهد والرأى لمن يحتاج للمساعدة من الأهل والأقارب والأصدقاء ، إلى الكلمة الطيبة التى تصدر عن الناس فيسعد بها الآخرون .

إن كثيرين من العقلاء يعتبرون هذه المرحلة من العمر هى أثمن مراحل العمر التى يتحقق لهم فيها الفهم الصحيح للحياة والاستمتاع الحقيقى بثمراتها لكن والدك فيما يبدو يا سيدتى مازال يعتبر خلو حياته من العمل « عقابا » قدريا له لا يتقبله برضا .

ولو أحسن إلى نفسه لراجع قائمة صداقاته القديمة وعلاقاته العائلية التى تقطعت بسبب مشاغل الحياة والعمل وبعث فيها الدفء من جديد ، ولأقنع نفسه بان كل شىء فى الحياة جدير بالاهتمام به والتجاوب معه ، والانفعال به ، ولبدأ بتوجيه قدر أكبر من الوقت والجهد للعبادة ومحاولة درس القرآن واستجلاء معانيه السامية أو بممارسة القراءة المتعمقة فى الدين والحياة والأدب والعلوم الإنسانية ، لكى يكتشف عالما سحريا جديدا سوف يعجب لنفسه كيف غاب عنه من قبل ، ولعرف أن الإنسان يحتاج لكى يعرف بعض ما ينبغى له أن يعرفه فى الحياة لأكثر من عمر واحد من بدايته حتى نهايته .. لقد قال الشيخ الجليل محمد الغزالى يرحمه الله وهو فى الخامسة والسبعين من عمره فى بعض كتبه إنه ما أحب أن تنتهى حياته قبل تلك السن بخمسة عشر عاما أو عشرين ، وإلا لما كان قد أدرك ما أدركه خلال تلك المرحلة المتأخرة من عمره ، ولما كانت معارفه قد أثريت كما أثريت خلالها ولما نفع الآخرين بعلمه ، كما نفهم فى هذه المرحلة من العمر ، ومن قبل قال الفيلسوف الفرنسى رينوفيه وهو فى الثمانين من عمره : ساترك الدنيا قبل أن أقول كلمتى النهائية

فيها ، لأن ما اريد قوله لن يتسع له العمر للأسف وهذا أشد أحزان الحياة إثارة للشجن !

إن فقد الاهتمام بالأشياء والأشخاص والمعانى هو الموت الحقيقى من قبل مجيئه وكل إنسان يستطيع أن يحتفظ بقدرته على الاهتمام بالحياة وان يقول كلمته فى الدنيا ، فإذا لم يكن فيلسوفا ولا عالما فى الدين فإنه يستطيع على الأقل أن تكون كلمته فى الدنيا هى السعى فى سبيل الخير ومحاولة فهم الناس والصفح عنهم .. كما قال كاتب أمريكى وهو فى السبعين من عمره .. والكلمة الطيبة صدقة كما يقول لنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .. فكيف يستطيع إنسان ان يقول إنه لم يعد له دور فى الحياة بمجرد انه قد بلغ سن التقاعد ؟!


صوت
من السماء
٢٤
السنوات الجميلة

بالرغم من أننى قارئة مستديمة لبريد الجمعة إلا أننى ترددت طويلا فى الكتابة إليك ، حتى قرأت رسالة الجوانب المضيئة فشجعتنى على أن أروى لك قصتى مع الأيام ، فلقد روى لك فيها كاتبها الشاب كيف فقد أمه وهو طفل صغير فاحتضنته جدته وأصبحت أما بديلة لها .. ثم لقيت وجه ربها وتكررت تجربة اليتم الأليمة فى حياته وانتقلت حضانته إلى زوجة أبيه فكانت لحسن الحظ ممن غرس الله سبحانه وتعالى الرحمة بالأيتام فى قلوبهن ، فرحمته وعطفت عليه وأحسنت رعايته . فإذا به يفقدها هى الأخرى ويستشعر مرارة اليتم من جديد ، وكان أن تركت عليه تجربة الأيام بصماتها فى مرض بالكبد ، وضعف فى السمع الخ ، ولقد رددت عليه مهونا وداعيا إياه إلى التمسك بالإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره ، والأمل فى الغد ، واختتمت كلمتك له ، بأن لدى الإنسان ميلا غريزيا للرثاء للنفس ، وأن هذا الميل قد يكون له ما يبرره فى بعض الأحيان ، وقد لا يكون هناك ما يدعو إليه ، لكنك ترى أن رثاء هذا الشاب لنفسه عن حق وله ما يبرره وأريد أن أروى لك قصتى لتحكم على هذا الميل لدىّ وترى إذا ما كنت محقة فيه أم مغالية فى إحساسى به فى بعض الأحيان فأنا فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرى وحين كنت طفلة فى التاسعة من عمرى ذهبت إلى الشاطئ مع أبى وأمى وشقيقتى فى إجازة وخلال لهوى مع

أخى فوق الرمال لاحظت أمى شيئا غريبا استوقفها فى ظهرى .. وأسرت لأبى بملاحظتها وشكوكها فاتهمها بالوسوسة والخوف المبالغ فيه على أطفالها لكن أمى لم يهنأ لها بال حتى قامت بعرضى على أحد الأطباء فطلب إجراء العديد من التحاليل والأشعات ، وفى النهاية قل لوالدتى أنها أم ممتازة لأنها قد لاحظت شيئا قد تفوت ملاحظته على الكثيرين ، وصارحها بأننى مصابة بعيب خلقى فى العمود الفقرى عبارة عن إعوجاج فى بعض فقراته من الأسفل إلى الأعلى وأنها حالة نادرة لكنها تتطلب إجراء جراحة عاجلة لعلاجها وإلا فإنها سوف تتفاقم ويزداد الاعوجاج وينتهى بالتفاف العمود الفقرى حول الرئتين والوفاة .

وانهارت أمى حين سمعت ذلك ، وأرادت أن تتأكد من صحته فعرضتنى على أربعة أطباء آخرين أكدوا لها صحة هذا التشخيص ، وحذروها من التأخر فى إجراء الجراحة ، وانتهى الأمر باختيار أحد الجراحين لإجراء العملية ودخلت المستشفى قبل موعدها بأسبوع لإجراء المزيد من الفحوص والتحاليل ، وذات يوم جاءت إلىّ المرضة التى كانت ترعانى فى المستشفى - واصطحبتنى معها وفى الطريق عبر ممرات المستشفى نظرت إلىّ باشفاق ثم سألتنى : هل تحفظين الفاتحة ؟ وأجبتها بالايجاب فطلبت منى أن أقرأها وأكرر قراءتها طوال سيرنا فى الممرات ، وفى إحدى الغرف طلبت منى المرضة خلع ملابسى ، وارتداء قميص أبيض ووضع « بونيه » من البلاستيك فوق رأسى وفعلت ما طلبت ثم قادتنى إلى غرفة أخرى يسودها اللون الأخضر فى الحوائط والأثاث ، ويقف بها رجال يرتدون معاطف خضراء اللون ابتسموا جميعا فى وجهى ثم اقترب منى أحدهم وطلب منى أن يرى يدى فمددتها له فوخزنى بإبرة فى كفى الصغيرة ، ولم تمض دقائق حتى كنت قد غبت عن الوعى لفترة لا أدريها ، وأفقت من غيبتى فوجدت أبى وأمى حولى وهما يبتهلان إلى الله حمدا وشكرا

على سلامتى ، وعرفت أنه قد أجريت لى الجراحة المطلوبة ووجدتنى لا أقوى على تحريك قدمى واستمر الحال هكذا شهرا كاملا وتبين أننى قد أصبت بشلل مؤقت وغادرت المستشفى وأخى يدفعنى أمامه على الكرسى المتحرك ، وأمضيت أيامى حبيسة البيت أجلس فى الشرفة أرقب الأطفال وهم يلهون ويجرون فى الشارع ولا أعرف سببا لعجزئ عن أن أفعل مثلهم ، وقبل أن يتمكن اليأس والاحباط منى جاء أبى وأمى لى بطبيب متخصص فى العلاج الطبيعى ، فراح يعلمنى على مدى ثلاثة شهور بصبر وإخلاص المشى كما يعلم الإنسان طفلا يبدأ عامه الثانى ، إلى أن استطعت المشى بالفعل وسعدت بذلك كثيرا لكن ذلك لم يكن نهاية المعانة وإنما بدأت رحلة أخرى من العذاب ، فلقد قام الجراح بوضع شرائح معدنية ومسامير لسند العمود الفقرى بعد الجراحة ، ولم يتقبل جسدى هذه الأجسام الغريبة فكونت خلاياه صديدا حول الجرح وداخله ، وتطلب الأمر إجراء ٨ عمليات جراحية أخرى لى على مدى حوالى ٥ سنوات ، كان آخرها لتكسير عظام الحوض وأخذ أجزاء منها لسند العمود الفقرى حتى لا يقوم الجسم بإفراز صديد جديد حوله ، وشاءت الأقدار لى فى آخر هذه العمليات أن تقع زجاجة صبغة اليود من يد الطبيب المساعد ، فيسقط السائل الحارق على وجهى ورقبتى ويصيبها بالحروق ، وعانيت بعد ذلك آلاما قاسية فى الظهر والحوض والوجه والرقبة ، وتوفى طبيبى المعالج إلى رحمة الله وأفتقدنا إخلاصه ودرايته بحالتى ، ومضى بعض الوقت حتى تعرف خالى بالمصادفة على طبيب شاب يدرس نفس هذه الحالة ، فتولى علاجى وأنقذ حياتى حين أخرج من جسمى ١٣ غرزة بخيوط الجراحة كان من المفترض أن تتحلل داخل الجسم ، لكنها لم تتحلل واستمرت رحلة العذاب هذه منذ اللحظة التى شكت فيها أمى فى سلامة ظهرى إلى أن أذن الله بالشفاء وانتهاء المعاناة خمس سنوات كاملة استغرقت أجمل الأعوام من سن التاسعة إلى

الرابعة عشرة ، وحرمت طوالها من النوم الطبيعى بسبب ما عانيته من آلام ، فإذا سكتت الآلام بعض الشىء أطار النوم من عينى بكاء أمى وابتهال أبى إلى الله داعيا لى بالشفاء ، كما لم يغب عن مخيلتى ابدا ولن يغيب إلى النهاية وجه أخى وهو يضرب رأسه فى الحائط تألما وضيقا حين رأى وجهى محترقا بسبب صبغة اليود .

وطوال هذه الأعوام الخمسة لم أتخلف عن مواصلة الدراسة ، وبعد انتهائها بسلام اجتزت الثانوية العامة والتحقت بكلية نظرية مرموقة ووفقنى الله فى النجاح والحصول على شهادتها بتقدير جيد جدا ، وكان ذلك من فضل الله وبفضل أبى وأمى اللذين لم يدخرا وسعا فى رعايتى وعلاجى فى أفضل المستشفيات وعرضى على أكبر الأطباء ، فإذا كنت قد أسيت لشىء فى كل ما لقيت من عناء ، فعلى أننى لم أستمتع بالسنوات الجميلة فى حياة كل ابنة - أو ابن ، فلم استمتع ببراءة الطفولة ولا شقاوة سنوات المراهقة ، ودخلت مرحلة الشباب والدراسة الجامعية وأنا أخشى العلاقات الاجتماعية حتى لا أضع نفسى موضع تساؤل قد يحرجنى أو يجرحنى ، كما لم أفكر فى الارتباط بأى شاب حتى لا أثير موضوع الجراحات مع أحد ، إلى أن ساق القدر لى وأنا فى السنة النهائية بالجامعة زميلا لى فى نفس القسم عبر لى عن إعجابه بى وإنبهاره بهدوئى ورقتى وصارحنى برغبته فى الارتباط الرسمى بى ، ففتح بذلك باب الأمل أمامى ، ودعم ثقتى به وشجعنى ذلك على أن أروى له قصتى مع الجراحات التى أجريتها واستقبل هو كل ذلك بهدوء تام ، لكن والدته قابلت رغبته فى الارتباط بى بإعلان الحداد العام وعارضت اختياره لى وإصراره على الارتباط بى بشدة متناهية واتهمته بأنه يحب فتاة قد تكون عاجزة أو معوقة ولم يكن ذلك صحيحا لأن هذه الجراحات أجريت لى منذ عشر سنوات ولم يكن من الرحمة أو العدل أن تعاقبنى على ما لا ذنب لى فيه ، كما أهانتنى والدته سامحها الله وأهانت أسرتى بدلا من أن

تقدر لأبى وأمى ما بذلاه من جهد فى رعايتى وعلاجى وإسعادى وصورت الموقف على أننى قد نصبت لابنها فخا وقع فيه باستدرارى لعطفه لكى يرتبط بى ، وانتهى الأمر بأن عجز هذا الشاب عن تحمل ضغوط أمه عليه ، فاعتذر لى عما سببه من آلام وغادر البلاد كلها للعمل فى الخارج .

فإذا كنت قد وجدت فى نفسى القدرة على أن أروى لك قصتى هذه فلكى أقدم لأبى وأمى أطال الله عمريهما بعض ما يستحقانه من شكر وعرفان لما قدماه لى من عناية واهتمام وحنان لو ظللت بقية العمر اشكرهما على ما قدماه لى فلن أفيهما بعض حقهما على ، ولا أملك إلا أن أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظهما من كل سوء ويهبهما الصحة وطول العمر ، وكذلك لكى أقول لك ولقرائك أن الإيمان بالله وقوة الإرادة ، كانا السر الحقيقى فيما أنا فيه الآن من نعمة الصحة والتوفيق فى الدراسة ، والحياة السعيدة بين أبى وأمى وأخى حفظهم الله لى ، كما أننى لست ساخطة على أقدارى ، ما دامت إرادة الله سبحانه وتعالى هى التى اختارتنى لهذا الاختبار الصعب ، وها أنا الآن فى أتم صحة وعافية وقد حققت الكثير من النجاح فى حياتى العملية ، وما زلت اتشوق للمزيد فإذا كنت أشعر ببعض الأسى على السنوات الجميلة التى ضاعت فى المعاناة والألم فأنى أرجع إلى نفسى من جديد وأرى الجوانب المضيئة حولى من حب أبى وأمى وأخى لى وتوفيقى الدراسى .. وأحمد الله على كل شىء .. وأرجو رحمته وفضله والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إذا كنت تاسين على سنوات العمر الجميلة التى تبددت فى المعاناة والآلام ، فلسوف تهديك الأقدار الرحيمة ما هو اجمل منها فى قادم الأيام بإذن الله ، ولسوف تنهال عليك جوائز السماء فتمسح على كل الأحزان وتعوضك عن كل ما قاسيت من آلام ،

ولا عجب فى ذلك يا آنستى ، فانت تملكين كل مؤهلات السعادة والتوفيق فى الحياة إن شاء الله - ومن أهمها هذه النفس الرضية الراضية باقدارها وبكل ما تحمله إليه أمواج الحياة ، وهذا القلب العطوف الذى يتسع لحب الأبوين والأخ الوحيد ويذكر لهم كل ما قدموه له .. ويتفاعل بالحياة بالرغم مما شهدته رحلة العمر من بعض الأحزان .

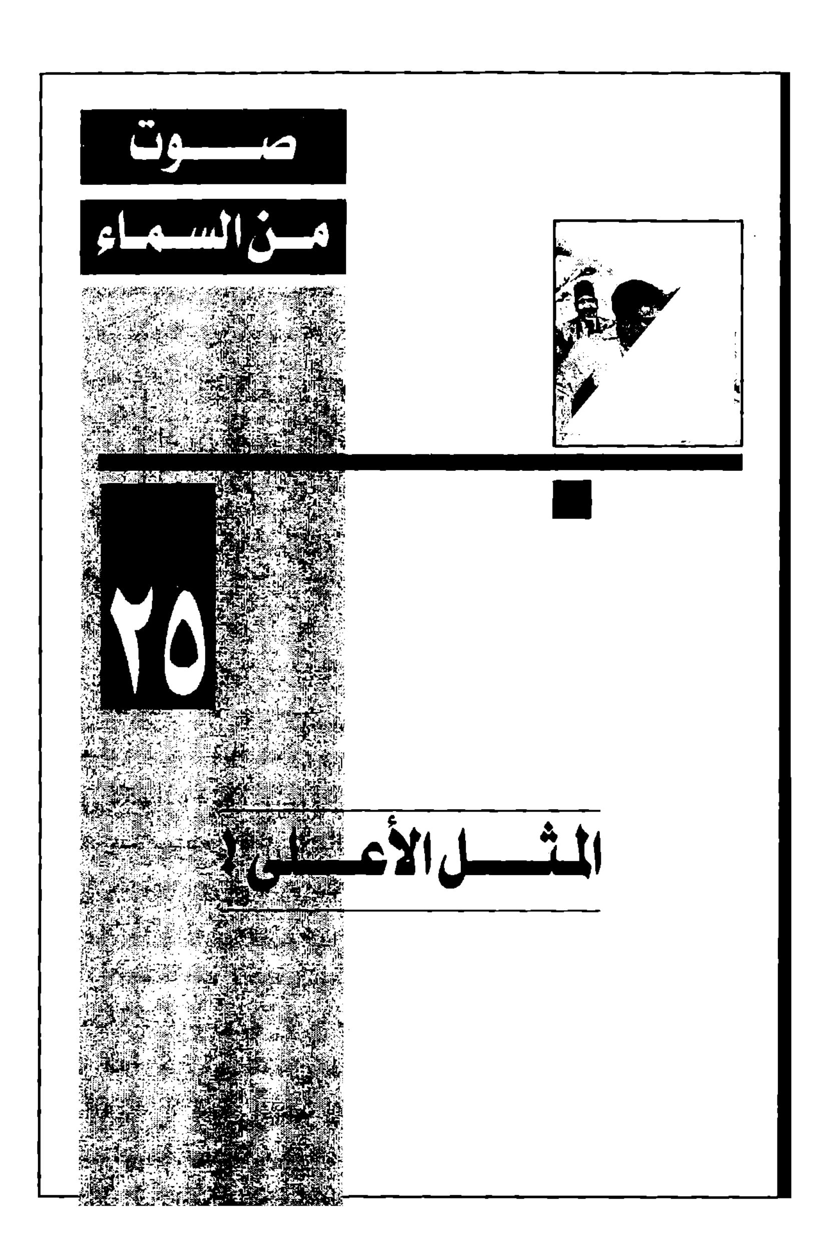
كما أنك يا آنستى قد دفعت ضريبة الألم مبكرا واستوفيت حتى الآن نصيبك من المعاناة، وكل ذلك لابد له أن يرشحك لنيل نصيبك العادل من السعادة والهناء ، ولم يبق لك إلا انتظار الأقدار السعيدة والتهيؤ لاستقبالها قريبا بإذن الله ، ولسوف تكون سعادتك حقيقية كما كانت آلامك من قبل حقيقية .

ولسوف يكون احتفاؤك بها واستشعارك لكل لمحة من لمحاتها صادقا ومضاعفا بإذن الله ، لأننا نعرف الأشياء باضدادها وندرك قيمة الصحة حين نمتحن بالمرض ، وقدر الأهل حين يغيبون عن حياتنا ، ويزداد إحساسنا بقيمة السعادة حين نكون قد تجرعنا من قبل كؤوس الشقاء ، فاما أهم ما يرشحك لنيل سعادتك المستحقة ، من بعد إيمانك بربك ورضاك باقدارك ، فهو هذا الإحساس الغامر بالعرفان لأبويك والإدراك العميق لقيمة ما قدماه إليك من حب وعطف ورعاية واهتمام ، فهذا البر بالأبوين والوفاء لهما من اهم مؤهلات السعادة والتوفيق فى الحياة ، ونادرا ما نعم إنسان بهما فى حياته إذا كان قلبه قد خلا من البر بأبويه والعطف عليهما ، فإن صادف أحد الجاحدين لآبائهم وأمهاتهم بعض مظاهر التوفيق فى الحياة ، فإنما لكى يملى الله سبحانه وتعالى له ، قبل أن ياخذه ذات يوم أخذ عزيز مقتدر ، أو قبل أن يذيقه مرارة ما اذاقه هو لأبويه من مرارة الجحود على أيدى أبنائه من الجاحدين ، فيندم حين لا ينفع

الندم ، ويرجو لو كان العمر قد طال بابويه ليصلح ما افسده بجحوده لهم .

ولقد ذكرتني كلماتك الطيبة عن ابويك ، وإحساسك النبيل بانك لو قضيت العمر تلهجين بشكرهما على ما قدماه إليك لما وفيتهما بعض حقهما عليك ، بما قيل عن او فى الطيور بابويه وهو طائر الهدهد الجميل ، فلقد قيل عنه انه إذا شاخ أبواه حمل إليهما الطعام وراح يزقهما - اى يضع الطعام بمنقاره فى منقاريهما - كما كانا يفعلان معه صغيرا ، وكما يفعل هو مع صغاره ، وزعمت بعض الأساطير أن التاج الذى يحمله على رأسه هو رمز لبره بابويه ووفائه لهما ، فقد قالت الأساطير أن أمه قد ماتت فى الزمن القديم وحملها على راسه حتى واراها التراب فكافاه ربه على بره بابويه بان منحه تاجا من الريش يزدان به ويكون رمزا لوفائه .

فهنيئا لك يا ابنتى بتاج الوفاء الذى تحملينه الآن على راسك وهنيئا لك بما سوف يرشحك له من سعادة وتوفيق فى الحياة بإذن الله . فإذا كانت تجربة الارتباط الأولى فى حياتك قد خلفت وراءها بعض الجراح ، فلعل الأقدار تدخرك لمن هو أحق بك واقدر على إسعادك من الجميع « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم الله وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » صدق الله العظيم .. ولسوف ياتيك ما هو فى علمه وحده سبحانه حين ياذن بذلك .. إن شاء الله ..


صوت
من السماء
٢٥
المثل الأعلى!

أنا شاب فى الثالثة والعشرين من عمرى نشأت بين أبوين طيبين مكافحين وأنا أصغر أخوتى حيث تكبرنى أختان ثم الأخ الأكبر .

■ وكان والدى موظفا حكوميا صغيرا بمدينتنا القريبة من القاهرة وتفتحت عيناى للحياة فوجدت كل شىء فى محيط أسرتنا يدور حول محور أخى الأكبر الذى يتقدم فى الدراسة بنجاح وتتعلق به آمال أبى فى أن يراه ذات يوم رجلا له شأن فاعتدت منذ صغرى احترام شقيقى هذا ورضعت حبه مع لبن أمى ، ورأيت أبى لا يكف عن الإشادة باجتهاد أخى وجديته ورجولته المبكرة ويدعونى أنا وشقيقتى لاتخاذه مثلا أعلى لنا فى الحياة ، ويوما بعد يوم أثبت أخى لأبيه أنه عند حسن ظنه به بالفعل فحصل على الثانوية العامة بمجموع كبير ، ورشحه مكتب التنسيق للالتحاق بإحدى كليات القمة ، وأشفقت أمى على أبى من احتمال نفقات الدراسة المكلفة فى هذه الكلية وتساءلت : كيف ستواجهها الأسرة ، ومرتب أبى لا يكاد يكفى للنفقات الضرورية فإذا بالجواب يجىء من شقيقتى الوسطى التى تلى هذا الأخ فى السن ، فتعلن لأبى أنها لا ترغب فى مواصلة الدراسة لأنها لا تميل إليها وتفضل أن تعمل بالشهادة الإعدادية لتساعده فى نفقات الحياة ، وحاول أخى الأكبر للأمانة إقناعها بالاستمرار فى الدراسة ، مؤكدا أنه سيتدبر أمره فى القاهرة حين

يلتحق بكليته لكنها أصرت على قرارها ، وبالفعل توقفت أختى عن الدراسة التى لم تكن موفقة فيها ونجح أبى فى إلحاقها بوظيفة مؤقتة فى المصلحة الحكومية التى يعمل بها بمرتب بسيط ، ونجحت هى فى العثور على عمل كسكرتيرة بعيادة أحد الأطباء بعد الظهر ، والتحق أخى بكليته وأراد أبى أن يترفق بأختى فاكتفى بمساهمة أختى بمرتبها من الوظيفة الصباحية فى نفقات الأسرة ، وترك لها أجرها عن الوظيفة المسائية لتنفق منه على نفسها وتدخر بعضه لجهازها حين يجىء ابن الحلال ، وشدت الأسرة الأحزمة على بطون أفرادها لكى توفر لأخى نفقات الدراسة ، وراح أبى يتنقل من عمل إضافى إلى آخر ليزيد دخله ويشترى للابن الأكبر الملابس اللائقة وأدوات الدراسة والكتب الغالية . وكل ذلك ونحن سعداء ونحلم باليوم الذى سيتخرج فيه شقيقنا ويحقق آمال الأسرة فيه ، ولم يخيب أخى ظنوننا فقد راح ينتقل من سنة إلى أخرى بنجاح ، وكلما رجع إلينا فى الإجازات انحنى على يدى أبى وأمى يقبلهما ، واحتضن شقيقتى الوسطى والصغرى ، وقبل رأسى وأكد للجميع اعتزازه بهم واعترافه بفضلهم عليه .

وحصل شقيقى على شهادته المرموقة وأدى الخدمة العسكرية وعين فى وظيفة ممتازة وتخففت الحياة فى أسرتنا من بعض جفافها وشدتها ، وسعد أبى بما حققه أخى سعادة طاغية ، غير أن سعادته هذه لم تطل كثيرا إذ توفاه الله فجأة وهو عائد من عمله المسائى وبكيناه كثيرا وكان أكثرنا حزنا عليه أخى الأكبر .

وكنت عند وفاة أبى استعد لدخول امتحان الشهادة الإعدادية ، فتزلزلت حياتى ، وكانت النتيجة أن فشلت فى الامتحان واستاء لذلك أخى الأكبر وعنفنى بشدة ووعدته بأن أبذل أقصى جهدى فى السنة المقبلة ، وفعلت ذلك بالفعل ودخلت الامتحان ونجحت فيه بمجموع ضعيف ، ولم يعد من سبيل أمامى سوى اختصار طريق التعليم

والالتحاق بمدرسة متوسطة .. وغضب منى أخى لذلك كثيرا وخاصمنى بعض الوقت ، لكنه نسى غضبه بعد فترة ، حين استعطفته أمى علىّ ، ومضت الأيام بنا ونحن نتدبر حياتنا بصعوبة بمعاش أبى ودخل أختى الوسطى ، ثم جاء عريس لها وقبلت به لأنه زميلها فى العمل فرفضت أمى أن توافق عليه قبل أن يرجع أخى ويقرر ما يراه فى شأنه .وبعد بعض المداولات وافق عليه أخى وهو كاره لأن وظيفته صغيرة ومرتبه ضئيل وشهدت هذه الفترة من حياتنا بعض المشاكل العائلية ، فلقد اشتكت أختى من سوء معاملة أخى لخطيبها .. وقالت إنه يتكبر عليه ويشعره بأنه غير كفء لمصاهرته ، لكن الأمور مضت فى طريقها فى النهاية ، وتزوجت أختى بامكانات بسيطة وشعرت ببعض المرارة تجاه أخى لأن مساعدته لها كانت أقل مما قدمته هى له ، ودافع هو عن نفسه بأنه مازال فى بداية مشواره وأيدته أمى فى ذلك ونهت أختى عن الشكوى . أما أختى الصغرى فقد واصلت تعليمها حتى حصلت على الثانوية العامة والتحقت بمعهد فوق المتوسط بمدينتنا وفى هذه الأثناء فاجأنا أخى الأكبر بأنه قد تقدم إلى زميلة له فى العمل من أسرة عالية المستوى ، دون أن يصطحب أمه وأخوته معه فى طلب يدها ، مكتفيا فى ذلك بقريب لنا من بعيد يعمل بالقضاء !

وحزنت أمى لتجاهلها فى هذه المناسبة التى كانت ترقبها لتسعد بها وشعرت شقيقتاى بالمرارة والإهانة . أما أخى فإنه لم يزد على أن قال فى ضيق إنه فعل ذلك لكى يوفر علينا مشقة السفر للقاهرة !

لكن الإشارة لم تخف على احد ، وأحسسنا جميعا أن شقيقنا الأكبر الناجح لا يرانا لائقين اجتماعيا لمصاحبته فى خطبة فتاة من أسرة راقية .

وأكدت الأيام لنا بعد ذلك توجساتنا فلقد مضى فى بقية الخطوات بغير أن يدعونا لمشاركته فيها ، إلى أن حل موعد الزفاف ، فدعانا

إليه ، ورأينا مسكن الزوجية الذى كان قد حصل عليه قبل عامين لأول مرة وشهدنا أثاثه الجميل ، وعرفنا أنه يعمل بمكتب مهنى بعد الظهر ، وإن الله قد أكرمه على اجتهاده ويسر له طريقه ، وذهبنا إلى حفل الزفاف فوجدنا أنفسنا فيه غرباء لا نعرف أحدا ولا يعرفنا أحد وأنزوينا فى ركن من الصالة فى خجل وانتهى الزفاف وسافرنا فى الليل عائدين إلى مدينتنا ، ورجع أخونا وعروسه إلى مسكن الزوجية.

ومضت الأيام فلاحظت أمى تباعد زيارات أخى لنا .. وتعمده أن يجىء وحيدا بدون زوجته كل مرة ، كما لاحظت أيضا أنه قد كف يده عن مساعدتها بأى مبلغ بحجة أنه مدين ببعض ديون الزواج .

ومضت الأيام فى طريقها فأصبح العام الطويل يمضى دون أن يجيئنا أخى مرة واحدة ، ودون أن يسأل عنا ، وأصبحت الصلة الوحيدة بيننا وبينه هى المكالمة التليفونية كل شهرين أو ثلاثة ، وحصلت أختى الصغرى على شهادتها فوق المتوسطة وأكرمها ربها بالعمل وبدأت تساعد نفسها ، ثم جاءها خاطب مناسب فطلبت منى أمى الاتصال بأخى ودعوته للحضور لمقابلة الخطيب والتفاهم معه ، واتصلت به فى بيته ، فأجابنى فى ضيق بأنه مشغول ولن يستطيع الحضور قبل شهر أو شهرين وأبلغت أمى الرسالة فاكتأبت وأوصتنى بألا أبلغ أختى بها ، وبعد ثلاثة أيام طلبت منى السفر إلى القاهرة ورجاء أخى أن يرجع معى ليقابل خطيب أختى ولو لمدة ساعة فقط ثم يرجع لحياته مرة أخرى ، وأعطتنى أمى عشرين جنيها لمصاريف السفر ، وركبت الأتوبيس للقاهرة وتوجهت إلى بيت أخى وطرقت الباب ففتحته لى زوجته وحييتها بمرارة ففوجئت بها تسألنى فى تجهم من أنت ؟

وصدمت للحظات لكنى التمست لها العذر لأنها لم ترنى سوى فى يوم الزفاف ، وقدمت لها نفسى ، فرحبت بى فى تحفظ وقادتنى للصالون ثم اختفت داخل الشقة وجلست وحيدا انتظر لمدة نصف

الساعة دون أن يظهر أحد ، وأخيرا جاء أخى مرتديا البيجامة والروب ومتجهم الوجه فتهللت لرؤيته وهممت باحتضانه وتقبيله لكن جموده منعنى من ذلك ، وحييته فرد التحية باقتضاب وسألنى عما جاء بى فأبلغته الرسالة وأنا فى قمة الحرج والارتباك فقال لى إنه لم يكن هناك داع لحضورى من مدينتى لهذا الغرض وحده ، وإنه سيحاول إكراما لأمنا أن يأتى بعد أسبوعين ، ثم سألنى هل معك نقود للعودة ؟ فأجبته بالإيجاب فنهض وقادنى إلى باب الشقة وهو يطلب منى إبلاغ تحياته لأمى وأخوته ، وينصحنى بالسفر على الفور قبل أن تتوقف المواصلات ! وغادرت مسكنه وأنا فى قمة الخجل والاضطراب .

ورويت لأمى ما حدث فبكت وطلبت منى أن أسامحه .. لكنى طمأنتها إلى أننى لست حاقدا على أخى أو غاضبا منه ، لأنه أخى فى النهاية .. وفى مقام والدى مهما فعل .

وجاء أخى لمقابلة خطيب أختى الصغرى .. ولم تجرؤ أمى بالرغم من كل شىء على معاتبته على شىء لأنها ضعيفة معه واكتفت بالترحيب به ، وانتهى الموقف بالموافقة على الخطيب والاتفاق معه على التفاصيل .

وتجرأت أمى فطلبت من أخى بعض المساعدة فى جهاز أختى لأنها عملت قبل عدة شهور فقط ولم تدخر الكثير فأشار برأسه متجهما أنه سيفعل ما تسمح به ظروفه .

وخلال فترة إعداد الجهاز أرسل أخى مساعدته وكانت مبلغا أقل بكثير مما توقعته أمى لكنها بالرغم من ذلك دافعت عنه بأن عليه مسئوليات كبيرة خاصة بعد أن أنجب طفلا .. واقترضت أمى وأختى الصغرى من كل أقاربنا ، وقامت أختى الوسطى بعمل جمعية إدخار من أجل أختها رغم ظروفها القاسية وكثرة أعبائها كأم لطفلين ، وتزوجت فى النهاية وتنفسنا الصعداء وخلال ذلك كنت قد حصلت على شهادتى المتوسطة .. والتحقت بالخدمة العسكرية وجاء تجنيدى

فى موقع قريب من القاهرة ، فأمضيت فترة التجنيد كلها معتمدا على ما تعطيه لى أمى من نقود قليلة وعلى ما أحصل عليه بالعمل فى مقهى مدينتنا خلال أيام الإجازات .، ولم أفكر مرة واحدة فى اللجوء إلى أخى . وفضلت أكثر من مرة حين لا أجد وسيلة مواصلات فى الليل ، المبيت فى محطة السكة الحديد انتظارا لقطار الصباح ، على أن أذهب إلى بيته للمبيت فيه تخوفا من إحراجه أو من جفاء المقابلة منه ومن زوجته وانتهت فترة الخدمة العسكرية بخيرها وشرها ، ووجدت عملا مؤقتا فى مدينتى بمائة وخمسين جنيها فى الشهر وحمدت الله سبحانه وتعالى على ذلك خاصة وقد خلا بيت الأسرة على وعلى أمى بعد زواج الأخت الصغرى ، وأصبح معاش أمى ومرتبى كافيين لنفقات الحياة ، ولقد كان من الممكن أن تستمر حياتنا هادئة لولا أن أمى والأختين لا يكففن عن الشكوى من تباعد أخى الأكبر عنا .. ومرور الشهور الطويلة دون أن يسأل عنا بمكالمة تليفونية فى بيت الجيران ، أو يصل رحمه معنا ، ودون أن نزوره بالطبع لأننا جميعا قد تعلمنا الدرس ووعيناه كما مرضت أمي بالسكر والضغط والمرارة ، وقمت والحمد لله بخدمتها وعلاجها ووقف معي فى كل أزمة صحية لها زوجا شقيقتي اللذان لا يتأخران عني إذا طلبتهما فى أى وقت من الليل أو النهار ، ولقد أصبح لأخي طفلان عمر أكبرهما ٦ سنوات وأصغرهما خمسة أعوام ولم نرهما إلا ثلاث مرات طوال عمريهما وبعد إلحاح شديد من أمى على أخى لكى يحضرهما معه لساعات .. أما زوجته فلم تدخل بيتنا المتواضع فى مدينتنا ولا بيتى أختى الوسطى أو الصغرى ، والأمر الذى دعانى للكتابة إليك هو أننى قد ارتبطت بفتاة متدينة من جيراننا أحبتنى بالرغم من ظروفى البسيطة وأحببتها ، ووالدها مدرس بالتعليم ورجل متدين وفاضل وقد رحب بى مبدئيا رغم علمه بأننى لا أملك شيئا ولا أستطيع توفير مسكن آخر سوى مسكن أمى ، وكان شرطه الوحيد لكى يقبل إعلان

الخطبة هو أن يجيء أخى الأكبر مع أمى والأختين لكى يطلب يد ابنته منه . ووعدته بذلك واتصلت بأخى وأبلغته بما حدث فرد على بجفاء يسألنى ولماذا الاستعجال ؟ ومن أين ستتوافر لك نفقات الشبكة والمهر والزواج ؟ .. ثم طالبنى بتأجيل التفكير فى الزواج نهائيا لعشر سنوات على الأقل لكى ابنى نفسى وبعدها يحق لى أن أفكر فيه ، وفشلت فى إقناعه بالحضور واتصلت به بعد ذلك فتحدث معى بجفاء أشد وأكد لى رفضه الحضور وقال لى إننى إذا كنت مصرا على الخطبة فلأتقدم بدونه إلى والد فتاتى مع أننى أكدت له أننى لاأريد شيئا منه سوى الحضور بسيارته إلى مدينتنا لبضع ساعات يقابل خلالها والد فتاتى ويطلب يد ابنته منه ، فيشعرنى بأن لى أبا أتشرف به بعد والدى يرحمه الله .

وأقسمت له أنى لن أطالبه بأى شىء آخر بعد ذلك ، فأنا رجل وأعمل وقد رجعت إلى العمل فى المقهى فى المساء كل يوم لكى أدخر ثمن الشبكة ، ووالد فتاتى لا يرى فى ذلك اى بأس ويقول لى إن كل عمل شريف يستحق الاحترام .. وإن الكفاح فى الحياة شىء جميل .

ولست أريد من أخى هذا سوى ألا يخذلنى أمام والد فتاتى ويشعره بأننى مقطوع من شجرة وليس لى « كبير » يرجع إليه ويرتبط معه بكلمة .. إننى أرجوك أن تقول له إننى وأمى وشقيقتى نحبه مهما بعد عنا ، وإذا كان هو لا يفخر بنا بسبب ظروفنا البسيطة التى لا ذنب لنا فيها فإننا نحن نفخر به لأنه أخونا أولا ، ولأنه ثانيا قد اجتهد وحقق لنفسه ما يستحقه ولكل مجتهد نصيب .. ونحن راضون بنصيبنا فى الحياة ولا نحسده على نصيبه منها لأنه كافح واجتهد لكى يحصل على ما يريد لكنه لا يصح أن يتكبر علينا ويبتعد عنا لمجرد أننا بسطاء الحال ، فنحن أهله الذين يسوؤنا كل ما يسوؤه ويسعدنا كل ما يسعده ، ونخاف عليه من أى سوء لأن الدم لا يتحول إلى ماء أبدا يا سيدى ، فهل تستطيع أن تقول له ذلك ! وهل تستطيع

أن تقول له إننى شاب ومن حقى أن ارتبط بفتاة تحبنى وأحبها مثلما ارتبط هو بزوجته ، ولا يحرمنى من هذا الحق إننى موظف بسيط الحال ولست جامعيا ومهنيا ناجحا مثله لأن لى فى النهاية قلبا يخفق ويحب الخير له ولكل الناس ولا يحمل حقدا لأحد وهل تستطيع أن تقول له إنه من الخير لى ولأمى ولأختى أن يجىء لمقابلة والد فتاتى ويتنازل عن شرط السنوات العشر هذا لأن فتاتى لن تنتظرنى كل هذه السنين الطويلة وأعاهد الله وأعاهدك أننى لن أكلفه جنيها واحدا من نفقات زواجى !

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

شقيقك الأكبر يا صديقى يتحسب لأن يضع يده فى يد والد فتاتك فيصبح مسئولا من الناحية الأدبية على الأقل ، عن وفائك أنت بما سوف يرتبط هو به معه من التزامات مادية بشأن الشبكة والمهر وما إلى ذلك من شئون الزواج . لكن ذلك لا يبرر له أبدا أن يجحد حقك عليك كشقيق أصغر له فى أن يكون معك حين تطلب يد فتاتك ولا أن ينكر عليك حقك المشروع فى أن يخفق قلبك بحب فتاة ترغبها وترغبك وتقبل بكل ظروفك ، وتبدى استعدادها للصبر عليك إلى أن تتدبر أمرك ، فالارتباط المشروع ليس حكرا على الحاصلين على الشهادات الجامعية المرموقة الذين يعملون عملا مهنيا مربحا كأخيك ، وإنما هو حق لكل شاب شريف يرغب فى إعفاف نفسه ويكافح بإخلاص للارتقاء بحياته ويعتمد على طاقته وشبابه فى تحقيق آماله ، ولا ينتظر من الآخرين أن يكافحوا نيابة عنه لتحقيقها له ، ومادامت فتاتك ترغب فيك وتتفهم ظروفك ووالدها يرحب بك ويشجعك على كفاحك فماذا يضير هذا الأخ الأكبر فى أن يشرفك أمام أصهارك الجدد ، ويشعرهم بكرامتك الإنسانية وعزتك العائلية فى مثل هذه المناسبة الجليلة فى حياتك ؟

إن الإنسان تشتد حاجته إلى أهله فى مناسبتين أساسيتين من مناسبات الحياة هما الزواج والموت . وذوو الفضل والرحمة هم الذين ينهضون بغير دعوة لمؤازرته والوقوف إلى جانبه فى كل من هذين الموقفين .. وفى مثل ظروفك فإن هذه المؤازرة التى تتطلع إليها من أخيك هى مؤازرة معنوية وأدبية فى المقام الأول مهما اشتدت هواجسه هو من احتمال تورطه فى بعض الأعباء المالية ، إذ إنه حتى ولو صدقت هذه الهواجس بعد حين ووجد نفسه مضطرا لمساعدتك فى بعض هذه الأعباء ، فماذا يقض مضجعه إلى هذا الحد فى ذلك ، ولقد كانت مساعدته لأخته التى أسهمت إسهاما مباشرا فى تدبير نفقات تعليمه وتخرجه فى كليته المرموقة أقل كثيرا مما كان يقتضيه الوفاء والواجب العائلى أن تكون عليه مساعدته لها ، وكانت مساعدته لأخته الصغرى التى تحملت مع بقية الأسرة جفاف الحياة وشد الأحزمة على البطون لكى يصنع هو نجاحه ، أقل من القليل الذى كان يرجى منه ، فكيف ستكون إذن مساعدته لك لو اضطرته الظروف لها وأنت الرجل الذى يكافح بشرف ليتحمل مسئولياته .. وتؤكد له من الآن أنك لا تنتظر منه شيئا !

إنه لو فعل ذلك .. لما كان ذلك تفضلا منه ، وإنما وفاء بحقكم عليه وقد شاركتم جميعا فى صنع نجاحه ، بتحملكم لقسوة الحياة سنوات عصيبة توجهت خلالها معظم موارد الأسرة إليه خلال فترة دراسته الجامعية وفيما قبل ذلك أيضا .. فما وجه العجب وقد منّ الله عليه بفضله فى أن يعين أخا مكافحا له على أمره ولو كان ذلك من زكاة ماله والأقربون أولى دائما بكل معروف من غيرهم !

وما هذا التعالى والجفاء والتكبر الذى يعاملكم به وكأنه قد خرق السماء طولا لمجرد أنه قد انتشل نفسه باجتهاده من ظروفكم البسيطة ورقى درجة من درجات السلم الاجتماعى !

وكيف تكون الأم والإخوة هم من يستشعرون هذا التكبر والغرور فى أخيهم المرموق ، وهم أحق الناس بحبه واعتزازه بهم وعطفه عليهم ؟ إن شقيقك هذا قد يصلح لأن يكون « مثلا أعلى لكم » فى الاجتهاد والكفاح ومغالبة الظروف القاسية للارتقاء إلى حياة أفضل .. لكنه لا يصلح أبدا لأن يكون مثلا أعلى لأى أحد فى البر بالأبوين وصلة الأخوة وصلة الرحم وفضيلة التواضع والفهم الصحيح لحقائق الحياة ، ذلك أنه إذا كان التكبر مذموما على إطلاقه مع كل البشر تواضعا لله سبحانه وتعالى ، واعترافا له بانه وحده سبحانه وتعالى من يحق له التكبر دون بقية خلقه ، فإنه على الإخوة والأقربين ليس مذموما فقط وإنما إثم كبير لأنه يمزق الرحم التى أمر الله بها أن توصل ويغرس المرارات والأحقاد فى أعماق أحق البشر بصفاء نفوسهم تجاه بعضهم البعض وبتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم .

إننى أحيى فيك صفاء قلبك تجاه أخيك بالرغم مما نالك منه من مجافاة وإبعاد ، لكنى على الناحية الأخرى لا أفهم سر هذا الضعف الغريب فى التعامل معه من جانب والدتك التى لم تجرؤ حتى على معاتبته على سوء استقباله لك حين زرته فى بيته ، ولا على تحريمه بيته عليك وعليكم جميعا وكأنما قد خرج من جلده وأصبح شخصا آخر لمجرد تحسن أحواله الاجتماعية والمادية عنكم ، ولو لامته والدتك على هذا التجافى الذى يبديه نحوكم لما حق له أن ينكر عليها ذلك ، ولو غضبت عليه وحرمته من رضاها عنه لاستحق هذا العقاب المعنوى كل الاستحقاق ولربما نغص الإحساس بالذنب تجاهكم عليه حياته ، ورده إلى الطريق القويم فتخلصوا جميعا من هذا الضعف والانكسار تجاهه . وتعاملوا معه كما تتعامل الأم مع ابنها والأخ والأخت مع أخيهم ، ولست أطالبكم بمقاطعته .. وحاشاى أن أنصح بقطيعة رحم وإنما

أطالبكم فقط بمعاتبته ومحاسبته محاسبة الأخ لأخيه والأم لابنها مهما علاقدره عن مجافاته لكم وإبعادكم عنه وعن طفليه وزوجته .. كما أطالبكم أيضا بإشعاره باستغنائكم المادى النهائى عنه لكى تهدأ هواجسه مادام قد رضى لنفسه ذلك فلربما يعيد النطر فى موقفه منكم ويطمئن قلبه إلى انكم إنما تحتاجون إليه إنسانيا فقط كما يحتاج هو إليكم عسى أن يفيق من غفلته قبل فوات الأوان ويدرك انه مهما طاول الجبال طولا فإن مصيره فى النهاية إليكم وإلى مقابر الأسرة فى مدينتكم حيث لن يقوم به وينتحب عليه ويتلقى العزاء فيه بعد عمر طال أم قصر .. سواكم .

لقد أحنقتنى رسالتك هذه وما رويته فيها من مظاهر تكبر أخيك على أقرب الناس إليه وإبعاده لهم عنه ومجافاته لهم وتغطرسه عليهم ، فتساءلت أى شىء فى الوجود يبرر للإنسان أن يعتز بنفسه بعض هذا الاعتزاز ويستشعر الكبر والتعالى على أصله ؟

لقد روى لنا ابن القارح فى رسالته إلى أبى العلاء المعرى التى رد عليها شاعر المعرة برسالته الشهيرة : رسالة الغفران ، إن زاهد الكوفة ابن السماك قد دخل على الرشيد وفى يده كوب من الماء يهم بشربه ، فسأله الرشيد أن يعظه ، فأشار السماك إلى كوب الماء فى يد الخليفة وقال له : أرأيت لو قدر الله عليك العطش ثم قال لك لن أمكنك من شرب هذا الكوب إلا بنصف ملكك ، أكنت فاعلا ذلك ؟ فقال الرشيد : نعم ، فقال ابن السماك : أشرب هنأك الله . فلما شرب قال له : أرأيت يا أمير المؤمنين لو قدر الله عليك فقال لك لن أمكنك من إخراج هذا الكوب إلا بملكك كله أكنت فاعلا ذلك ؟ فقال الرشيد : نعم .

فقال له زاهد الكوفة : إذن .. فاتق الله في ملك لا يساوى إلا إخراج بعض الماء !

فإذا كان هذا ثمن ملك هارون الرشيد الذى كان يقول للسحابة الهائمة فى السماء : أمطرى حيث شئت فسوف ياتينى خراجك ، فاى « معجزة » حققها شقيقك فى حياته لكى يرى فى نفسه ما يدعوه إلى الاستعلاء بها على امه وإخوته وأهله ؟

يا صديقى الشاب لقد قلت لشقيقك كل ما يعقل الحرج قلمك عن أن يقوله .. فإن لم يكن كل ما قيل كافيا لأن يعيده إلى رشده وإنسانيته ، فلن يجدى معه قول آخر .

وأنصحك فى هذه الحالة أن ترجو والد فتاتك الرجل المتدين الفاضل أن يتنازل عن شرط التعامل مع شقيقك هذا ويكتفى بك وبوالدتك وشقيقتيك وزوجيهما ففيهما الكفاية كل الكفاية ، إذا أبى أخوك لنفسه هذه « الكرامة » التى تكرمونه بها وتعلون بها من قدره أمام الآخرين .

فجزاء من يابى لنفسه مثل هذه الكرامة .. أن يحرم منها .

وحسبه ما يعميه غروره وتكبره عن أن يعتز بمن يعتزون به يتشرفون بالانتساب إليه ويعتبرونه نجم الأسرة الوحيد أن يحرم نفسه بيده من مثل هذا الإحساس الإنسانى الثمين ، ذلك أننا فى النهاية لا قيمة حقيقية لنا إلا لدى من يحبوننا ويعتزون بنا وتنطوى صدورهم لنا على مشاعر الحب والإكبار والإعزاز ، وفيما عدا هؤلاء فلسنا بالنسبة لغيرهم سوى ذرات سابحة فى فضاء الكون السحيق .. لا يشعرون شعورا حقيقيا بها ولا يفتقدونها إذا غابت .

فكيف يباعد ذو قلب حكيم من لا قيمة له إلا لديهم ويقرب من لا يساوى لديهم فى الميزان الحقيقى شروى نقير ؟



● العنوان على الانترنت

WWW. akhbarelyom. org\ketab

● البريد الالكترونى

akhbar el yom@akhbarelyom. org

رقم الإيداع

٢٠٠١/١٣٠٣٢

الترقيم الدولى

977 - 08 - 1008 -8


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

هذا الكتاب

الحق إننا كثيرا ما نتطلع لما يخرجنا من حيرتنا حين تتعدد أمامنا الاختيارات فى بعض مواقف الحياة .. وكثيرا ما نحتاج لمثل هذه « الإشارة » الإلهية التى ترجح لدينا اختيارا على آخر .. أو تبشرنا بالسعادة الموعودة إذا نحن مضينا قدما إلى ما اخترناه .

فالإنسان يفكر فى أمره طويلا ويتحسب للعواقب المحتملة .. ويقدر النتائج المأمولة ، ويميل لإختيار طريق محدد يمضى إليه ، لكنه يحتاج بعد ذلك غالبا إلى من يزكى له هذا الاختيار .. ويشعره بأنه سيمضى فيه إلى السعادة والأمان .. ولقد يكون هذا الصوت الباطن هو « الإشارة » التى تحسم تردده .. وتحثه على الإقدام .كما قد يكون الرأى المخلص الذى يسمعه ممن يثق فى اهتمامه . أمره هو المرشد له للخروج من صحراء التيه والحيرة .

والإنسان دائما فى حاجة إلى العطف والاهتمام بأمره ممن يحيطون به .. فإذا افتقد ذلك فيهم تلمسه لدى من يبدون استعدادهم للتعاطف معه على البعد .

عبد الوهاب مطاوع

طبع بمطابع أخبار اليوم

عدد خاص ■ الثمن ٧ جنيهات